# هواجس أسير

obeikandl.com

كفاح طافش

"هواجس أسير"

الطبعة الأولى (٢٠١٣)

صدر عن

دار الجندي للنشر والتوزيع – القدس
٠٠٩٧٢٢٣٤٠٠٣٥
info@aljundi.biz
www.aljundi.biz

موّلت طباعة هذا الكتاب مشكورةً : شركة علي شقيرات إخوان للبناء– القدسجميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو أي جزء منه، بأي شكل من الأشكال، بدون إذن خطي من الناشر.

All rights reserved. No part of this book may be reproduced in any form or by any means without prior permission of the publisher.

# هواجس أسير

بقلم الأسير:

كفاح نصر الدين طافش

obeikandi.com

obeikandl.com

# إهداء . .

لكل من غابوا خلف الشمس باحثين عن حرية شعبهم
سنوات طالت ولم تنتهِ بعد...
لكل القدماء وذويهم الذين لا يكفون عن الحلم
بالحرية لهم...

إلى حمزة ووالدته الجميلة ...وسامر ووالدته يسرى...
حب ووفاء...

إلى أخي لؤي ...عرفانًا وامتنانًا...

كفاح طافش

oberikandl.com

# شكر وعرفان

لا يسعني إلا أن أشكر كل من شجعني للمضي بهذه التجربة، ولم يكن حجر عثرة تثبط عزيمتي، وكذلك لكل من ساهم بجهد هنا أو هناك لإخراج هذه الهواجس حية تنبض بالوجع الكامن بكل أسير يمر في ثنايا الضيق... لكل رفاق المعاناة الذين شاركوني صياغة هواجسي إمّا بقصدهم أو بالنقاش الجاد والبناء....

كفاح طافش

obeikandl.com

# هاجس الهواجس

في غمرة من الحيرة والتأمل يكمن ما لم تقدر أن تحدد شكله، عنوانه، أسلوبه. إرادة حقيقية تجرّك باتجاه معلوم مأمول لا غير، وأنت تسير تخط هنا كلمة وهناك أمنية، تسيجك الظروف وكل المكان سيكون حاضرا حتما، كشجرة عمياء تثمر دون إرادة منها، فتصبح هدف الشهوة والرغبة، أما خياراتك طريق السير للهروب مما أنت فيه، فكل الأسوار وكل الجدران، والقضبان من حولك لن تزيد من عزلة واقعك وانحناء الوقت لديك نحو ما لم تكن تتوقعه.

هكذا كنت دائما أرتب نفسي في حضور طقس فريد من كل شيء؛ فكل شيء يجمعه في حدود اللاشيء هنا، تتعود الرتابة التي تذبح عواطفك باتجاهات متناقضة، الصدق كذب، الحب كره، الصداقة عداوة، التافه قيم وأنت ...أنت من دون عمر سكبته في ثنايا الاسمنت هنا، عزاؤك الوحيد عهد الوطن المؤجل برسم الشهداء على شمس غد قادم، أدور حول ما أريد هنا على هذه الصفحات، أستخرج سؤالا لا تستطيع تقديم الإجابات عنه دون عرض كل ما تخاف منه وتعتقده.

السجن هو سؤالي المحير على البيضات المتناثرة بين الأزرق الممتد، بحيرة ودهاء، السجن مكان سكني الحالي الذي قررت جاهدًا وبعد مخاض عسير أن أعيد

ترتيبه في داخلي لكي استطيع أن أساوم عليه من يريد أن يساوم! فالأساطير وحدها هي ما سمعته عن السجن وما فيه قبل الولوج إلى عالم الاسمنت هذا، في كل يوم يمضي هنا تتكسر قيم لتحل مكانها أخرى، أحاول أن ألجم هذه التغيير باتجاه واحد، لكن المكان هذا له منطقته وإسقاطاته، جموحه هيجان يذوب ما لم تكن تستطيع أن تصهره خارجًا، ويبني أمامك ذوات وحيوات عدة إما نزقًا أو ترفًا، لا تقدر أن تصنع من أيامك غير مفكرة تعدد مدى التغيرات التي تعلق بك، وبعد فترة من الزمن تحصيها وإذ أنت غيرك، فتكون أنت غيرك الفارغ توًا من ذاتك.

فراغك هنا قاتل برسم وجودك، لا أظن أن من قرر وضعك في السجن كان عبثيًا كساعاتك العبثية هنا، أهدافه لا أستطيع أن أقدرها أو أحددها، لو كنت خبيرًا نفسيًا أو باحثًا اجتماعيًا لاستطعت أن أحدد أي تفصيل أراده، لكنني مقتنع أن السبب في عقلية هذا الشرطي... السجان ...القاضي ...الاحتلال، راسخة برسوخ قناعاتي بالحرية دائمًا وأبدًا، لكن متى؟ أنا سيكون موعدي مع هذه الأماكن، ثماني سنوات لا غير. آخرون اختاروا العيش برهن الحلم السائر بين براثن الأيام لتغدو الأيام حاجز الأمل والإحباط معًا، وهي ذاتها وعد الغد القادم الذي يحمل الفرح حتمًا كذلك، هي- آه- من هي، تفتك بك، تخلع منك سكونك....ألفتك وكذلك شكلك، تمر يوميًاعلى المرآة لكن من دون التعرف إلى مدى تأثيرها فيك، ما بين

ذاكرة وأخرى يمكن أن تلتقط صورة لك أمامها، لا داعي للشرح، أنت غيرك وغيرك آخر ...إلى أن تعرف أن هناك أناسًا ما زالوا يقبعون هنا وتجاوزوا عامهم الرابع والثلاثين دون معرفة يوم الإفراج.

من بين الألم هنا وجوه الواقع المؤلم، أفضل أن أقتات وجباتي منه بانتظام ورتابة لأحاول ترتيب هذه السطور، فكرت كثيرًا وكثيرًا: كيف يمكن أن أقدم هذه الواقع لإنسان لم يعشه؟ كيف أستطيع أن أتجاوز أسطرة الحياة هنا؟ كيف سيقتنع الناس هناك أن السجن ليس مكانًا مقدسًا والناس هنا ليسوا أنبياء؟ كيف أستطيع منع وقوع الصدمة التي هزت كياني حين دخلت السجن لغيري؟ وكيف أحمل هذا الواقع هناك دون تهويل وأرقام صماء؟ كيف ألتقط الصور كما هي هنا لتكون ألبومًا هناك وكيف ...وكيف.؟

أسئلة كثيرة اجتاحتني، ومع كتابة هذه الكلمات هنا قررت أن أقفز من مدرجات المشاهدين لخشبة المسرح، لأعيد رسم حكايتي هنا لتكون منبرًا لهذا الواقع دون ابتذال؛ فالسجن حكاية شعبية سمعتها مرارًا وتكرارًا على شفاه نساء الوطن، كتبتها جداتنا على أبواب بيوتهن حيث قررن الخروج عام ١٩٤٨، فالتقطها هذا العدو عنوة من على جدران منازلنا، ليعيد فك طلاسم الحكاية، وبسادية أكثر ليعيد نبش ما لم ينبش، وليفرك على ذاك الفانوس ليوقظ هذا العملاق الذي ما زال جاثمًا على حياتنا بأبوابه وزنازينه وسجانيه وجنازيره وقيوده.

أخاف أنا من كل شيء حتى من الصمت والسكون، خوفي هذا هاجسي الأزلي هنا، كيف سأعود هناك؟ كيف سأخرج من هنا دون بثور؟ هل سأتجاوز وحدتي؟ هل هناك من حبّ آخر لأضيعه أو يضيعني؟ كيف أستطيع العودة لجامعتي؟ إلى تلك الأنثى التي أفتقدها في عالم الذكور هنا فأصبحت عاهتي المستديمة؟ ...وهل.... آلاف الهلوسات هذه تهجس بي يوميًا. تسيطر على عقلي وتفكيري، مع أنني حافظت على نصيحة أحد الرفاق قالها لي منذ دخولي السجن، وهي –بالمناسبة– للشاعر ناظم حكمت : "عش في السجن ولا تدع السجن يعيش فيك، اسكن السجن ولا تدع السجن يسكن فيك."

هذا كان شعاري الدائم، لكنني سئمت من التصنع والرياء؛ فقد عاش السجن بي، ها هو اليوم يتفجر على شكل هواجس ألملمها لكم –هنا– على هذه الأوراق علّني أشفى منها؛ لقد قرأت في إحدى الروايات "أننا نكتب الحدث لكي ننساه ونحذفه من ذاكرتنا"، وهي محاولة لإخراج السجن من داخلي إذًا... ألقيه بعيدًا بعد أن أضاع الكثير من البراءة والعفة لديّ، أدّعي في كل شيء حتى أصبحت أرى شخصًا آخر في المرآة كل يوم، أخرج إذًا أيها اللعين، فسأصاب بك مرة أخرى لكن لا بدّ من العلاج لإعادة المتعة الأولى، فهم يقولون: "المتعة الأولى كنز الذاكرة الأزلي ."إن المتعة الأولى في كل شيء أول مرة، لذلك ستبقى أزليًا في كل شيء حتى في طريقة دخولي

الحمام!!

كما أن هذا السياق قد يخدع منطقي، سأبقى حافظًا لكل ما شاهدته وعايشته،؛ لأن مجتمع الحديد والاسمنت لا يقدر على استخراج غير الوحش والتوجس،؛ ففي كل مرة تقرر فيها أن تنتفض على نفسك تعود بخيبة أخرى دون طائل المحاولة،. هذا ما لم يوافقني عليه كثيرون من رفاق المعاناة هنا،؛ لأن غالبيتهم يتقن الادعاء والكذب، وهو مُصرّ على أن يكون السجن صفحة مشرفة من صفحات نضال شعبنا –لا ضير– لكن الحقيقة هي الهدي الأكيد التي تؤسس إلى إعادة ترتيب ذواتنا أولاً، ومن ثم احتمالات وجودنا الجماعي، لذلك لا بد أن يكون السجن برأي الأغلبية موقف المنطق المبتور "مكان الرجال"، كما سمعت الكثير الكثير يقول "السجن للرجال". من قال هذا؟ آه! أريد أن أتعرف إليه بكل كذبه وادعائه لأقف أمامه بعاهاتي وأواجهه بالحقيقة: أنا هنا وأنا أشك برجولتي!!

إن كان مفهوم الرجولة كما يريدون فحولتك وقدرتك الجنسية، فلا أعتقد أن السجن يمسّها بشكل عام، فأنت هنا تصاب بجوع جنسي لدرجة التوحش، وهذا هاجس سأطرح به هنا، فالرجولة أن تحافظ على إنسانيتك أكثر من أي شيء آخر! وهنا من يستطيع؟.

في استمرار النقاش لما لا يصح نقاشه من شعارات ضقت بها وبسماعها، شعار الرئيس الراحل أبو عمار حين قال "إن خيرة أبناء شعبي في السجون". لو أنك

تعاد لتبعث حيًّا من جديد على هذه البقعة المعزولة عن الحقائق بزيفها، ستكتشف أن كلامك منافٍ للحقائق، وأن هناك الكثير من أبناء شعبك الموجودين في السجن حثالة هذا المجتمع بل أرذله،. في حالتنا العربية النضال يعطي – فقط – شهادة أخلاق وبراءة ذمة عن الوساخة والوضاعة؛ إن السارق حين يسجن يبقى سارقًا، والمنحرف أخلاقيًا وجنسيًا كذلك والعميل– أيضًا– والكذاب ...وكلّ هذه الأنواع من البشر لن تتغير لمجرد رخصة الوطن التي يصكها الاحتلال لمجرد آنَ اعتقال أحدهم. لذلك، سيبقى السجن مكانًا مجتمعيًا يحمل في ثناياه آلاف البشر من الفئات كلها. أعرف أن هذا الكلام لن يعجب الكثيرين هنا، لكن في لحظة من اللحظات تقرر الاعتراف، ولا أريد أن ينتابني أي ندم لذلك بدأت الكتابة.

للإنصاف– أيضًا– لا بد من الإشارة أن هذا الواقع المأساوي يحمل كذلك قصصا ومناضلين يخطون التضحية والمعاناة ملاحم تستحق أن نسجلها ونؤرخها، لكي لا يقال عني بأنني سلبي وسوداوي، مع قناعتي أن كل ما سجل من واقع هنا هو المشرق والمشرف فقط، ولم يتطرق أحد لسواد السواد هنا، سمعت في إحدى الفضائيات تعليقًا عابرًا أن السجون الإسرائيلية فنادق! سأعتبر أن الجهل فتك بمن عبّر عن ذلك؛ فلو تبرع للوطن بيوم واحد، وعاش هنا ٢٤ ساعة سيعرف أن هذه الفنادق أوهام تأكلها أدمغة التافهين الذين يعرفون الوطن من خلال نشرات الأخبار،

وكل ارتباطهم به عبارة عن شعور حزن عابر لمشهد من الشهداء سقطوا بفعل آلة القتل الصهيونية، أسوأهم يتعرف على المواطن عبر تأشيرات البنك الشهرية التي تؤشر دائما لزيادة رصيده، وكل زيادة للرصيد المالي تقلل رصيد الانتماء لديه، الملايين المشردون في أصقاع العالم لاجئون، نازحون...أيّ اسم يتفق عليه بفعل الإنسانية المبتورة في العالم.

أمّا السجن فهو يحمل صفحة أخرى لواقع رسمٍ بتضحيات الشهداء ودمائهم وجوع الآلاف في معارك "الأمعاء الخاوية "لكي يحققوا ولو جزءًا بسيطًا من إنسانيتهم عبر انتزاع حقوقهم التي كفلتها الشرعية الدولية، قد يقول قائل: أيّ عقول هذه تضع التلفاز أو سخان الماء وحتى السرير والفرشة والملابس في ميزان الجوع والحياة ...؟إنها تفاهة ووضاعة لدرجة عدم احترام إنسانيتهم، اسمحوا لي أن أعيد ضبط شعور من يقولون ذلك إنسانيًا، إن التلفاز والسخان ...الخ ليست المعادل للحياة ولكنها معادل الكرامة؛ فإن خيرتنا بين الكرامة والحياة ...سنختار الكرامة، مع أن هذا الخيار خيار الأغلبية في السجون، لكنه ليس خيار الجميع؛ فهناك من يساوم على كرامته بالحياة والأكل والشراب، فأصبح هذا الواقع أقرب إلى لخردة عفت عليها حكايات المجد والصمود الأسطوري، فسيطرت هذه الفئة على مقاليد الأمور هنا، وأصبحنا نشعر- هذه الأيام- أن الكرامة شعور برجوازي في السجون ، لكن هذه الحالة

ليست مؤبدًا نرزح تحته دون إمكاناتٍ للتغيير.

سيقودني هذا الاعتراف بالحقائق كما هي إلى متاعب كثيرة أهمها أننا مجتمع يحترف قلب هزائمه انتصارات، فنغدو باحثين عن الوهم في الوهم دون محاولة قول لقول الحقائق، من يجرؤ على ذلك يكن عميلاً للامبريالية العالمية، متواطئًا مع الاحتلال وفي أدنى التهم مهزوم من الداخل.

اعذروني هنا،! لقد قررت مسبقًا عدم ترك السياق الزماني والمكاني يسوق تجربتي هذه، عفوية ما كان يختلج النفس من كل هواجسي ألقيها دفعة واحدة،؛ قد يحدث عطب هنا وآخر هناك، وقد تتنازع وجهات نظر عن مُكْنة العلاج بهذه الطريقة لكنني أبشركم بأنكم ستجدون السجن هنا بين ظهراني هذه الصفحات بطريقة جديدة، تمدّون أيديكم وتتلمسون المعاناة والأعطاب الإنسانية دون أرقام ودون تهويل وكذب ...فقط ستلملمون شظايا إنسانيتي من كلّ هذا وإن حاولتم إعادة ترتيبها ...أشكركم مسبقًا، لكن أعتقد بأن أشباه الإنسان الذي يخط هذه الكلمات قد فقد الكثير ليعود هو ...هو؛ فالهزائم هي بمثابة عودعلى بدء دون مراجعات ولا حتى استخلاصات للعبر، أنا للأسف مصر على هزائمي وهواجسي هذه... فالوطن محراب وجودي في هذه الحياة. وإلى هذه اللحظة لا أعتقد أنني جاهز لأغير نمط عبارتي الوثنية، ليكون هذا هاجس هواجسي الأسيرة.

# الهواجس الأسيرة

هاجس الحرية

هاجس الأنثى

هاجس الوحدة

obeikandl.com

# هاجس الحرية

يا لمعنى هذه الكلمة في السجن! تطير بك كلحن سريع إلى أعلى قمم نشوتك المحفوفة بالرغبة المكبوتة، تدنو منك تدغدغ مكانًا مظلمًا في أعماق جسدك المطلوب بإيقاظ الشموع إعلانًا منه لبدء طقس فريد من طقوس العبادة الوثنية، أقلّب دفاتر هذه الكلمات بروح البحث الأرجوانية عن كل ما أريد، أجد أنه بقي لدي الكثير من العمر في انتظار مزيد من الوقت، أي جسارة هذه التي تطيح بك من على قمة شجرة التين الخالدة في ذلك الوادي المنسي، تمر وتمر لا يبقى منك سواك!

أعيد البحث عن وصف ما أريد، أجد أن كثيرًا مما أريد ما زال رهن اللاوعي لديّ، أقيد بعض الجمل بسلاسل وعيي محاولاً اقتيادها، تعود ترفّ تلك القطعة الصغيرة بيد ماهر في العزف على أوتار الفؤاد، أضحي قتيلاً بريشة آخر الرسامين، لما تبحث عن بعض الكلمات ما دمت عاجزًا هنا؟ إنه الشعور بالترف أحيانًا ...الكفر أكثر، عودي يا طفلتي الأولى؛ فأنا ما زلت أشاهد الكلمات تطير في فضاء الأبجدية تحرث أماكنها ذهابًا وإيابًا، أشعر أحيانًا بأنها تقصد البقاء هكذا، أودع حيرتي على هذه المساحة، فقد اخترت ما كان بقي من شعور فريد لفترة هي بالأصل معجزة ...إنها أنا وهو ...كل هؤلاء القابعين برسم الوعد هنا ...الحرية.

كلمة تسقط عليك من علياء ترانيم الخلود، أمدّ يدي محاولاً التقاط تلابيب حرفها الأول، فالحاء هي مكمن السرّ ووجع الشهوة بعد وصول نشوة الجسد للمراد القاتل، حاء تلفح كيان الخيال فيغدو مدرسة تبادر كل صباح للذهاب إليها بأفضل الثياب عكس عادة أي طفل ينتزع من مكانه "عالمه الخاص "ليضعه في العام.

فهل سأل أحدنا لماذا يبكي الأطفال في أولّ يوم يذهبون به إلى المدرسة؟ أعتقد أن المجهول والحيرة هما هاجسه في تلك اللحظات، أمّا هنا فلا داعي للاكتراث كثيرًا، فشجرة اللوز ما زالت تصر على مفارقة الحياة دون طرح عطائها الأخير، أحاول استقدام صرفٍ آخر من تلك الكلمة. إذًا تأتيك عاتيةً وتهيج سكونك وهدوءك النسبي، الراء مبعث الرهج من حولك، صاخب بعد عودة راعي اللغة من آخر قصيدة أرهقته أنغامها ما بين استعارة وتشبيه ووصف، لا تؤسس على هذا الوقوع المفاجئ بين أحداث الإثارة والهيجان، فالياء كأنهار نبحث عنها جيدًا بين موجودات الطبيعة لنعيد استخدام حنانها لسحق الطيوب، فهي تكدس بسطحها الأملس روائح كلّ ما يسحق بها، تعيدك إلى نقطة بدايتك التي تحاول دائمًا أن تغادر وجعها، فرفضك الدائم هو أنك مللت من كل شيء حولك، فالرتابة قاتلة تحيك لك حاجزًا برزخيًا بين حياتين مختلفتين، تقطع المسافة بينهما تفكيرًا بحرف التاء المربوطة، لتصير هي كلمة الحلم أو حلم الكلمة لديك،

فيرتفع مؤجلك نحو الاستحالة أحيانًا، وأحيانًا تسأل نفسك بأمل: هل موعدك من استكشاف حقائق هذه الكلمة قد أزف؟ .....إذن هي الحرية.

عادة يكون أيّ نقاش يدور بين أي أسيرين هو بالمجمل اهتمامات عامة ومنها خاصة، لكن، إنْ بحثت جيدًا بين ثنايا هذا الحديث ستجد ضالتنا "الحرية "كامنة في كل تفاصيله إن لم تكن هي محرضته ومحركته الأبدية. مع هذا، علينا أن نعيد ترتيب ذواتنا بحيث نحذف هذه الكلمة من أيّ حوار يومي، فهي بالأمل ومقيتة في انتظارها، تود لو أنك تحمل ريشة لتعيد رسم الحكاية من بدايتها حتى نهايتها التي لم تحن بعدُ، فقط من أجل استبانة حقيقة هذه الكلمة. لذلك، تهرع بالسؤال لأيّ أسير له تجربته بالاعتقال مسبقًا...

- ماذا شعرت عند خروجك من السجن؟
- يعني قصدك الحرية شو شعورها؟
- نعم بالضبط...

يتأخر جوابه باحثًا في ثنايا ذاكرته عن ذاك الشعور. أخاف جدًا! ترتعش كلّ أنحاء الحياة في جسدي، هل أمعقول أن حلمًا كهذا تضيعه آخر حافة التجأت إليها بعد أن غرر بي البقاء هنا؛ لا يعقل أن يتحول حلمي إلى ذاكرة عابرة... أحتاج إلى وقت طويل لأعيد ترتيبها جملاً محاولاً ستر العيوب العالقة ببراءة الحلم. إن كلّ مَنْ وجّهت لهم هذا السؤال تصرفوا التصرف نفسه، حيرة

وصمتًا حتى يأتي الغيم ليعيد فتح أبواب الأمل، كفلاح استبشر خيرًا، يرتدّ إلى أعقابه خائبًا، شحّ الغيث وكأن الغيوم تداعب شهوتي في الانتظار.

– والله رجعتني لتلك اللحظة، فعلاً لحظة لا توصف...!

أيّ حلم هذا الذي لا يوصف؟ أرفع الاستفهام ليختاط لي سؤال يضربني كعاصفة هوجاء، أذهب بعيدًا خلف خلفي لا أجد غير سؤال آخر، كأن هذه اللحظة باتت بين فريسة تهرول باحثة عن الأمان من مفترس قرر استيضاح حقائق الأمور؛ شمس تطوي شعاعها رسائل أبدية لوجود عابر، تمر عليك السنوات وأنت ترتب حلمك بلطف وأناة، أعيد فتح شهيتي للسؤال عند كل تأمل، لا، لن يكون غير هذا الواقف أمامي بكل حقائقه، لذلك، أعتقد أحيانًا أن الحرية هي المؤجل دائمًا، وشعور للترف أحيانًا أخرى.

يطرأ عليك هاجس الحرية في كل لحظة تقرر حزم متاع الذاكرة والذهاب في رحلة لم تعد تتحكم بنمط سيرها... تأتيك حلمًا في ليلة لا تختارها، تعيدك حيث أنت هم لا غيرهم بين ثنايا الحكاية، تعزلك بعيدًا خلف الواقع المؤلم في كل مرة تعود تعبًا مرهقًا لاهثًا من هذه الرحلة، ما يفتك بك سؤال واحد لا غير "الحرية"؟، خوفك المجهول الذي يقودك إلى المجهول غيره تعلمه علم اليقين أنْ نحن الآن في السجن... تغادر إليه تكتشف أن عوالمك

هي ذاتها، قد تختلف التفاصيل لكن فراغك واحد، تعده لا بل يعد لك دائمًا فراغًا جاهزًا تحشره بكل تفاصيل سؤالك المجهول، إذًا، هي كلمة بحجم أكبر الكتب وأعظمها قدرًا، تقدر أحيانًا على استباحته لتعالج هدوءك وصمتك هنا.

لن تستطيع أن تحلم من دونها، هي مشهدك المُلِحّ برسم صورة تعودت أن تطير من زهرة بنفسج إلى لوتس حائر، في أحسن أحوالك ترتب أرضك بحنان ورفق محاولاً اجتذاب شقائق النعمان كدليل على أسطرة هذه الكلمة، يقولون "إن شقائق النعمان هي نتيجة رشفة من دم الآلهة الأم عند الفينيقيين حينما قتلت"، قد يكون رهن الانتظار هنا مكانًا آخر لنثبت انتماءنا الأسطوري لعالم لم يعد ملكنا بغير الحلم، وفقط هو الحلم، لينساب جداول فكر، وآخر مكان ينقل به قربان أخير تمجيدًا لزمان سيأتي بالعفة الأولى.

حين تقرر أن تعدل مزاجك بعد لحظة يأس، تُعِدُّ فنجان قهوة، وتأخذ إجازة من المكان لتستريح بعيدًا في الزمان، هكذا تؤثث حياتك بالأمل، إننا نكابر دائمًا.... حين تسأل أيّ أسير عن مشاعره تجاه الحرية، تأتيك الكذبات لتناغم أحلام أنصاف الرجال بفعل فتك السجان اليومي المبرمج. لكل واحد حكاية وحلم، وكل حلم مشروع جنون، لا يأتيك ما تريد رغم كل محاولاتك لاستحضاره، تعتقد للحظة بأنك لم تعد قادرًا على كتمان أوجاعك ..بما أن السجن للرجال... كما أرادوه، لكن سيصعب عليك أن

ترتب نفسك على حقيقتها؛ إن أيّ مواجهة لها بها سيكون قد وقع المحظور، لتكن إمّا ضعيفًا قد خانتك إرادتك، أو أن الهزيمة قد أخذت تعشش في صدرك، وهكذا دون أن تكون أنت من قرر أن تكون أنت الحقيقية، التي لا تقبل الزيف، لذلك كلّه أو بعضه، تقرر أنْ تكابر فتصيح بقول مظفر النواب: "نكابر ونكابر دومًا وما أكذبنا... لحنها عذب يعالج بعض بعضك لكن هذا سيبقى رهن اعتقال هذه الصفحات؛ فمن يجرؤ على تقيؤ الوجع سيكون ضعيفًا، فالحجارة والاسمنت تؤثث هذا الواقع ليغدو صلبًا حتى في المشاعر.

إن كلمة الحرية ليست حكرًا على مجتمع الأسرى وحده؛ فهي– أيضًا– طفلة تحبو في عقول أبناء كل شعب مضطهد ومظلوم. لذلك، سيصعب علينا أن نتكهن بتفاسير نقدمها جاهزة، أعفي نفسي من الدخول في مهاترات المشاعر، لأن إتقان رواج كل ما لديك هو انتصارك وهزيمتك. فاض كلّ ما تحمله فوق تلال وجدك المحتار، تسيل منتهزًا انتفاضات نشوتك المجنونة بعض الشيء، فترحم كل من يسأل عنها وعنك، حيث يصبح الأسير هو نفسه الحرية ما دام رهن الحلم، ولم يتخط ظرف الاعتقال، أغلب من يمكثون هنا يمتلكون حدودًا للأحلام وموعدًا للحرية بتاريخ إفراج واضح. لذلك، يتم التعامل مع كل واحد بأنه صورة مشرقة لموعد مضروب مع الحرية، قد تدخل غرفة فيها سبعة أسرى ممن أحكامهم تتجاوز

الثلاثين عاما، وأنت محكوم عليك، بخمس عشرة سنة –إنت برشك على الباب ....يا نيالك!!!

أي حظ هذا الذي أمتلكه ليقال بأنني صاحب حظ! هل أُحسد كوني محكومًا خمسة عشر عاماً؟ أليست هذه الخمسة عشر دهرًا من الأحلام والهزائم؟ كيف يبدأ العمر بالهروب منك لمجرد أنك تحمل حكمًا أقل من كل الموجودين؟ ترتاع لكثرة التنقل بين كلمات الغبطة والسرور التي تجتاح حلمك الأسير؛ لأنه يستمر خمسة عشر عاما... سأرتب هذه المشاعر، لا أستطيع؛ لأنك لا تفهم كيف يصبح سهلاً على الإنسان أن يؤثث حلمه وفقًا للظرف المعيش، ولا للحقائق كما هي بأن كل سنواته الخمس عشرة ستنتزع منه شبابه وكل حيويته، ليغادر السجن وعمره قرابة الأربعين، الأسير نفسه لا غيره يقتحم استقراره في خلية غبطة هاجس النقل، تأخذه "البوسطة" آلة النقل– أيضًا– بهاجسها، فيحط في سجن آخر لكن بمواصفات مختلفة، قبل ساعات كان "برشه على الباب..." الآن.

– الله يكون في العون...

– والخمس عشرة سنة ...يا الله!

– لو محكوم مؤبد أحسن، شو بدك بالحياة بعد كل هذا العمر كله في السجن؟

تعليقات تستفزك، لا تعرف كيف تغادر شعورك الذي كنته قبل ساعات، فقط لمجرد أنك حططت الرحال

في سجن أكثر سكانه من "الأحكام الخفيفة"، طبعًا هذا نسبي وفقًا لتصنيف الأسرى أنفسهم، تحتاج لكثير من الوقت والمشاعر لكي تعتاد ما أنت عليه؛ فالأماكن متشابهة بأسلاكها وحجارها وحديدها... أمّا سكانها فهم متغيرون بمعايير ثابتة تحددها إدارة السجون، كلّ فئة لها مكان لا يختلف عن أيّ مكان آخر... غير أنه مميز بالنظرية الأمنية التي تسيطر على عقل إدارة السجون. إن معايير الأمن هذه لا تفهمها لأنك تحتاج كثيرًا من التفحص والنظر، ومع هذا، لا تقدر؛ لأن خلف وجودك وجودًا يلعب دورًا حاسمًا بهذه المعايير.

بعد عاصفة السؤال والإحباط التي تنتابك، تجلس بالجرح الذي غزاك فجأة فقط لمجرد وجودك بين أسرى أحكامهم أقلّ من حكمك، تفرفط أحلامك التي كانت قبل قليل قريبة قاب قوسين أو أدنى، لتعيد حبكتها بوهم السؤال المؤجل، لأن الشعور اختلف، وأنت لم تعد تسكن "في البرش الذي على الباب"، أنت أنت وتسكن في قعر المجهول، ينتابك هذا الشعور كظلام يأخذك إلى حدود الاختلاف والخلق الأول، فتغدو طفلاً صغيرًا يحاكي أحلامه ويد أمّه التي تهدهده مدللة ومرشدة. أين أنت؟ لا تعرف بغير حضور ذاتك الفارغة بتمامها، تعاود الكرة من جديد، وحده السؤال المعلق في فراغك: ماذا تعني الحرية في واقع الأسر باختلاف فئاته؟

الحرية إذًا ...كشؤبب سقط على أرضٍ عطشى،

يناديك الامتنان مُلوِّحًا بيده، تحذف سكونك وتمضي، تقف مرة أخرى لكن من آخر آخرك تمد أطرافك محاولاً العبث بالوقت فيدنو الأمل منك، كقارورة فارغة تلقيها في وسط المحيط، وحين وصولك اليابسة تكتشف أنها قد سبقتك، تراقب فرحتك حين تصبح ممكنة كشادن يقفز معلنًا جماله وهيبته ...تارة أخرى يتميس عله يثير غريزتك برفق وجودك الذكوري، تأتيك بالأمل دائمًا لأن كلّ ما ينقصك هنا هو الحرية وفقط الحرية.

إذًا، كيف تصبح الحرية هاجسًا؟ إنها كذلك ما دام سلوكك تسكنه بزيف وادعاء، وكل ما أنت تتمناه تصر على تحقيقه، يرهقك هذا بل يقودك للخوف. ترتعد كلّ أحياء جسدك المظلمة بفعل الكبت هنا، كأنك نسيت قول الشاعر "ليس كل ما يتمنى المرء يدركه ...تجري الرياح بما لا تشتهي السفن ."لا فائدة! لأن قناعاتك –أيضًا– تؤسسها بوجودك الأسير. لذلك، سيبقى أحد أهم الهواجس التي تنتعل حياتك، فتصبح حياة تسير برهن الهواجس، وكما أن هناك غير هذا الهاجس، يرتفع وجودك وينخفض بكل مخاوفك كيفما يأخذك موج البحر، ويلقي بك في سرمديةِ ما أنت فيه.

لا تعتقلوني عدة مرات، تكفيني تجربة واحدة، لتسكن بي وترميني في جبّ الوهم والوهاد، لا تعيدوا الكرّة مرة أخرى، لأننا سنكون بروح عودتنا نحافظ على وعد الوطن، دون مسّ الطاهر فينا ولكن بحنكة أكثر، نلملم

أوجاع وطننا بشهدائه وجرحاه ومعذبيه بروح مقاتل آخر، منهم من أعلن احتفاظه بالرصاصة الأخيرة لتكون هديته لنفسه، وآخرون صمموا عدم العودة دون إعلان بنية مبيتة للموت، فيا موت الحضور تقدمْ لأننا ما زلنا مصابين بدوار الوطن، ولا نريد أن نشفى منه.

ومثل هؤلاء-أيضًا- هنالك من يعتقدون فعلهم غلطة العمر التي لن تعاد؛ يعتقدون أن وجع حرمانهم هنا سببه ضعف عقولهم في تقدير الصائب والصحيح، وكثيرون من يعتبرون السجن محطة انتهاء الخدمة الوطنية وهو تأشيرة دخولٍ لعالم الحضور، باعتبار هذه التجربة استثمارًا بالعمر يصك له شهادة الوطن البراقة التي تسر عين الناظر فيها؛ فكلما زادت سنوات عمر الأسير، يزددْ رصيده الثوري وكذلك المالي، حيث يعتبر أن أيّ تنازلات يمكن تقديمها سياسيًا على الصعيد الوطني هي بريق النجومية بالحرية له. لهذا، تصبح الحرية ذات مضامين متنافرة ومتداخلة، ولكنها هاجس الأسير الأبدي في السجن.

# هاجس الأنثى

متى سيكون لنا لقاء؟ سؤالك الدائم في ثنايا وجودك الحائر بين صمتين لتعاود الدخول من جديد لعالمك السحري، ترتب أمتعتك مع كل الذكور من حولك حين تقرر الكلام عن الأنثى في السجن، لأن مجتمع الاسمنت هذا لا يعرف التعامل إلا مع جنس واحد؛ فأنت تعيش في عالم الذكور عمرك. إناث يُحرمن من الذكر بشكل آخر لحياة السجن المؤنث، ولهذا سؤال البدء دائمًا: متى سيكون لنا لقاء؟، بين عيون الحاجة تكمن إشارات التفاعل لكل من يتظاهر بتخطي عجزه ...أو إن صح التعبير بتره، فكل أسير مهما اختلف جنسه سيبتر بوضعه بعيدًا عن حافة الاختلاف. لكل جنس عالم خاص به... وكل عضو في كلا الطرفين يقف على حافة عالم الطرف الآخر محاولاً الولوج إليه.. ولهذا، يصبح الوقوف الإيجابيّ هو نمط التفاعل المغذي للروح.

الذكر يعيش حياته بحلم أنثى تصرخ به دائمًا، تأخذه حدود وجودها، تعلقه حيث تشاء ليصبح عبد عبدٍ، لأن الأنثى –أيضًا– تعبد الذكر فلا تستطيع الوجود دونه، إذًا، هو وهي الوجود الخالص إن غاب أحدهما نقص الوجود درجة، شئت أم أبيت لك وبك دائمًا، أنت لن تعود أبدًا كما كنت بعد تجربة السجن؛ الذكورية المفرطة تخلق

تشوهات نفسية تضعك في أعلى قمة الحاجة والجوع، تتوه في غياهب حاجتك ورغباتك؛ لأنك مطالب بالاحتفاظ بصورة المناضل المثال . ولأن المناضل في عقولنا هو مقدس ولا يضعف ولا يحب ولا يبحث عن لذاته وحاجاته البشرية فله فقط وظيفة واحدة "النضال". لذلك، لا تستطيع التعبير عن عطشك للأنثى ولكن!

أنا هنا ...الأنثى سؤالي الدائم، حيرتي الملحة يوميًا أبحث عنها في عيون الأمل، أجفف الماضي وأنشره أمامي كلوحات أقتات بها وعليها لأبرهن دائمًا بقدوم لحظة اللقاء الوعد، إن عرفت أو لم تعرف، أو اعترفت أو لم تعترف، فهي فاكهة العمر ومستقبلي، بقائي في قيد الفضيلة، نهر تدفق وجودها خيالاً معي، أشربها كل يوم أقلب صفحات وجودها ورقة ورقة، أقطف منها عناقيد أملٍ وأخمرها سنوات حرمان، معداً ليلة أخرى سأسكر بها حد الثمالة باحثًاعن غطاء أخجل أسفله وأداري كل إعاقتي، هي ستبقى مكمن السر الدفين بنشوة الانتظار، كطفل يحبو باحثًا عن استكانه بين أحضان أمه، سأبقى رافضًا منطق هذا البتر محاولاً معالجة انتقاص كياني؛ فهي وأنا مجرد عابرين بين حرفين وثالثهما ألف لينة تؤثث كل وعدي.

لا تطلبوا مني الابتعاد بدرب عتمة الشعور، أو أن أغادر طلب الحاجة الملحة؛ فالمرأة مبهج العمر؛ بصوتها تغدو الحياة كرزية تتلذذ برائحة انتفاضها، تخبو

حياتك في فقدانها لأنك من دونها وجع ممدد على الطريق، ووحدهم المتشردون يلكزونك بين فترة وأخرى ...دون جدوى، أداعب أحلام الغد بوعد اللقاء، تسيل الحاجة بين الحرمان والمقدس حين تعاود من آخر انتكاساتك بأمنية وحلم كلاهما لا يتحققان بصمت كلامك الدائم، عبادة طقس وجعك المحبوس. لهذا، وجعك يقبع في سجن سجنٍ هنا... وأنت أشبه بباحث عن حبل يمتد إليك من فوق زنبقة لتحاول الصعود عليها بغية الوعد والأمل، فشل وفشل، فشريكك الرئيسي غائب، حاضر فقط بشهوتك، كورق التين المعبد للعورات خجلاً بعد الرحيل الاختياري.

سأكتبك صفحة بيضاء خالية من أي شيء سواي، أضعك أمام أمامي وأنتظر الشتاء ليزيد شاعريتك وهياج الشعور لدي. الفضاءات ساحات نرجسية تعزونا في حيرة وألم، ضياع نؤسس حياتنا الضائعة خلفه، أياَ كان هذا كله، أعبدها كصخرة تلاطم أمواج البحر، نافضة عنها خجل حضورها، أنزهها كأن هناك قديسًا وعد بروح البقاء بعض الشيء. كلماتها عبير شديد الانفجار. فويل لكل أفّاق يحاول تجاوز خيالها، أشتمّ رائحتها بكل شيء حتى بالقهوة المعدة عمدًا للنسيان، أطراف بقائها بي حدود لمسة قدرية تغير ألوان الأبجدية من لحظة ذاكرة إلى أخرى، تذهب مع حروف ظلالها الزاهية باحثًا عن حضورك بمقلة الكلمات، ترتاب عند باب الخط الأخير بغية سؤال لا تعرف غير ذات غيرك كجوابٍ أصلاً ليس لك، تصطف

كل انتكاساتك على أمل رشفة أخرى من وتر تائه بين يدي إله الوجود الأول، تعترف فقط بأسطورة خلودها وانتهائك عند أول ظهور لها.

لا تقتليني عدة مرات، يكفيني الموت ثلاثًا؛ ففي كل حياة برزخ وسؤال حائران، تأخذهما معك في رحلة اللغة.. يضيعانك معًا فواحدهما جدول بريق أخّاذ يكبّلك وردة مستحيلة على قمة شعور الخرافة، وثانيهما قصة شعبية تتناقلها الأجيال بوعي السذاجة المحببة للجميع، تحاول معها مرتبًا... لا تستطيع لأن أجوبة الضمير دائمًا هي نفي ذاتك لصالح حضورها، تذهب لحد البحث عن كل المقدس في معتقدات البشر لتنال سؤالاً مرتبًا فقط . بمنطقك الأعوج، لا تجد غير قصص لوصف العهر وكأن المرأة هي وحدها زانية الأمانة هاتكة العفة، تتجاوز هذا الشعور بتأليه سمات وصفها؛ لأنك مقتنع برفعة عنجهيتها وغضاضة طرفها، فربما الآخر هي ذاتها ألوهة.. هي وحدها من يستطيع بثها دون شاذرات تدفع بك حد التقيؤ عمدًا بحضور كل من يرغب في الجواب، أغمض عيني دائمًا محاولاً وضع سرّ بأنني في مكان متعة فطرية لا تقدر سوى تخيل الشفتين تلدغانك بحنان... فما تلبث هنيهات إلا وشعور غريب ينتاب حياتك، فتعد دقائق الذاهبة نحو الفناء، فهي مليكة الإغراء ووحدها القادرة على إسكارك؛ فلو شربت كل كحول العالم لن تسكرك قبلة أنثى بوضع متكها الأرجواني فوق بلحة جوعك العطشى، تأسرك،

تقتلك، تحبطك، تبنيك، تهدمك، تخسرك، تزينك، تنيرك، تظلمك، ترويك، تعذبك، تعلقك، تنشيك، تضيعك، تهديك، تكفرك، تنسفك، تلحدك، تأمرك، تبعثرك، تنظمك، تبعثرك، تلملمك، تسحقك، تدغدغك، تصلبك، تطيرك، ترتديك، تعطرك، تقسمك، تأكلك، تمتصك، تنسيك، تدفنك، تغزلك، تطهوك، تقدمك، تأخذك، تسكنك، تهجرك، تلعنك، تكتبك، تمحوك، تحرقك، تقرأك، تشطبك، ترسمك، تلونك، تدثرك، تطالعك، مع كل هذا كله ما زالت وستبقى تجهلك.

يا وجع القلم النازف بالبحث حدود العالم الآخر تعال إلي، لنعيد ضبط حضورنا، نقصك بي عطش قد لا ترويه أنثى غير تلك التي طالما حلمت برحلة تيه بين ذراعيها... ولكنني أضعتها أو ضيعتني لا فرق! المهم أنها غائبة دائمًا ولن تكون لي يومًا، إذًا، لا بدّ من أنثى أجذبها إلى عالمي، أضعها فوق كل الذكريات لتحتل آخر قلاعي المتبقية وحتمًا تحافظ عليها. فإن قررت في لحظة أنثوية نرجسية قد تسحق كلّ ما تبقى لي من كلمات وحروف، فغزو المكان اقتباسات ملكية لملتاع حلمه استفاقة صباحية تنعم بوهج حرية من براثن الجهل والذاكرة. لا، لن يضيع ما تبقى لي سدى؛ لأن من يمتلكون الخيارات هم وحدهم المترفون بالحياة، أما نحن فليس لدينا أي خيار نجازف به. أبحث جيدًا بين ركام البشر عن أنموذج أقدمه إثباتًا لخوفنا من الأنثى في عالم الذكور هذا، فقررت أن أضع تجربتي الخاصة وصورتين لكل منهما حكايا وأحلام، لكن

سيكون سرّ أصحابها حاضرًا لعدم حصولي على أذونات مسبقة لبث وجعهم وتجاربهم.

تبًا لك أيتها الذاكرة، دعيني وحدي وطيري إلى آخر وجودك المسيء أصلاً، أكره اسمك لما فيه من كاف وذال، فالذال هو كل ما يحبس أيامي تلك، والكرامة الغائبة بين صاعدين جالسين إلى خيوط الشمس المؤجلة التي لن تكون سوى أمنية، أحاول أن أبتعد عن هذا الشعور، لكن شعورك المؤتمن لكل العمر سيبقى يلاحقك أضغاث السنوات الباقية، أحمد كل من لم يساهم وساهم في البقاء حيث أنا، مفترق المشاعر حاجة ملحة لاستضافة الأرق دائمًا في فراشك اليابس، احزم سنوات عمرك الفائت بلفافة تعيد لها نشوتها حين تدغدغ نواجذك موضع الكلمات عليها، أعد لساني لأداعب مكمن سرّ وجودها فأصرخ كارهًا إياها، وغيرة لعدم الفتك بها أصلاً، حتى هذا الاعتراف يفوح بالذكورية المفرطة التي ستبقى تلازم الكلمات هنا، حتى لو كان سيد الأدلة الاعتراف، أقدم اعترافاتي بمحض إرادتي دون إكراه ...وسأبقى أنتظر الحكم لأن "المتهم برئ حتى تثبت إدانته" أليس هذا ما يقوله أصحاب القانون؟

ساحات الحياة مليئة بالخيارات والمسالك الاختيارية، وإن قررت تأليه أنثى والانتماء إليها، لا تعد ترى غيرها، حتى لو أن جمالها ليس باهرًا ولافتًا، لكن شعورك الخفي غير المحدد يقودك إلى التسليم لقيدها، منهن من يأخذنك حدود ضياعك فتأسرك وتغيب خلف

حلمها باحثة عن غيرك، وأخريات يقيدنك ويكن وفيات رغم تكالب الظروف... فتغدو الخيارات مقدسات لا يمكن المساس بها، وغيرهن لا يكترثن لك وأنت تكبل نفسك فتضيع خلف وهم وسراب يفتك بأمنياتك، منهن الوفيات المسالمات اللواتي يشأن الحياة بأن تصبح ملكك دون عثرات واشكالات. أما أنا، فقد كنت ضحية الخيار الأول أو الثالث... لا أعرف أو أنني لا أريد الاعتراف، المهم أنني وقعت رهن وعد لم يكن لي يوم الحق به، فشئت أن أداعب أحلام وهمي الأزلي، وأنا أبوح بروح الوقت في فوهة الحظ المشروخ، فلا حتى صدى يعود إليك يواسيك على خيباتك، بقيت مصرًا على استمرار لعبتي واعتبرت أنني استطيع استغلال السجن لصالحي؛ فرحت أبحث عنها مرة أخرى بعد رحلة الضياع هناك، كتبتها وكتبت ذاتي مرتين... مرة لأضعها أمام مسؤولياتها التي لم تكن قد ساهمت بها يومًا أو ساهمت لا أعرف، المهم أنني أستصرخها متزلمًا بالسجن أوليس "السجن يعطي شهادات العفة والشوق والوطنية؟" هكذا كنت أتخيل، لكن المحاولة ما كادت ترى النور حتى ارتدت عليّ هذه المرة ببطش جبار، نزع مني حتى مُكْنة البقاء الكاذب على الوعد الكاذب ذاك، تركتها سنتين تسكن الذاكرة مع كل محاولاتي لقتلها بي لم أستطع، بقيت وبقي وجعها ملكي وحدي، لكن سرعان ما رحت أبعثر الكلمات شوقًا ولعنة في بياضات كلما امتلأت راحت ضحية ثورة ذكورية تغزوني من فترة

إلى أخرى... تؤشر باتجاه الجلد والصبر وعدم إظهار الضعف على اعتبار "السجن للرجال !!"لكن بقيت معي وكل ما صنعته ألم وحلم اجتررته من فترة إلى أخرى.

بعد كل هذا حيث السجن مكان جيد لإعادة ترتيب الذات وإجراء حسابات خاصة بأناة ودقة، استخرجت عدة قرارات كان أهمها: لا أنثى أخرى دون ولوج محكم من أبواب واضحة وصريحة. لا شعور الشك أو ريبة الموقف قد تقف عائقًا أمام ارتكاب حماقة أخرى... وخاصة بأنني لست مستعدًا لأعيد الكرة مرة أخرى، فشجرة الزيتون تخضر مرة واحدة وتبقى كذلك حتى تداهمها فكرة الإلغاء والتحول... وكذلك سأكون أنا أيضًا؛ السجن ليس كغيره؛ حياة تعج بكل الذكور من حولك، فتبقى عطشان للأنثى المكملة لإنسانيتك، وهو ليس كالحياة خارجًا؛ فأنت لست سيد الخيارات... فأيّ أنثى تداهمك تصبح حلمك الإجباري، فتمطر دائمًا رغمًا عن كل ما تريد ولا تريد معًا.

بدأت تأتي مراسلات من أنثى لا أعرف عنها غير اسمها الذي طالعته آخر سطر في رسالتها؛ فالذاكرة –أحيانا كثيرة– تخونك حتى لو أن هذا المكان آلهته الذاكرة بذاتها، حاولت أن أمنع نفسي من الهرولة وراء السؤال عنها بلجم حاجتي لأكمل إنسانيتي المبعثرة لكن دون جدوى؛ فهي مصرة على الحضور دائمًا رغمًا عن إرادتي، شيئًا فشيئًا أصبحت أسأل عنها وعن أسباب إرسالها الرسائل إلى أن جاء الخبر صدفة كرسائلها العابرة، حيث تعرفني وتعرفنا

بطريقة خاصة قبل أسري. حين أخبرت بهذه المعلومات تذكرتها، بوقوع الذاكرة عليها، رحت أؤثث أحلامًا جديدة بغية استحضار صورة وأمل فقدتهما منذ حين، قد يبدو الاعتراف غريبًا لكونه ساذجًا... لكنه حقيقة تكسّرت عليها كل قرارات الولوج المحكم والأبواب الواضحة.

أقف أمامي لأضبطها، أبعثرها وبمازوشية أعاود العبث بقطعها بغية ترتيبها من جديد، تتساقط الحروف من علياء أبجديتها مختالة فخورة، تقف ناظرة من فوق فوقها، لا استكانات حاضرة للجم الغرور هذا؛ فأنا فقط التائه بمحض إرادتي، العابث بها من حيث تشبع الغريزة الذكورية سؤالها الأنثوي، يابستها الحائرة برفق وانتظار لم تعد هي الشاطئ الوحيد؛ فكل نساء الأرض شواطئ الهيجان هنا، إعصار قادم من بين فخذيك يلتهم كل كرامتك وحُلمك؛ لا أعرف كيف يمكن أن نتقيد برؤية المقدس فقط دون أن نشاهد المتعفن من بقايا البشر المتروكين مع كلّ عاهاتهم! فأي ذكر هذا الذي يستطيع البقاء دون أنثى سنوات قد تتجاوز الثلاثين دون بثرات تظهر لمحتج ومحتاج أيضًا؟ أي صورة تبثونها لنا هناك وكأننا لسنا بشرًا ككل البشر، نحن ذكور تعصف بنا براثن الحاجة والوجع، كثير منا لا يستطيع البوح بما لديه، يرزح تحت وطأة الأسطورة المعدة مسبقًا لهذا الواقع بما فيها من عبارات فخر واعتزاز وأرقام.

أما الحقائق فليست كذلك، صحيح أن كل أسير يمر بهذه التجربة يستطيع التحكم قدر المستطاع بهذا

التشوه أو ذاك، لكن هناك- أيضًا- من يقعون في شرك الحاجات الإنسانية، فيصبحون ضحية ضحايا الضحايا، فهم ضحايا الاحتلال بتركهم يتعفنون خلف الأسمنت لمجرد شعورهم وانتمائهم الوطني، كذلك ضحايا التنظيم السياسي الفلسطيني على اختلاف ألوانه، الذي لم يكن الأسير على سلم أولوياته بغير احتفاليات الأرقام والأعداد بعيدًا عن فعل حقيقي، يقدم لهم ولو شعورًا بالانتماء، وبعد أن يكونوا ضحية الضحية يقع بعضهم ضحية ذاته المحتاجة العطشى فتتركب ثلاثية الضحية تلك، وهذه قضيتنا الثانية عن الأنثى كهاجس حقيقي يكبلك من جميع انتماءاتك.

شكل القديسين بطهارة الحياة وعفة الحاجات هو كل ما يرسم عن الأسير، كونه كائنًا خرافيًّا يعيش في عالم النضال والثورة، لذلك، لا يغدو إنسانًا إلا في عيون ذاته فقط. تقديسه شعور مفرط لم يكن غير نفي النضال والتضحية، سيصاب الكثير بالإحباط عندما يدخل أكياس الاسمنت، فالقديس الخرافة هو بالأصل إنسان...وقف لحظة من اللحظات قرر أن تكون له مشاركته المحسوبة تحت قيمة الانتماء للوطن السليب، فهو يحب ويكره ...له حاجاته النفسية والجسدية التي قد يعبر عنها كثير من التفاصيل الذكورية داخل هذا المكان.

لن يداوم أحد أبدًا داخل قبو المواطنة ليعود ويحدثنا عن حقائق عوالمه الاجتماعية، لذلك تأسطر الإنسان

فصار قديسًا والقديس "ممنوع من الصرف"، أي فتحة أو ضمة وحتى كسرة ستهيل كل تلك القيم التي يحملها إن لم يكن عمداً قد تكون مصادفة. هذا المنطق سيعاود اكتشاف ذاته مرة أخرى حين نعترف بأننا بشر.. وكذكور بالتحديد لا نستطيع العيش دون أنثى، إمّا حلمًا أو واقعًا إن تجسدت بكل حضورها الأخاذ. أوَليست هي روح الوجود النافذ من يدي الله؟!

لقد كان السجن مكانًا ذكوريًا بحتًا، إناثه زائرات الأسير كل خمسة عشر يومًا ، إذًا هي أمّ، أخت، زوجة أو بنت، لذلك كانت هذه النزوات العابرة بقدوم الزيارة العابرة من المستحيل أن تكون للبحث عن روح الوجود الناقص، حيث يكبل أي ذهاب باتجاهات مخالفة منظومة قيمية وأخلاقية ما زالت حاضرة، حتى لو ظهر تراجع بوعي المجتمع الأسير، إلا أنه ما زال محافظًا على الكثير من القيم والمحددات التي لن يتجرأ أحد على المساس بها، مع ظهور بعض المؤشرات أن الحاجة تحتاج كثيرًا من الكوابح لتضمن عدم إطاحتها بكل القيم؛ فقد تقدم بعض الأسرى بطلب الزواج من أخت أو بنت أسير لمجرد أنه شاهدها في الزيارة. سيكون واضحًا بدون تفسير أن هناك إزاحات واضحة المعالم حتى بالتعامل مع إناث الزيارة، مع أن هذا المؤشر مضبوط بمحددات مجتمعية كان أعظم دليل عليها الزواج، وفي أغلب الحالات تمت الخطبة ومنها من استكملوا الطريق وتزوجوا بعد تحرر الأسير.

لم يكن غير نافذة الاحتكاك هذه مع الأنثى إلى أن قررت إدارة مصلحة السجون استدخال الإناث كشرطيات وسجانات يرتدين الزي الكحلي.. ويقمن بأداء واجبات السجان الذكر، هكذا لم يعد عالم الذكور مطلقًا، ومع أن السجن وما يحمله من حرمان يفعل مفاعيله، إلا أنه ظهرت مظاهر لها علاقة بلغة الحاجة ومرتبطة باقتحام الأنثى عالم الذكور، حتى لو أن معادلة الاقتحام واضحة وليست بحاجة إلى تفسير... إلا أن نزعات الإنسان لضبط احتياجاته أسست أربعة أشكال ظهرت داخل هذا الواقع، لكن قبل الدخول في عرض الحالات هذه عليكم، لا بد من وضع الكلمات خلف زمانها المناسب لتعود باستحضار حقائق غائبة بمثالية عالية: إن السجانة ليست سوى أداة قمع حاقدة تتصرف كتصرف الذكر بردائهما الموحد، هي أو هو ساديان حاقدان يعدان أدوات لتنفيذ سياسة أقذر مهنة عرفتها البشرية.

إن معظم الأسرى يتفقون مع التحديد السابق، لكن الحرمان يقود كل الأسرى وبصمت دون التداعي وحتى الادعاء بإظهار ذلك، ينظرون للشرطية كأنثى وليست كسجانه، لذلك، يبحث في تفاصيل جسدها عن حاجاته المحروم منها، مع علمهم أنّ ما يقومون به منافٍ للقناعات التي ذكرت، منطق الحاجة البشرية يقود للتصرف اللغوي فيغدو الأسير متلصصًا جسد أنثى مستفزة بصوتها وشعرها ورائحة عطرها وجسدها بانحناءاته المغرية. أغلب

الأسرى يقومون بذلك، بصمت وحذر لكي لا يلمح الأسرى الآخرون سلوكهم، هذا الشكل الأول للتعاطي مع مكملة الوجود حتى لو أنها ظاهريًا "هي مُلغية الوجود."

أمّا الشكل الآخر وهم داخل الشريحة السابقة، فيظهرون إعجابهم بمفاتن الأنثى السجانة دون حياء، كأن يقول أحدهم "إنها تملك صدرًا كبيرًا "وآخر "والله لديها مؤخرة فخمة "أو "ريتها تقبرني ما أجملها ..."أو "شوف لوح زي القزاز لا طيز ولا بزاز". إن هذه التعليقات حبيسة مجتمع الأسر، لا يتخطى الأسرى من هذه الفئة الحدود أكثر من ذلك، يكتفون بإشباع رغباتهم كلامًا عابرًا معتبرين أن "الكلام ليس عليه جمرك". هذا المنطق يفوح بالذكورية الخالصة، لم أدرس قط علم النفس والاجتماع؛ لو طرحنا الحالات هذه على أخصائيين سيكون لهم رأي، أمّا أنا، فأعتقد أن هذه المسألة مرتبطة بحرمان عمره سنوات للتعبير عن ذكورية الأسير، لا أريد أن يفهم من حديثي هذا بأنني أشجع هذه الظاهرة أو أعيبها، سأبقى متحفظًا تصنيفي بين هذه الفئات التي أذكر قبل تعرضي للهجوم الكاسح بسبب هذا التشخيص.

ثالثًا، من فقد الكثير أمام حاجاته وكبته معتبرًا حدود وجود "هي "إنسانية نستطيع تأسيس علاقة سد الحاجة عليها، أوليست المرأة الغربية داعرة منحلة أخلاقيًا لا محددات لفعلها الجنسي، تربية العقل العربي لذكوره، لذلك أيّ فرصة احتكاك مع "جوعانة الجنس "بوعينا، محطة

تفريغ لكبتنا وبترنا الاجتماعي. وفقًا لهذه التربية الوضيعة التي لن نستطيع أن نتجاوزها ما دمنا نرزح تحت براثن التخلف المغلف بالمعتقدات العرجاء، ينسى بعض الأسرى منظومتهم القيمية التي يجب أن يحافظوا عليها، فتجرهم هذه التربية لمحاولة إثبات فحولتهم بمحاولة تفريغ جوعهم الجنسي فيتخذون خطوات عملية:".ايش هالكلسون الأحمر اللي معلم على مؤخرتك "تحرش لفظي على مسامع إحدى السجانات، أدّى في إحدى السجون لتفجير إشكال استغرق عدة أيام لتطويقه.

آخر من يدخل غرفته في أحد السجون بعد انتهاء فترة العمل، علامات الإرباك والخوف واضحة عليه...

-مالك يا أخونا؟ يسأله أحد الأسرى

-لا ...ولا شي.

بعد قليل تطلب إدارة السجون أن يتم إنزال الأسير إلى الزنازين الانفرادية، تنفجر إشكالية داخل السجن، يطالب الأسير بالنزول وعدم تضخيم الحدث، يتضح فيما بعد أن أسيرنا حين كان متواجدًا مع السجانة في ممر الغرف وحدهما مدّ يده وأمسك ثديها؛ تحرش جنسي صريح لا يمكن إخفاء مفاعيله.

إن هذه الحالات ليست كثيرة، وهي- أيضًا- مُحاربة مرفوضة من كل الأسرى، لكن علينا الاعتراف بأحداث حصلت داخل هذا المجتمع تؤشر بوضوح إلى عدم تقديس هذا المكان، وحجم الكارثة الإنسانية التي تحل بالأسرى،

كذلك عدم إعطاء وصفات من التأليه لمجتمع الأسر. إن تقديم الحالتين اللتين عاصرتهما شخصيًا في السجن بهذا الوضوح سيرفض بشكل مطلق من مجموع الأسرى، وحتى كل من يحاول الدفاع عن قضية الأسر ...هنا دعوني أكرر لكم حرصي كأي واحد على قضية الأسرى ونضالنا، لكن إن لم نشخص الأخطاء ونكشف عن عيوبنا كيف لنا أن نعيد ترتيب ذواتنا بطريقة تؤسس للنصر الذي نريد؟ فكلما أقرأ التاريخ تداهمني حالة غريبة، وكأنني أريد التقيؤ بكل المفاهيم الكاذبة والأرقام والانتصارات الوهمية التي حشونا بها؛ إن فلسطين تحتاج إلى أن نكون نحن نحن، لا غيرنا الكاذب المنافق الأفاق صاحب الإبداعات والانتصارات التي أوصلتنا لما نحن به، لو أن ضمير شعبنا الحيّ لم يكن موجودًا طيلة هذه السنوات، لكنا أمواتًا غائبين خلف حضور وهمي، لا شعب لا يزال حاضرًا للتضحية والصمود، فكيف إذًا نفسر استعداد أبناء شعبنا الدائم لتقديم حصته من الانتماء لهذه الأرض؟ فكلما تشتعل انتفاضة تمتلئ السجون برواد جدد يحملون معهم أحلام أمة ستبقى، واليوم علينا أن نعزز بقاءها بقول الحقائق.

بما أن مسلسل الحقيقة ما زال ينقص مشهدًا آخر، الركن الرابع من ولوج المرأة لهذا المكان، فقد استفاق القليل من الأسرى على الوجود المفاجئ لها، فاعتبر علاقته بها علاقة إنسانية خالصة، بعيدًا عن أي زي يحمل لونًا ومعنى أو موقفًا لطرفي نقيض بمعادلة سياسية مفهومها احتلال

ومحتل، سجين وسجان، أخذ من وجودها ليشرع ارتباطًا عاطفيًا، أسير يعود مراهقًا فيكتب الرسائل الغرامية ويلقيها للشرطية وهي تقوم بوظيفتها الاعتيادية بإدخال وإخراج الأسرى من وإلى ساحة "الفورة "وآخر يطالب أحد زملائه الأسرى صاحب موهبة الرسم أن يقوم بتصوير إحدى السجانات التي "يحبها "لكي يحتفظ برسمها، آخر يجلس ساعات مع إحداهن يتبادل الحديث بوهم علاقة غرامية فيمني نفسه بلقاء حار قد يحدث في مكان ما، أغلب هؤلاء يرتد خائبًا حين يكتشف أنّ ما تقوم به السجانة من حركات إغراء وإضافة روائح مثيرة أو حتى استعدادية للكلام ليست إلا توجيهات مركزية من إدارة السجن لأهداف عدة، حالة واحدة تناهت لمسامعي أبطالها الأسير والسجانة التقيا في الخارج وأكملا قصة حبهما التي ولدت بالسجن.

هكذا تكتمل إحدى الصور لواقع الأسر كما هي، تسقط إحدى الأساطير المؤسسة لهذا الواقع فتضعنا أمام حقيقتنا التي سنعيشها كما هي، نزينها بألمنا ووجعنا... فالحرمان هو صانع سلوكنا. إذًا، نحن ضحايا، نصرخ بفقداننا الكثير الكثير من حقائق وجودنا الكاذب، أدعو لي أن استيقظ كل صباح وأنا ما زلت استطيع الاستمرار على هذه الطريق التي تنفي ذاتها بذاتها، أحب أن التقط غصن لوز لم يزهر بعد، وأنتزعه من جذع شجرة فأزرعه بي علّي أشتم رائحة ذاتي المفقودة عمدًا.

خلاصك بوهم وجودك الأحادي، حين تكون

انتكاساتك مزينة برجوع أخير عن كل شيء، فلا يعود أيّ مما كان هناك يصلح لكي يكون هنا، أو عكسه دائرة ذات زوايا، هل يمكن أن تكون كذلك؟ بما أن الدائرة أكثر الأشكال الهندسية استقرارًا فيكون طبيعيًا بل حتمًا أنْ تصبح بزوايا مع وجود المكان في المكان الزماني المناسب، تعاندني هذه الفكرة دائمًا بانحنائها وعنفوانها. أذهب مجددًا حيث أكون ذاتًا كاملة بحضور وجودها وهي الغائبة، فتأتي الحالة الثالثة لتعطي شكل حضور آخر لتفاعل الأنثى مع هذا الواقع "السجن والحبّ."

إن شعور الحبّ حاجة إنسانية خالصة، وكذلك شعور خاص جدًا؛ أذكر أنني قرأت في إحدى الروايات "الحب كانسياب الماء فوق بتلات زهرة خرافية حين يغزوك" ففي كل مرة أحاول ترتيب كلماتي لتعانق البيض برسم حقيقة الحب، أنهزم مجددًا لأن فراغي ووحدتي تتركاني عاجزًا عن كلّ ما أريد حتى الكتابة أحيانًا، فأصبحت أجلس على حافة الوحدة؛ فهو مكان جيد يستفز كلّ أجزائي، لا تجرني إليه غير الشهوة والمتعة بالعيش على الحواف، حافة الصداقة، حافة الوهم وحافة الحقيقة كذلك.

الحبّ تعبير أحادي التشكيل ببدائية عن حاجة الأنثى، في تفاصيله تضاد واختلافات كتعبير الزواج والخطوبة، أو حتى العلاقة الغرامية التي قد تكون حميمية، آخرها لا يصلح بفعل حواجز المكان من قضبان واسمنت، أما الزواج فيغدو كلمات تجمع وعد لقاء مؤجل،

لا يرفع أحدهم مكانته فوق ذلك الوعد، فهي المرأة تلوك انتظارها بصبر وأناة ..زوجها الأسير يحكم وعد عودته بقرار يتخذه، كأن يقرر الطلاق لمجرد أن تكون سنوات حكمه عالية أو أن تكون هي من تختار الطلاق بفعل الحكم أيضًا، أو أن يقرر هو ذلك ويأتي رفضها قاطعًا حازمًا ..الانتظار والصبر شيمة الجلوس بين الكلمات. أسير آخر يقرر البقاء بعهد لقائه وهي تنتظر بفرح الوعد فقط، مفرطة بالجلوس بين الكلمات والمشاعر، بعد مضي عشرين عامًا من الانتظار يتحرر الأسير، رغباته وشهواته المكبوتة تحركانه "فأنثى الانتظار" لا تصلح لكي يفرغ كل جوعه الجنسي، فحاجته هي حلمه الدائم لممارسة الجنس بطقوس شهوانية جائعة للعهد والعنف، أكثر من أن تكون لذة مبتدعة على فراش.. تطير بك مدن الأساطير لتلتقي "ديانا "آلهة الإغريق الشموص.

في حالة الخطوبة كتلك شبيهاتها بالزواج والحبّ ليست انتفاضة تغييرية عن السلوك المذكور، لكن ما يثير دهشتك في السجن أن الأسير يحمل موقفًا تقدميًا تجاه المرأة ودورها في المجتمع وعلاقته بها؛ ففي دراسة أجريناها أنا ورفيق آخر اتضح أن شرائح الأسرى باختلافهم تحمل قيمًا تقدمية، وقد لوحظ التغير المفاجئ بالرأي بين الأسر والخارج، وفي نهاية دراستنا طرحنا سؤالا: "لماذا يتغير موقف الأسير تجاه الأنثى بمجرد دخوله السجن؟" إن الجواب عن مثل سؤال كهذا بحاجة إلى متخصصين

يدرسون الواقع وإسقاطاته، لكنه اتضح لنا أن علاقة الأسير بالأنثى هي خاصة جدًا. لذلك، تباينت وجهات نظر الأسرى عن فكرة الارتباط بها داخل الأسر فظهرت عدة مواقف:

أحدها رفض بشكل قاطع فكرة الارتباط، واعتبرها انعكاسًا لواقع العجز؛ فالسجن برأيه مكان ضيق لا تملك الخيار فيه، فتقع صريعًا تحت أقدام أي أنثى تلوح كمشروع حب قادم، في السياق نفسه هو كاثوليكي المفاهيم؛ "الأنثى حين تحب مشروع زواج والفشل محرم". لذلك، يصبح من المستحيل عليه قبول فكرة الحبّ وحتى الارتباط ما دام عاجزًا حبيس مكان المبتورين، ضمن هذه الفئة ظهر أسير يرفض فكرة الارتباط. لكن، احترامًا لارتباط إحداهن به ورفضها المطلق أن تكون لغيره، بعد معاناة دامت سنوات اضطر لإزاحات بمفاهيمه، فقبل علاقة حبّ وهو الآن يصارع فكرة الارتباط؛ فمن جهة هو محكوم عليه بالسجن سنوات عدة، وهي تعاني ضغط الأهل حيث المجتمع الذي يتعامل مع كل أنثى تجاوزت عمر الثلاثين "عانس"، ما أصعب هذه الكلمة وكم أكرهها! فهي لفظ سوداوي بسواد وعي مجتمعنا، ووصمة عار أخرى فوق أكوام المفاهيم العرجاء لدينا. لهذه اللحظة وأنا أخط هذه الكلمات أسيرنا عاجز عن اتخاذ موقف قطعيّ، فحبه لزنبقته عشق يلملم قطرات الندى يوميًا، ليفجرها نهر حب بوجه كل تلك الحكاية الخرافية، فبصراعه تنطبق عليه أبيات قيس بن

الملوح بعد منع ليلى عنه:

ألست وعدتني يا قلب أني إذا ما تبت عن ليلى تتوب
فها أنا تائب عن حب ليلى فما لك كلما ذكرت تذوب

مجموعة أخرى ترزح تحت سطوة "كيوبيد"، تقدم كل يوم مرافعة مقنعة تؤكد صوابية الشروع بأي قصة حب، سياقه ارتباط ممكن دون خجل من إمكانات لتورط هنا وآخر هناك، المهم أن للإنسان ظروفًا كلما سمعت بسفينة إنقاذ من الوحدة القاتلة وذكورية الواقع، نحن حاضرون لنكون مسافرين خفاف الظل والظروف، أي طريقة تزيف وجود الأنثى بالحياة هي عكس ظهور المسيح آخر الزمان بوعد ربانيّ؛ فأحد الأسرى لم يتأخر لحظة واحدة بالحفاظ على حبّ اختاره خارجًا قبل الأسر، وبعد ست سنوات منه قرر أن يتخذ خطوة أخرى باتجاه توطيد علاقته، وأقدم على الخطبة كبرهان لنا جميعًا، أن هناك حبًّا إمّا تقدسه أو يقدسك، فيغدو المقدس بمحض إرادة الجميع كمتسلق للجبال يهوى ذلك، بعد انحدار شديد من فوق قمة الحياة بدا مصرًا مرة أخرى وبشكل آخر – أيضًا– مستمعًا لأغنية فيروز في كل يوم صباحي أسير...

جاء معذبتي في غيهب الغسق كأنها الكوكب الدري في الأفق
فقلت نورتني يا خير زائرة أما خشيتي من الحراس في الطرق
فجاوبتني ودمع العين يسبقها من يركب البحر لا يخشى من الغرق

إن الحديث عن الأنثى والأسر كهاجس يعصف بالأسير يوميًا، بل بكل تفاصيل حياته، هو كحديث شهرزاد لمليكها، وفي طريقة خرافية أسلوب جلجامش في استقطاب أنكيدو حين أرسل إحدى عاهرات معبد عشتار، وتفننت بدعوته للتعرف على طباع البشرية، فحينها اكتشف أن حياته الحيوانية تصرفه عن العبث بروح سرّ الله الأزلي بالأرض، صوت النزول الأول لقطرة من سائل الحياة عنوان وجود آخر الذكور كنصف وجود فقط، أو تزيح كل ما لديك من خراب وبثرات بعيدًا ترتد إليك مجددًا لمجرد أنك شاعر بالنقص، وستبقى في مجتمع الاسمنت تهجس بالأنثى، ما دامت هي بين الأحمر ممنوعة بحكم المرغوب ومرغوبة بحكم المحرم العبثي.

# هاجس الوحدة

وكأن كلامك ليس لك.. تختاره مسرعًا وتهرب في طريق عاصفتك الأولى، تعيد تشكيل ملكوتها فتكتشف حيرتك بروح مكانتها لديك، أيًا كان طريق حروفك المبعثرة لا تجد غير أطرافها جاهزة للتعليق، تعود وتعود وبعد كل عودة ضائعة تفتك بعفة أيّ قرار تتخذه .اسألني وكلي حيرة بين الحروف لضبابية أي أساليب التعليق يمكنني استخدامها، فروحك، ذاكرتك وجسدك حبال دهرية تتعتق عليها الحروف في مشهد آخر الرجال العائدين من أول هزيمة تحل بكرامتهم.

لا تعد أو عد، كما تشاء لك الحروف بمنطقها الأقحواني، فقط وفقط كن دائمًا على أهبة الاستعداد لتراكم ذاتك أمام ذاتك وتبدأ من جديد؛ ففي كل محطة شهوة تغزوك فجأة، لا يعود منك شيء غير التالف وبقايا الصور ، تخيطها ببقايا وجودك بوجع وحنكة، تأتي معك حيث كنت مع الرعاة تلوك الأيام في انتظار ازدياد عدد الخراف بوعد الله من عليائه. تبدو غبيًا بعض الشيء؛ فلا حركات تسبق السكون... ففيه المحرم بين البشر، وذاك العبد الساكن بك لا يبرح مكان مكانه الأزلي، يهاجمك في كلّ لحظة خنوع لأبجديتك أمام عظمة ورقة عذراء ...لكن الحياة.

سؤال جواب كل مكان ، هنا أو هناك، بعيدًا قريبًا،

بحب وكره، بعطف وبطش، بصمت وصراخ، لا، لن تسامح غير "الأنا "المبثوثة فيك بين ذراع نشوة وطلب حاجة بقاء لديك، هيّا نلعب معًا بالحياة...فرهن المكان للعبة الزمان فكرة إلهية لو أردنا بشرط أن نكون معا" أنايا" الوحيد هنا قد صحت على عتبة ملحمة تحاك بلح عاطفة الكبرياء، بدون اكتراث لكل الذوات الذاهبات بين صفائح الاسمنت والصبر في الانتظار فقط.

لا ...كم أريدك أن تكوني معي في جواري، تلازمينني حدود العاطفة، لأنك "لا" برفضك، جبروتك، وصوتك الزمهرير معلنةً حضورك الضروري في كل مفرق شعور يلتوي بمنطقة علينا، فواحات روحنا بدون "لا "لن ترفع الماضي من شهوة لقياه إلى نشوة استحضاره وفق الطقوس المعدة مسبقًا للحياة، أريدك "لا" ولن أتنازل عنك لساعة ما دمت أنتِ أداة رفضي وحيرة وجدي، وجواب محنة الانتظار، فأنت إذاً شعار الثائرين بمحض إرادتك تستخدمين كخشب يرتب على شكل صليب بانتظار مسيح آخر سيأتي يوماً...

الحروف إذاً أداة الكلام بصمت المكان، وعكس ما تريد بمنطق المنتصر أياً كنت أو لن تكون، مكانك مع المنهزمين فلا داعي لبث شعاع الوجع الممتد خلف كل ما نستطيع، هكذا "وهلمّ جرّا" سنتعبد راكعين بطقسنا الأزلي، الآن ...سنبقى كما لا نريد بعهد وحدتنا فقط، فأحد هواجسنا الأسيرة وحدتنا وسؤالنا، ينتقل معنا من سجن

إلى آخر، ومن سنة إلى أخرى، فيصير كأنه فيها وعنها، الأبدي مع دخولك أول أبواب سيارة الجيش عند الاعتقال يحاصر بيتك، ويطلب منك تسليم نفسك، تشاهدها تحبو إليك على أطراف أطرافها بابتسامة سمراء أو ليلكية، بعد أن تلتقفك أيادي الجنود المكبلة أيديك بشريط بلاستيكي، وبعصبة من القماش المهترئ على عينيك/ تنتزع من كل مالك وحولك ما عشت به وعاش بك والأوحد الأبدي "الوحدة "هي وحدها من تدغدغ ظلمة المكان وحشرجة أصوات الجنود من حولك، لكمة من هنا وضحكة صاخبة لمجندة تتلوى بصوتها بين كعب بندقية وصفعة تتهالك على محياك طابعةً وسام الدخول لعالم المجهول، الذي لن يكون غير عالم آخر فيه مربع الارتباك، شباك أمام بيتك تتمنى أن تغازلك به إحدى الجارات تعود بتأوهاتك بعد آخر ضربة تتلقاها، وهناك كل ما لك يعود معك ووحدهم الشهداء والقديسون بصورهم يقتحمون ألمك بلمة انحناء لقادم جديد في معسكر الكره الذي لن تغادره أبداً، أحد الواقفين من فوق حرف النون لفلسطين ماداً يده لك معانقاً ذرة تراب من جبل الجرمق إلى حفنة رمل علقت بقدم أمّي وهي قادمة لزيارتي في سجن رامون بعد خمسة أعوام من كل هذا...

مع دخولك لعالم الاسمنت، تتقلب كل المفاهيم لديك فالوحدة هنا لها منطق مغاير، حيث اعتدت قبل الاعتقال الشعور بالوحدة في مناسبة عيد ميلادي ولا أجد

أحداً يبارك لي هذا اليوم، أو أن أعيش عمري هناك بالبحث عن أنثى الحلم المستحيل ولا أجدها، أبني قصور الوهم بالوهم، وأرتد دائمًا خائبًا منهزمًا مذمومًا مدحورًا، أن أسكن غرفة بدون أناس، أن أكرس وقتي للجماعة وحين أحتاجهم يهربون مني ومن كل أمري، الوحدة هناك فقدان السند والحبيب والصديق والأخ...

وحدة السجن غير ذلك؛ فقد كتبت مقالة حول هذا الشعور تحت عنوان "على حافة الوحدة "سأضعها بين أيديكم لتكون المفرزة الأولى في فتح عالم السجن أمام هذا العنوان العنيد الغريب المصاحب لكل ساكن هنا، بفرط انتظاره لكل الساعات والأيام التي تنقضي لوعد مؤجل، وكأنه كتب على جذع شجرة رومية تعبق بزيت الزيتون في إحدى حقول بيت جالا، على أمل أن يعود صاحبها معانقًا ذلك الجذع ليداعب ذكريات تعفنت برحم الوجع، وكمولود مشوه تأتي الحكايا إما مبتورة الشعور أو كارثية الحضور. منطقان لا يمكن فصلهما عن السجن حتى لو سمرنا كل إنسانيتنا لتدمع خلف هذا أو ذاك.

# على حافة الوحدة

مجهول يحملك على ضم نواجذك ليعصف بعورتك الهادئة هنا، سكونها كلام سرمدي تفهمه بفك الأحرف وإعادة ترتيبها من جديد لتعرف أنك لم تعد أنت ...جهلك، عماك وسرعة بديهتك تجتمع لتعلق موتك، فالأموات وحدهم من يستطيعون العودة بلا كلام، تنهر نفسك عن المضي حيث تختار الوحدة أن تعاشرك، تحمل بك بفعل جبروت الصمت، تعزف لك لحن ولادتك من جديد، هنا لا تعرف الطريق إلى أي شيء فكل الأشياء إليك وهنا لم يعد يحالفك الحظ لتمطر وجودك بكلمات قررت مسبقًا شطبها من قاموس اللغة وإن سألتني.

لا أعرف طريق عودتي، الحيرة بيت قصيدتي هرمية التكوين خرافية الأسطورة، في نسقها تعرف كيف تعريك ولا تتقد شمعة ضوئك إلا عند كذبك، أما صدقك فمؤجل بطبيعة واقعك المؤقت، الزهر لا يأتي هنا بعريه الكامل، فأسرار الأجساد يجب أن تبقي حبيسة جارور الشهوة لديك، أرتطم بحرف آخر ثنائي التكوين فيشدني راعي اللغة إلى زمن التوحش الأول، آمنت أم ألحدت لا فرق... فكل ظروف الكون تأتيك فجأة وتغيب كما لم تتعود على مجيئها ...لك طلب واحد اليوم ...التعري.

أن تتعرى أمام ذاتك لتكتشفها عنوانا آخر تعرفه فقط على حافة وحدتك فتعالج ذاتك بذاتك، أيهما أطهر

ماء الورد أم زنبق الحقل؟ يطول السؤال حدّ الذهاب، تعلق متاع رحلتك وتعود وإياك أن تخون وحدتك هنا! فسنوات العمر تسير إلى المستقر الأبدي، وأنت ما زلت تطير بحلم عودتك هنا ..أنا سأعود ولكن غيري يعيش على أمل العودة المبتورة بفعل الرياح وعصف سنابل قمحنا المتعفن، حيث حقول اللاجئين الذين تركوا محصولهم وهربوا، بل شُردوا، اقتلعوا! كلها صور عديدة لمفهوم واحد ...الخيانة.

اليوم قررت خيانة نفسي لأمضي إليك أيها الحرير... سؤال يعلق فوق الورق، أتقبل أن تنتظر رجلا بعاهته أم الحياة خيار آخر يفرق بين الأماني والمتوفر، أعج بكثير من القرارات... أنام بواحد وأستيقظ الصبح وقد أصدرت واحدا. كلها تؤكد استفحال عجزي وحيرة أمري، أراك في كل شيء أمامي وحتى على صفحات الورق، أعيد ترتيب نفسي وأمضي سعيدًا على حافة وحدتي هنا، فسجني مكان لأعلي ذاتي مليكًا على مملكة الحروف، وعجزي هناك مجرد وهم تسوقه أقداري إليّ ...وأنتِ.

حياة أخرى أحاول اقتحام وجودها، تجرني إليها تلابيب قولك... وأعرف أنك مغامرة، إياك أن تؤمني لي يوماً فأنا سيد الهاربين والعاجزين وكلي مآسٍ، أحتاج حياة أخرى لأتعافى منها. فهل تقبلين منحي الحياة لأغدو طفلاً يعيش بوهم المكان وعكس أزمانه الغابرة؟ إن كنت تؤمنين بكل القضايا ولا تعتقدين وجودي مغامرة إليك، سؤال وحيرة قلبي بأنني أعيش بدون كلام وروحي تسافر في الذاكرة

وأنا على حافة هاويتين أو وحدتي أنتظر قدوم رسائلك الحائرة.

يبدو أن هذا المقال لن يقدم الكثير لمفهوم الوحدة للأسير. وكهاجس محوري يعصف بنا كل يوم وكل لحظة دون أن يترك لنا مجالاً لشعور الاستكانة والأمان، لذلك سأعالج مفهوم الوحدة أمامكم من أربع زوايا رئيسة، ولكل واحدة منها قصة وقضية، انهزام وإعادة ترميم لذات لم تكن لنا غير هنا، أحدهم يسأل إن كان كلّ شيء موجودًا فلماذا نتعب بالبحث خلف آثار الوجود؟ سأرتب سؤاله لكي يوافق منطقنا: إذا كان السجن هو ضريبة الانتماء لكل فلسطيني، فلماذا نكتب عما يميز مشاعره وأحاسيسه ومفاهيمه عن الحرية هنا؟ سيأتي جوابنا داخل غياهب هذه الصفحات مع كل ما كنت أتمناه، لكي أكون جريئًا بما يكفي لكتابة ما يمكنني كتابته ..ولكن، الوحدة هنا تمر في أربع مراحل مرتبطة بالبعد الزماني والمكاني والنفسي الاجتماعي، أولها "وحدة الاعتقال "ثانيها "وحدة الزنازين"، ثالثها، "وحدة السجن"، و"وحدة الوحدة "آخرها...

# وحدة الاعتقال

أحلام ...هي باتت تداهمني على شاكلتها برفع الأحداث في إطار الممكن فقط، كانت منذ زمن بعيد، واليوم صور تائهة على صفحات الواقع الأسير لا يعنيني منها غير ألمها وبعض شعور تائه فقط، ليلة الخميس بحفاوتها الدائمة، النوم داهمني وأنا ما زلت على أهبة الاستعداد.. انفجار لقنبلة الصوت وسماعات تصرح بأصوات شبه مفهومة "أنت محاصر ...سلم حالك أحسن لك "بين كل ما شعرت به الخوف والرهبة مما سيكون عنوان هنيهات الزمان السرمدي في تلك اللحظات، تطمينات الأهل ناقصةً شعور الإرادة المكبوتة بين كل ما بينك وبين عهدك للوطن. كأنك لم تكن منذ لحظات بعنفوانك الثائر تسابق أحلام الشهداء والثائرين من دونك، ولست الوحيد القابض على زناد إرادتك وتقدمها متى تريد، تتبعثر منك مشاعر الغضب والثورة، لم تعد تستطيع لثم حدود عجزك القهري رغمًا عنك...

حين تخرج من بيتك وأنت عارٍ من كل دفاعاتك إلا كومة المبادئ، والقيم التي سمعتها وتحاول نسخ انتماءك لها، كرهت مجبرًا لا مختارًا على حمل راية مكانتك القحلاء هذه، عندما يأتيك أحد الجنود مطالبًا ببطاقة هويتك، لا يعد لك منك فيه شك فأي الاحتمالات هو أنت لا غيرك، بروح الفدائي الأول تتقدم نحو مجهولك بحرفية الثوار،

تعيد استجماع كل شجاعتهم وصورك الخالدة كما كنت تحلم، فهم وأنت صورة واحدة لأفعال متعددة لا يمكن بتر أي منها بتقزيم الاسم خلف تجربة فردية؛ فكل الثوار لهم وجه واحد كما قال مظفر النواب.

مع استجماع كل شجاعتك، يتسلل الخوف من كل مكان فيك من قدميك، يديك، قلبك، صدرك، رئتيك، عينيك، لسانك، شعرك، من كلك المجزأ المبعثر بين تناقضين لا مستحيل غيرهما لحظتها، بوضع سوار البلاستيك على يدك وعصبة الأعين، أسئلة سريعة للتعرف على شخصيتك، برق وأناة كأنك جوهرة نادرة يجب أن يلتقط لك صورًا وأنت بحالة التعامل الإنساني الدعائي ذاك، ترفع وتوضع من هوة سحيقة تشعرها دون أن تراها، ترتب حدود الإمكانات من حولك، في اللحظة التي تسمع صوت باب يغلق، تعود منذ الآن غيرك الذي كنت، عالمك، أحلامك، حتى عملية الاحترام الدعائية تذوب من على صفحة شديدة تقتحم إمكانات وجودك المحدد على حين غرة، ومن كل تلك الأفكار التي تحتل حيز التفكير والوجد معًا، لا تستطيع وصف كل ما تملكه ساعتها، غير أنك في كل ما أنت فيه شعور الانتزاع غير المفهوم، وعالم المجهول بسؤال: "ماذا سيحدث بعد ذلك؟ "وبعد كل لكمة أو شتيمة يزداد حضور الثوار أمامك، ويعود السؤال لغزوك من بين أفواههم "ماذا بعد؟ ..."وحدتك هنا ما هي إذاً ..مع كل هذه الصور والضربات وصخب احتفال الجنود برحلة الصيد الأخيرة؟.

وحدتك شعورك المتهالك أمام ذاتك وحدك، لا أحد يخيط لك رقعًا للذات إن تفتقت على شاكلة خوف، رعب، عجز، ألم من كل حيز وجانب، هي هكذا فقد تكون الوحدة ساعتئذ خوف المجهول الذي يحيطك من كل أطراف المكان، حتى هذا المكان هو مجهول يدلل مجهولك في "ماذا بعد؟"، فتتوحش المكان وبنفس ذاتك يعود الزمان حاضرًا بغير وجع السؤال المحير، وهنا لا تعرف بمن تستطيع أن تتجاوز شعورك هذا، في كل ما أنت فيه من انتزاع الحرية منك وفيك، وإيصالك بعالم المجهول الذي لا تدرك مساحاته أبدًا، ومجهول يزداد ريبة في كل بعد عن عالمك، وأنت لا تعي حدود ذهابك.

بعد عدة ساعات يتحدد شعور وحدتك، فيغزوك أكثر حين تسمع بنادق الجنود تعالج معلنة انتهاء حالة الخطر أو رحلة الصيد، تأتي يد تمسك بك... تجرك وكأنك بقايا من القمامة أحضرت لترمى داخل مكب الأحياء، وكأنك لا تحمل قضية أو مبادئ وقيما، تنزلق من هوة الرعب تلك تجر، تجر على الأرض حفلة من الضرب السريع بادعاء عدم انصياعك لأوامر اليد المجهولة، تحشر ثانية في شيء لا تعرف ما هو إلا فقط عندما يتحرك، وهناك يزداد خوفك حدّ الارتجاف؛ فكل قطعة بك تهتز معلنة هزيمة أخرى لك، بعد وهلة من الخوف والوحدة تلك يتوقف الشيء المتحرك، وبالطريقة السابقة نفسها تجرّ، ولكن هذه المرة دون ضرب، بعد قليل يهاجمك ضوء مفاجئ بعد

إزالة عصبة العين، لا تعود ترى شيئا، حتى سواد وحدتك يتهالك أمامك بشعاع خارق لكل مالك وفيك، يأتي ضابط من الجيش يعرف على نفسه باعتباره مسؤول منطقتك الجغرافية، بعض الأسئلة والتهكم والاستهتار بك وبقيمك ونضال شعبك، يأتي ما لا يعي ما هو غير أنه جندي بكل زيّه يدعي بأنه طبيب، يسألك عن حالتك الصحية، سؤال فقط دون جواب ويذهب، تجرّ من خلفك بطريقة وحشية تسير عكسك إلى الوراء، لا تشاهد غير خلفك، فأمامك جندي لا يتجاوز الثامنة عشرة يجرك كحيوان فاقد أهلية الخيار، وحتى معرفة ما يؤذيه أو يمانعه أثناء سيره ، وليكمل مشهده المضحك وهو يجرك يرتطم بك في حائط، فتتعالى الضحكات أو أن لا يقول لك أنّ هناك درجًا فتتكوم على بعضك، وكأنك ساقط من سماء أخرى، تأتي الضحكات لتزيد وحدتك وحقدك.

توضع في قفص، لا يسمح لك الحديثُ أو السؤال عدة ساعات، وأنت تلاك وتمضغ بمتعة الوحدة اللعينة التي لن، ولم أشعر بها في حياتي، في كل مرة تضغط ضرس الخوف والتوجس عليك تداهمك رغبة شديدة بالنعاس، بعد ساعتين أو أقل تكتشف اكتشافًا رهيبًا، النوم هو وسيلة الهروب من وحدتك تلك، وأنت جالس في زاوية قفص الحديد ذاك تلملم نفسك على بعضها، وتأخذ أطراف سكون مفاجئ داهم المكان المجهول لوقتك المجهول أيضًا، وتحاول النوم، في حين غرة منك تستيقظ على

صراخ عالٍ...عدد ...عدد ...عدد...

ماذا يعني هذا "العدد "؟ لا تعرف فقط. تشاهد مجموعة كبيرة من الجنود تقتحم بابًا أمامك وتسمع أصواتًا أخرى داخل ذاك الباب، بعد فترة قصيرة يعاود الجنود الخروج وأنت لا تزال مكانك مكوّمًا في زاوية قفصك، ينتبهون إليك... يصيح أحدهم عدد ...لا تعرف ماذا تفعل...

– هي ...عدد ...عدد...

.....

– شو ما بتفهم إنت حيوان ..بحكيلك عدد...

– تكلم بالعربية فشعرت بخطر يداهمني...

– صوت جندي آخر بالعبرية "زي ...حداش، هو لو يوديع) "بالعربية :هذا ..جديد، هو لا يعرف.

– وقف يا حيوان ...وقف...

وقفت حيث كدت أشعر بأنني قد اخترقت حدود الممكن معهم، فأصبحت قاب قوسين أو أدنى من معركة سأكون بالضرورة طرفها المهزوم؛ فقد كنت أتخيل أو هكذا سمعت "في السجن أي خطأ ترتكبه كأسير، الضرب عقوبتك "لذلك تحفزي للمعركة كان بقرار "لن أكون طرفها الخاسر دون مقاومة "التفت الجنود مبتعدين مع بقاء باب القفص مفتوحًا، تدافعت أكوام البشر من وجوههم عرفت هويتهم فالثوار والمناضلون لهم مميزات عفوية تدفع

محياهم بمنطق فريد، تجمعوا حولي.. بينهم من عرفني فأخذوا يسلمون ويقبلون، بعد موجة الالتقاء أخذني أحدهم وأدخلني ذلك الباب...

ممر في نهايته باب يدخلك إلى ثلاث حنفيات وحمامين في الممر، على الجانبين تتوزع أبواب حجرات في كل جهة أربع أبواب، وخلف كل باب حجرة يسكن فيها حوالي عشرون شخصًا، آخر غرفتين لم يكن فيهما أحد، سألته لماذا؟ فأجاب: "لم يكتمل العدد؛ فهنا يرحلون الأشخاص لمركز التحقيق دائماً، لكن، لا عليك! صار لي هون ١٦ يومًا، يعني اركن البارودة واسترح "(ضحك فأعاد لي بعض أجزائي التي انتهشتها الوحدة تلك، بعد فترة من الزمن جاء صوت من بعيد قالوا: هيا علينا الدخول، أدخلوني غرفة كيفما اتفق، كان هناك صديق ممدد على الأرض نائمًا "لقد اعتقلوه قبلي بحوالي شهر" أخذت أداعبه، استيقظ وانقض علي بكلتا يديه وأخذ يلثمني على كل راسي.

– أهلاً..

– والله إلك وحشة...

– شو زمان إلك هون...؟

– اليوم اعتقلت.

– آها، راح تقعد شوي هون تا ييجي دورك

– يعني ما في غير الانتظار

ممكن أخذك بعد عدة أيام لمركز تحقيق،

وقد يحققون معك "هون"، إذا كانت قصتك صغيرة راح اضل هون بس إذا كانت كبيرة راح يوخذوك على مركز تحقيق، وإذا هيك لا بتروح على "الجلمة "أو "بتاح تكفا"، ولكن هسا ارتاح بدها وقت...

دخل الرعب كياني وعاودت تلك الوحدة تحمل بي من جديد، تعاشرني بمتعتها وعجزي أمام شبقها يتقهقر، احتلت كل حصوني واحدا بعد آخر، حتى أنني شعرت بنعاس شديد، طلبت من ذاك الصديق النوم، رتب لي مكانًا على الأرض.. لا فراش فقط؛ قطعة من البلاستيك سماكتها سنتمتر واحد، ورتب لي بطانية كمخدة.. ووضعت واحدة علي ورحت ألعب لعبة الوحدة في أول مباراة جدية معها بعد أن عرفت عبر التجربة بعض المتعة معها...

في هناك سيارة بوسطة ..يا شباب ..أكيد جايين يأخذوا واحد..

لم أنم سوى هنيهات معدودة، وإذا بذلك الصوت يوقظني فزعًا، لم أعرف أين أنا وكيف وصلت هنا .جمعت ذاتي ورحت بشكل سريع أعاود ترتيب أفكاري وسريعًا عدت وتماسكت، سألت..

لماذا هذا الصوت؟

- تعال ..قمت معه واحدنا نطالع من شباك يقع في آخر جدار الغرفة وارتفاعه عشرين سنتيمتراً فقط، إذا السيارة واقفة..

- هذه السيارة تأخذ المعتقلين للتحقيق.
- أكيد راح يأخذوا أحد، لكن اطمئن مش راح تكون...

علقت "أنت "أمام صوت ينادي بالعبرية باسمي.. صاح شو عامل جايين ع شانك بسرعة، لم أجب... أخذت أرتب نفسي وهو يدعوني للصمود وعدم التسليم وأخذ الحيطة والحذر من "العصافير "-هذا المصطلح الذي يطلق على العملاء الذين يساهمون بانتزاع الاعتراف منك بانتحالهم صفة مناضلين- بسرعة انتزعني الجنود وأركبوني تلك السيارة بعد وضع الأصفاد في يديّ ورجليّ.

أخبرني صديقي بأن مركز تحقيق الجلمة لا يبعد نصف ساعة من مكاننا في معسكر "سالم"، أخذت السيارة تسير وتسير... تقطع المسافات ووحدتي تنهش بي أكثر ... فأكثر. خوف ...خوف يتساقط من كل مكان وزمان، لبرهة لا تعد تميز انهماره... فقط تحترق مع كل دفقة، تعاود ارتهان إمكانات الوجع فيك، تعبر صحراء قاحلة لا تعرف أين بدايتها ونهايتها... ترتفع أمامك بروح وجع الملاذ الأخير، طعمها ليس بلذة الانتماء لكل أكوام البشر خلفك، ولكن استفاقات الحياة بعد كل خريف من دون انتزاع البرد حياة الحياة.

في رحلة الذهاب لم أوفق بتفسير محدد لكل ما أشعر به، غير أنه جديد، غريب، كريه، صعب، ومتآمر عليك منك، لا تعترف أبداً هذه الأطروحة الوحيدة التي

جاءت بعد كل ساعات المسير في سيارة النقل، في ساعة متأخرة من يوم الخميس وصلنا إلى "لا أدري"، مكان مظلم برده يخترق كل ما فيك حتى شعور وحدتك عبر كل تلك الرحلة يتآكل أمام برد المكان والجديد، تتناقلك الأيدي ولا تسمع غير كلمات بالعبرية تحملك من صوت إلى صوت آخر دون فهم، تحاول وتحاول تلمس المكان بإحساس جديد... كل محاولاتك ترتد خائبة، فقط باب ينتزعون بعد وقوفك أمامه أصفادك المعدنية وتلك النظارة السوداء، يشتعل البرد والخوف يشكلان سيمفونية قاتلة تتراقص أطرافك رعبًا منها، عبريّ آخر بكلمة من العربية مقطعة يطالبك بالتعري...

أيعقل أن تتعرى أمام غريب؟ وهل يمكن لك قبول ذلك أمام عدو؟ لا تدرك ما تفعل وقتها لأن إرادتك تبدأ تتكسر مع خوفك البارد ذاك، تتعرى إذاً من كل شيء عليك سوى بعض الكلمات تغطي بها عورتك وبارتياح الهزائم بعد كل معركة تخوضها، يأتيك ما لا يأتي المظلوم في حلكة العتمة الأبدي، أيسافر آخر المهزومين لمكان معركة الهزيمة القادمة؟ هذا ليس قرارك فأنت منذ الآن وحدك، ترتد أو ترد لكل ما فيك، فلا يعدو مريحًا أيّ منهم أو منك، تنظم فقط علاقاتك بكل شيء، فكل شيء عدو ولا داعي للاستمرار في هذا المنطق.

آخر ساحات الشعور تلك تغادرك عند انغلاق باب الزنزانة الانفرادية بعد سلسلة سريعة من الإجراءات

الروتينية بالنسبة للآخر وليست لك. هناك لا يعرف معنى مكانها في ذاتك وحجم احتلالها لك غيرك أنت، وكل من عاش ليدخلها بمنطقها السادي الأبدي، فكم من مناضل حل ضيفاً فيها وعليها؟ وكم من شخص بكى هنا أو خط كلمة صمود داخل قعرها الفوضوي المرتب، هي منطق جديد لا تعرف منه شيئًا حتى كل من حدثك عن الزنازين لم يصفها لك كما هي، فقط سؤال واحد يطرق بابك وقتذاك، أين الضرب والشج والتحقيق؟...
وتبقى تنتظر....

## وحدة الزنزانة

في سقفها إنارة صفراء تضفي على المكان رعبًا ممنطقًا، لا نوافذ تربطك بأم الحياة "الشمس"، فوهتان إحداهما تضخ الهواء البارد وأخرى تسحب الهواء، لا وقت غير ميقات ساعتك البيولوجية التي تعيد ترتيبها بصعوبة في رحلتك الغامضة تلك، حيطانها مطلية بلون سكني لتظهر كأنها دهر من المساحات الممتدة بالرمادي المميز باللا حياة واللا موت، ليست ككل الحيطان؛ فلها نتوء فقط لا تستطيع أن تمتع نفسك بأن تضع ظهرك لحائط يعينك على الهزائم، مساحتها لا تتعدى المترين في متر ونصف، فيها "مرحاض "وفرشة سمكها خمسة سنتيمترات

وبطانيتان، صحيح لقد أضيف لها بمنطق الأنسنة المبتورة قطعتان من الحجر نائتئتان من إحدى الجدران كأنهما طاولة صغيرة ومقعد ...وكل ما يميزها ...صمتها.

هي الزنزانة إذاً، انتزاعك من عوالمك، أحلامك وحياتك ووضعك في ما يشبه البرزخ، من فرط تعبك وخوفك تقرر النوم، ترتب فرشتك بوضع إحدى البطانيات تحت رأسك والأخرى غطاء لك، تذهب في رحلة النوم، بعد عدة "أوقات "فلا ساعات تحسبها هناك من الآن فصاعداً تبدأ عد الوقت وفقًا للأحلام؛ ففي كل مرة تهرب بها من مكانك الموحش ذاك تداهمك الأحلام، فبعد أول حلم لي هناك صحوت خائفًا وصحت ...أين أنا ...؟ لم أعرف للوهلة الأولى مكاني... وبعد أن ارتدت من الحائط كلماتي أيقنت الحقيقة المؤلمة للوضع الذي أنا فيه، عالجته ببكاء سريع... أخذت أرتب مكان نزول قطراته من فوق وجنتين حائرتين دون أمل باستدرار عطف أحد. لأول مرة كنت أبكي لشعوري بحاجة المعالجة وفق هذا الأسلوب وليس لعطف أحدهم.

سمعت صوتا يقترب، أخفيت دمعي وهزيمتي الأولى تلك، انحنيت والتقطت بعض قطراتي المنهمرة وأسكنتها عيني وقلت:

سأحتاجك حتمًا ...فالمسيرة ما زالت بأولها.

وجبتي الأولى طببت خمس جوعي فمن "حلمين" لم آكل أيّ شيء، عاودت الهروب نحو اختراق جدران

عزلتي بالنوم مرة أخرى، فقد كنت تعبًا ...تلقيت عدة وجبات وأصغيت عدة مرات محاولاً التقاط طرف صوت تائه هناك لم يتوفر بعد ...كأن أذنيك يعطيانك إشارة "أنت الآن خارج الخدمة ...حاول مجددًا..."

بعد عدة أحلام كانت لم تتجاوز أصابع اليد الواحدة ..فتح الباب وإذا شخص يرتدي زيًا كحليًا يحمل بيديه سلسلة ونظارة..

تعال ..يلبسك النظارة فتغيب خلف سوادها..

يديك للوراء يقيدهما بالسلسلة ...يقودك حيث لا تدري...

يجلسك على كرسي ويقيد سلسلة يديك في حلقة أخرى داخله... فتصبح مشدوداً له، ينزع عنك النظارة.

أهلاً ..كيف الصحة والأحوال..؟

.....

- الحمد لله على السلامة ...اشتقنالك يا زلمة

.....

- طيب شو اسمك؟
- أخبره باسمي كاملاً

هذه الأوراق عشان توقع عليها مكتوبة بالعربي والعبري اقرأها ...أخذت الورقة وهي مجموعة من الحقوق والواجبات.... أكثر ما لفت انتباهي حقي بأن أستحم مرة في اليوم، رفضت التوقيع...

كلكم هيك بالأول ...المهم أنت شفت الورقة وهسّا لازم نحكيلك "أنت ضيف عند الشاباك- "جهاز الأمن العام الإسرائيلي- اليوم الاثنين إذا ما بتعرف اليوم، وراح يكون أول يوم إلك معنا بالتحقيق، إذا بدك تطلع من هون يللا خلينا نخلص الملف وبكرة بتروح على السجن.

- طيب بكفي اليوم شكلك بدك تطول عنا انزل على غرفتك وأنا لما بدي اياك بناديك.

عدت بالطريقة نفسها، كل شيء ليس كما قيل لي، لا ضرب ولا إهانات، عرفت خلال هذه الجولة أن أحلامي حصيلة أربعة أيام، ولم أتناول خلالها غير وجبتين من الطعام، ولم أقبل أيّ سيجارة فقد أضعتها لعدم مطالبتي بها، فلم أكن أعرف أن من حقي أربع سجائر يوميًا، آخذها عند الوجبة الصباحية، رتبت إرادتي كما يحلو لي أو بالأحرى كما يحلو لمنطق المكان أن يرتبها بعد استكشاف عادات لم أكن أتقيد بها قطّ ...صرت آكل بانتظام، أطالب بسجائري، وأقسمها حسب الوجبات والسيجارة الرابعة للسهرة... استطعت اقتناص بعض تفاصيل المكان من خلال الباب الذي يفتح بين حين وآخر لكي يأخذني لتلك الغرفة المعدة للتحقيق. استجمعت أيضًا بعض تفاصيل الوقت الذي تحرم منه لمجرد دخولك هناك من خلال ضبط الوجبات المقدمة، فأصبح اليوم بمثابة ثلاث وجبات، أي تلاعب من قبل الشرطي بتأخير إحداها أو إن قدم لك وجبة البيض واللبن في غير موعدها ستعتقد

باختلاف الزمان ..إذاً ما هي وحدة الزنزانة هناك؟

أمل يدغدغ باقيك المبعثر بين حنين وحلم، سماؤك الأرجوانية بتوردها الأخير بعد خريف من الشمس... براد البرد الذي يحتك كل ما فيك، للوهلة الأولى تعتقد بانتمائك لكل ما فيك ولكن بعد انقضاء الأيام وارتكابهم سياسة الإهمال بحقك... تكتشف أن وحدتك هنا ليست كوحدتك الأولى بالاعتقال، أو كوحدتك التي عرفتها في ميعاد حريتك المهتوك هنا، فهي إذاً ليس مكوثك دون بشر أو بمعزل عنهم داخل مساحة الضيق تلك، بل هو حنينك المستمر للماضي وذاكرتك التي تحتل كل ما فيك، فتقتحم كل خلية لك حد الاقتحام والصيرورة، الحائط ذكراك والفرشاة ذكراك .تعيد كل ما مرّ من حياتك بأناة وصبر ....بنظرة النقد حيث تصبح سيد الذاكرة بامتياز... هذا ما يعطيك حيز الالتحام بالوقت والمكان معًا وسؤال يضربك كموج البحر الهائج: من يسكن من؟ أنا أم الذاكرة؟ ذكراك وحدتك والإهمال قوقعة الارتكاز عليك، وهي مكان جيد للتمتع بك وأكثر مع مرور الوقت.

قلم يكتب كل ما يريد وعند انطفائه يذهب حيث لا يدري، لا يلتقي بغير الهزائم والخيانات... حبك المبتور أخوك الذي ...حاضر معك في الزنزانة.... أمك، أخواتك ينتظرك هناك بين صفوف الأسرى الذين يقبعون في السجن بعد أن مرّ أغلبهم بتجربتك رعشة بين خوفين: الأول أن تغيب الذاكرة بعيدة عنك. والآخر: غباوتك وحماقتك بإرادة

الهزيمة هنا، في كل مرّة تحاول استكشاف حماقاتك... ترتاع بأن كلّ ما قيل عن هذا المكان أسطورة تتحطم عند ولوجك هذا المكان، فبعد انقضاء الستين يومًا لم تضرب سألت ..كفًا واحدًا وحتى لم تهن بإهانه لفظية واحدة نفسي لماذا يقولون بأنهم ضُربوا؟ في الوقت الغابر كان انتقل "المسكوبية"التحقيق ضربًا وإهانات. وبعد مذبحة للأسلوب النفسي بالتحقيق، وقد كانت النتائج "الشاباك" مبهرة وأكثر عملية... فلا منطق أخلاقيًا يحكم عملهم في عالم الإسمنت، النتائج مهولة كانت تلك النجاحات باستخدام الأسلوب النفسي المعتمد على الإهمال... وتركك تتعفن بوحدتك، وفي كل يوم يمضي عليك بمنطق وجباته، يزيد شوقك للانتقال للسجن... فيغدو حلمك لكي تنتهي من كل تفاصيل المكان الموحش، وبعد كل مالك وما عليك.

## وحدة السجن

بعد المشوار الطويل حتى وصولك باحة السجن حيث يستقبلك الأسرى الموجودون قبلك بحكم انقضاء فترة تحقيقك التي امتدت مئة وعشرين يومًا ...تقدم على هذا الواقع وأنت كلك تفاؤل ولهفة ... محاولاً لثم أيدي من سبقك هناك، فكل ما سمعته عنهم بأنهم قديسون وأنبياء.... فكيف لا! هم المناضلون الأقوياء! كيف لا

والثورة لا تنجب إلا ثواراً ..؟ كيف لا وهم غير غيرهم بإقدامهم وشجاعتهم ...شعورك ذاك يعيدك حيث لا تريد العودة لمفهومك الطاهر عن الوحدة ...ففي أيامك الأولى ...الكل من حولك والكل يسألك عن أحوال الناس والأوضاع خارج السجن. أولست أنت القادم الجديد...؟

مع مرور الأيام تتداخل في روتين المكان شيئًا فشيئًا، فلا يمكن لك أن تسير عكس التيار هنا؛ رتابة في كل شيء حتى الاستيقاظ والنوم والأكل والتفاعل الاجتماعي، فيبدأ عالمك الخاص بالتشكل بمعزل عن كل من حولك... في السياق نفسه يتكسر تأليه المكان والناس لديك رويدًا رويدًا، فالبشر هنا كأنهم يحبون، يكذبون، يخونون، يتآمرون، يتكاتفون ...وبعد فترة ليست بقصيرة تتآكل صورة المقدس والطاهر عندك؛ يثبت لك أن هذا السجن هو واقع اجتماعي كالخارجي، ولكن بقيمة ناقصة هي الحرية أو –إن أردت تعريفي الخاص– هي "الإرادة."

فالإرادة هي الحرية والعكس صحيح.. فما قيمة أي شيء تريد القيام به ولا تستطيع فعله، خروجك في وقت محدد، نومك، حمامك، صمتك، كلامك، أكلك، وزيارة أهلك، حتى أنك تعود ملك الروتين... فيقودك ليكون روتين ذاتك أنت نفسك، هكذا تصبح في كل شيء مقيداً ولا تملك إرادته ..فتفقد حريتك، أعرف أن منطق الإرادة لن يعجب الكثيرين.... لكنه قناعتي الخاصة.

دخلت السجن يكبلني شعور النقص؛ فقد اعترفت

بالتحقيق عكس إرادتي التي صغتها بمعزل عن أسطورة الواقع الأسير، فقد حفظت مقتنعًا أن الاعتراف خيانة، وإن لم تظهر بكل بشاعتها تلك، مع أنني اعترفت.... إلا أنني حافظت على مجموعة لا بأس بها من الأسرار، حتى انهياري جاء مرتبًا بشكل عفوي؛ فلم يكن بقرار، لذلك، اخترت العزلة؛ فهم ليسوا مثلي، وأنا المنهزم القادم من معركة المبادئ والقيم، أخرج لساحة الفورة وحدي... أجلس في ركن وحيدًا رافضًا أيّ مشاركة من أحد.

أحد الرفاق اكتشف تأنيب القيم الذي مازال يسيطر عليّ، فبحجم الخسائر يأتي جلد الذات، عند خساراتك الفادحة لا يكبح أحد سلخك المستمر لما ارتكبته على حين هفوة، نزوة، ضعف عابر أسس الكثير إلى حد التخلي عما اعتقدت به طويلاً؛ عملية التطبيب التي مارسها، رفيقي أخذت حوالي ثلاثة أشهر، وسرعان ما عدت لما كنت عليه، ولكن تجربة التحقيق هي أقسى تجربة عايشتها في حياتي، وستبقى مظهرًا يفوح بكل ما فيه من خوف وعجز وارتباك في الذاكرة يصل إلى حد أن التحقيق هو أحد الهواجس التي لن يستطيع أيّ أسير تجاوزها ألبتة مادام في عالم الإسمنت.

في ظل هذه التبدلات والتغيرات، تكتشف أن مفهوم وحدتك الذي تبدل عند دخولك كان كذبة آثرت تصديقها؛ فالوحدة بالسجن هي كغير كل المفاهيم التي اكتشفتها قبل ذلك ...فوحدة السجن... انتظار الحلم أن يأتيك بصورة

الماضي سالمًا من أي تشويه مكاني، انتظارك الفترة لزيارة الأهل التي تأتيك كل خمسة عشر يومًا مدة خمس وأربعين دقيقة قد تحرم منها لأتفه الأسباب، عزلتك التي تفضلها على كل من حولك فبعد عطشك للحديث والجماعة في فترة التحقيق، في السجن تتمنى أن تنأى بذاتك عن الجميع لتشعر بخصوصية، إذاً وحدة السجن هي- هكذا- خوفك من انتظار الفترة لكل ما تريد وفقدان خصوصيتك.

## وحدة الوحدة

تأتيك الكلمات على طبق الوجد معانقة خيالاً بات سجين الظروف والأماكن. تقرر مسرعًا إعادة كتابة ذاتك في ذات غيرك... تنتهي المحرمات بصمت السكون خلف الجدران... وترفع الكلمات مكانة جديدة على تعانق الخلود وعبثية الزمن... أين تقرر أن تكون؟ فالسجن حيث نحن يهتك قراراتك وأفكارك، فتغدو أسير البعد، والسنوات التي تمر عليك حاجزة قدرتك بالذهاب لأبعد من نفسك... فرحلة الحياة هي اكتشاف غيرك، والسجن مغامرة خطيرة لتكشف عن ذاتك وعلاقتك مع الحياة.

متى تعصف الأفكار بقدرات الأسير بعد طول تفكير تكن -بالتأكيد- تعبيرًا مكثفًا عن اكتشاف الذات وإمكاناتها؛ فوعد قد أعطاه هناك لا يعني له الكثير هنا، ومعاناة أحدهم عجز الصنوبر عن ترك الربيع يمر دون

بصمته الخضراء، فتأتيك الأخبار دون وعد؛ هي هكذا حياة السجين تؤشر باتجاه قراءة خطيرة لكل ما يجول في خاطرك دون اكتراث، وهي هناك لا تغدو كونها حصلت على وعد يومًا من الأيام، وأقنعت نفسها أنه لقاء مؤجل برسم الممكن، وقد يكون هذا ...ولكن... وعد قد قررت إيفاء شروطه دون تواصل! لا تقدر على الكذب أكثر، فهنا نعلق الآمال بالصدق ولا مكان للكذب في حياتنا... وإن حصل فهي خيانة غير مشروعة تعصف بطهارة قضية الأسير وكل من يتعاطف معه، فأي وعد قد تقطعه هناك هو حبيس الممكن والمستحيل ....فالأفضل إذاً فتح الباب من جديد لرسم المغامرة مرة أخرى دون وعود، إما نجاح يتوج بالأقحوان، واما استمرار لموقف يسجل عبر التاريخ لوفاء هو العنوان الأخير دائمًا.

الأسير إنسان يقبع في عالم النسيان وكلّ ما يربطه في عالم الأحياء ذاكرة تخصه، وأمّ قديسة تستحق الوفاء عند بزوغ القمر كاملاً، أو زوجة تستطيع رسم وفائها بقدرتها على تحمل أعباء الحياة وتربية الأبناء إن وجدوا، أي حالة تظهر خارج هذا الإطار هي– بحد ذاتها– صورة فريدة لا يجرؤ أي أسير التطاول نحو التشكيك بعفتها ونبل تصورها، فيتمسك بها ولا يجرؤ على قذفها بعيدًا عنه... لكن يصعب التكهن بالقدرة على الوفاء.

جدلية الأمور تقع فوق بعضها، أنا أشتاق لكل قطعة تحاك على سفح جداول الحياة وفاءً، أقدس انتهاك

العادي نحو وراء الوراء، فأغدو كقطعة عطش من الأمنيات شرطها الأول قدرة على التواصل بكسر حالة الخجل والتفاف صريح للوجع، فأنت في السجن لم تعد أنت، وهناك يعتقدون أنك سيد الخيارات، لكن الواقعي هو أمنيات برسم المستحيل، وواقع يفرض عليك مالا يسرّك، وقرار لم يكن مقنعًا.

عذرًا على الكلمات أيها "الحرير" لكن عليك أن تكون ناصع البياض لتسمح لي مشاركتك متاهة الأيام، فأنا مصر على الوفاء ولا أستطيع أن أكون غير ذلك، وبياضك يجرحني وموقفك النبيل يؤلمني أكثر، كن كما لم أعهدك قادرًا على تجاوز المحن برسم شكل جديد للمغامرة، ولا تقع فريسة الإحباط، فأنا أحب الحياة وأنت تحتاج بحرا من الكلمات لنعيد خياطة أطراف وجودنا معًا. أتذكر أن أحدهم قد أرسل لي رسالة وقال: "سأبقى أتذكرك طيلة حياتي "وسؤالي اليوم: هل وعد الذاكرة هو أسهل من ابتداع أسلوب تواصل نستطيع من خلاله رسم مغامرة أخرى؟.

إذاً لكل أسير حكاية مع الحرير ومشوار لم يكتمل بعد، ربيعه الأخير هو قدرته على استمرار الحكاية تلك دون وعد بأن الربيع سيزهر، فاختلاف الطقس من فصل إلى آخر لا يعني قدرة الأزهار على سفوح الخرافة، فأنا مازلت هنا وأملي بأن أستطيع المضي إلى الأمام هناك.

أيتها الكلمات، أمهليني قليلاً، فالوقت يسير على

مهل وأنا أسارع وراء البياض معلنًا بداية حكاية جديدة، وأنت كما لم يكن عليك يوم تغادرين الوعي شاردة من ذهول الموقف، رويدك! هنا أسلوب يلتف مع انقضاء أول تجربة باتت أسيرة الممكن والمستحيل، إذاً هي شتاء يُصاب بالجنون فيختار رواده معاقبة أنفسهم بإطراق أطراف الكلمات، لتشغل في أعماقهم أحرفًا معقدة تؤشر بسقوط الأبجدية عند أول خريف.

وهناك تقف حروف اللغة مجتمعة لتعاند منطقك، تفهمها قد يكون... ولكن أن تفهمك! هذا سؤالي بحيرة الأسطر الفارغة وهي تفتش عن جمل تدثر عورتها، وأنا أقف حائرًا: أيعقل أن يكون الأسير أسير خياراته أم أن السجن منطق يبارك الخيارات ليزيد من فرض كونه عزلة تحكم بفصل النفس عن محيطها؟ فهنا أنا وكلّ هؤلاء نكابد مشاق الفراق دون اكتراث للزمن حتى لو ظهر شيب، وانقشاع للشعر عن مقدمة الرأس... هناك انتظار يعد الساعات، الأيام، الأشهر السنين... كثيرون تعرفهم وتبادلهم المجاملة وشعور الالتزام نحوهم... وقليل لا تتوقع أن يرسم عهدُه انتظارًا أو ذكرى خالدة، عند اكتشاف هذا تقف عاريًا أمام ذاتك لا تملك أن تمنع بريق الأمل من أخذك حدود الالتزام حتى ولو تقديرًا.

وهذا الأسير الذي ابتدعته صورُه معلقة بجانبي.... يقف أمامي مادًا يده وقد ضاقت به الأيام، وأطبقت السنون على محياه ليصرخ بسؤال يؤرق كلّ أسير، وتراوده نفسه

الصراخ فيه: "طيب وأخرتها "؟! أيّ إحساس يداهمك وأنت تحاول صناعة وقتك ونفسك ومحيطك! كلّ شيء بيدك المقيدة أصلاً ..هذه محاولات قد يجهلها أيّ شخص لم يعش تجربة الأسر، سؤالك يا صديقي، يؤرقني كما يؤرق آلاف الأسرى من حولي مَنْ قفزوا أعوامهم العشرين بانتظار ومازالوا، أي سؤال يقدمون؟ ولمن؟ أيعقل يا رفيق السجن، أن تسأل هذا السؤال الكبير وأنت لم يتجاوز عمرك هنا أعوامًا أربعة؟ أي قهر يقتل فرحة حبك الأزلي بتلك الأماكن؟

أسئلة تسبح في بحر المجهول ولا جواب يستطيع أن يقدم نفسه على أنه ممكنها اليوم، وهي ستبقى حائرة تطير من علامة تعجب إلى أخرى، والوقوف يسير وأنا أسير إلى تاريخ إفراج أصبح قاب قوسين أو أدنى، ولكن هؤلاء الذين عاهدوا وطنهم برهن أعمارهم خلف القضبان... أيّ جواب سيبقى يلاحقهم على سؤال رفيق السجن هذا "طيب وآخرتها"؟!

وهم ..يرفعون أيديهم عاليًا في فضاء الغرفة التي نقتسم بها وجبات المعاناة الخاصة بنا، يدعون ..يبتهلون وكأنها آخر صلاة قد يؤديها هنا في هذه الأماكن التي أعدت بشكل جيد لتكون صارخة بالوجع والمأساة، دون سابق إنذار تعود حيث كنت دائمًا هناك لتمتشق واقع الوجع سلاحًا من التحدي والانتصار؛ فالانتصارات الكبيرة لا بد أن تسقيها هزائم صغيرة تُسفك على نعال تجارب

خالدة بشمس كل يوم يأتي، حافرة صيرورة الأيام رغم كل آلام الواقع.

في السجن تحلو لك لعبة الذكريات وتعود اللاعودة، لا تعرف أين تبدأ؛ فهنا ذاكرة أليمة، وهناك ذاكرة جميلة، وغيرها الكثير من هذه وتلك، حدث سريع وآخر يتثاقل بأحمال الوقت فيبقى قابعًا في ظلام الذكريات، لكن مع كل الاختلاف ما يميزها فبطلها شخص واحد ...يعيش كيفما اتفق.

وكلّ ما يسيطر عليك سؤال مؤلم بعض الشيء: "كم من رجوع بات ينتظر الأحبة؟ "ولا يأتيك الجواب لأن السؤال بالجواب سؤال آخر لا يفتأ حتى ينكح ورقة تعاني البياض، وكما دائمًا صورة عابرة لزمان خالد تداهمك في حرب السؤال والجواب هذه، فلا تستطيع مقاومة البقاء حيث أنت ..أنت.

"أين تغيب"؟ هذا سؤال السؤال ...فقد اختتم أحد الأصدقاء رسالته لي بهذا السؤال، وكأنه ما عاد يعلم جوابًا قدمه في متن رسالته: "لا السجن باقيًا ...ولا السجان...

"هكذا يسير الواقع ولكن بزحف السنوات فوق عروق الجسد المهترئ الذي قد يمضي ثمانية عجافًا، وآخرون قد يمضون مالا يقدر بحذف الكرى من سؤدد الأيام .. وتمضي مسرعًا نحو ذاكرة تعاندك ولا يبقى سوى أمل التواصل.

ويأتيك الجواب مضطربًا:" ....الدموع والحزن ...

ضعف ..جبن ..تخاذل، أما الابتسامة والتفاؤل فهو حياة ....قوة ...ولادة قد يكون بعض شيء ....ولكن بكثيره يرد المكان بأن آلاف الدموع في السجن قد تأتي مبشرة بتورد الحياة، والحزن مشكاة نور يضيء دومًا حقد المظلومين ..وكم نحتاج للحقد نحن! فما زالت فلسطين تحت نير الاحتلال، مع هذا كله يأتيك المثل القائل: "أن تضيء شمعة في الظلام أفضل ألف مرة من لعنته" ويضيف الفذ فيصل دراج "وإن لم تلعن الظلام ستنطفئ الشمعة الأخيرة."

وفي السجن ما يقال ...ولا يقال ...غير الأماني بالعودة والوطن، وعهد الأصدقاء بالوفاء على الدوام. عهدك الأبدي بأن تبقى تعد أيامك رسائلَ تحاول إيجاد عنوان لها. خيبة أخرى تداهمك من حيث لا تدري فلا عنوان لديك والذريعة، تهافت التفاهة غريب بعض الشيء ..وقد يكون أمل التواصل أبدًا مع فجر كل يوم وفي طريقة مبتدعة لا يقدر على فهمها إلا صاحبها ...فحرمان الأسير من أبسط حقوقه إجرام.. فما بالكم عند سلبه أغلب حقوقه، ويأتي القدر ليعانده؟!

في السجن ...حيث آلاف الأوجاع تغادر نوافذ الأمل التي مازالت تعانق جدران الزنازين... والأسير يحلم بالعودة دومًا، ما لا يستطيع أحد تجاوزه أم تنتظر عودة أخرى، تحاول أن تصلي بالغياب وتعانق ملابس طفلها، زوجها، ابنها الأسير بلهفة الانتظار، تنشد ترانيم الصبر الخالدة

التي لن يفهمها ببعدها غير أن تكون في السجن مرة، وهم خارجه ..ينتعلون الوقت صمتًا وأنت أسير تعلق أحلامك من حولك... فالزنزانة مكان جيد للتعليق وحفظ الأسرار.. فكما قلت سابقًا إن هذه الأماكن التي سبقت كانت دائمًا سرًا دفينًا لملايين القصص.

القصص ...أنا ...هو ...أنت ...ضمائر اللغة كلها ما دمنا أبناء هذا الوطن، ومادامت أحلام العودة والتحرير تراودنا..

وسؤال آخر: هل من طريق للتواصل يا ترى؟؟ يأتيك الجواب بطريقة تميم البرغوثي: "في السجن من في السجن إلا أنت..."

ومن أطراف كل ما بات أمامنا نحيك وحدة وحدتنا، فأصبحت تظلل وجود كل أسير يتجاوز عدة أعوام داخل مجتمعات الإسمنت. تعيش في غرفة مع سبعة غيرك، ولا يكترثون بك أو بالأحرى لا تكترث بهم، تعيش ولا تعيش معهم. فقط هو الانتظار وملاحقة الحرية الهاربة منك.. فوحدة وحدتك ..اغترابك عن كل مالك وفيك ومنك..

وحدتنا هي إحدى أهم ركائز الرعب الكامن فينا داخل الأماكن الإسمنتية، بلا رحمة يهجس بك في كل لحظة حلم عابر لمكان بات مشوهًا رغمًا عن كل شيء، حتى ذلك المنطق المعلق تحت أنشودة الحرمان وحبل الانتظار يشدها بسارية إلى سقف المعاناة الأزلية دون رحمة أو شفقة ...وإلى أن تغادر مالنا من باقي وجود هنا

سنرفع دائمًا أقلامنا في وجه الورق الأبيض، لنعلن خوفنا وهاجسنا من الوحدة....
هاجس الموت

كلمات تلاحق كلمات كجبال الريح وتمتد هناك، يقود الأمل بانبعاثه من شباك تلتهم القضبان نصفه، يقتلني الوجد والتفكير، فكل أحلام الأرض تغادر أبوابًا إلا حلم الرجوع حبيس الباب الأخير، فكم سؤال للوجع الممدد أمامك كمريض اختار الانتفاضة على سكون واقع يلتهم ساعات عمره دون اكتراث ...إذاً هو السجن لا غير، منهك الأمل وقاتل الفرح من شعورك الدائم بالحياة، هذه الحياة التي لم تخترك ولم تخترها...بل فرضتم على بعضكم الاثنين برحم الخيار.

شعورك الدائم في الضيق والعزلة هو شعور الأسير بالإهمال دائمًا، تتخذ قرار الانهماك في الهموم فتكتشف أن الهموم ساعات وساعات تحتاج إلى زحف آخر لحل مشاكلك، وأي مشاكل لديك! شعور كاذب بأنك كاذب لا غير، وخبر مفاجئ يداهمك عنوانه الموت، فتصبح الحياة مكان انهمار المؤجل والممكن بظرف المستحيل، وتتلقف من بعيد آهات وصرخات الألم وكأنك لست بعيدًا، فالسجن والسجين لديهما فلسفة موتٍ خاصة.

حين يأتي خبر الموت مداهمًا قاعات سكونك الأزلي، يتركك نصف عارٍ من وجودك، ويطرق باب سؤال

بقائك أنت وتسأل: أأنا ضمير حيّ أم غائب؟ ونحن فردية الجماعية لا غير؟ تختزل نفسك أمام نفسك فتتفتح أفرادًا وأضدادًا.... بكل زاوية تجلس قطعة ويهلك زخم الجدل القائم، حياة، خلود، موت، فقدان، انتهاء، أنا، هم، أنتم، نحن، عودة، تحرير، رجوع، أيّ هؤلاء جميعًا حين تكونون حيث لا يكون جسد من ترك الحياة وغادر؟.

الموت –بهذا– رسالة واضحة بأنك لن تقدر على مشاهدة من حرمت أصلاً التواصل معهم، السؤال هنا: ما معنى الموت؟ فالسجن للأسير هو موت من بقي خارج حياته الجديدة، حياة تتماثل أمامك في كل شيء، آخر شيء فيها هم البشر، كأس، ملعقة، صحن، فرشة، سرير، غطاء، مخدة، شنطة، بوسطة، زنزانة، منشفة، بشكير، ملابس. الأسرى الآخرون آخر ما تفكر فيه في عالم الأموات هذا، هناك الموت رحيل الأحياء العزيزين وانتهاء فكرة التواصل مجددًا معهم. هنا الموت هو حياة.. وآخر الآخر هو أنك لا أنت ...أنا ولا هو مع هؤلاء يرسم جوابه، إذن، أنت حر من سجنك، ميت بالنسبة للباقين خلفك.

فيصير الموت مفهومًا خاصًا للأسير عن غيره من كل ما سكن وعاشر داخل وقائعه، تهب رياح الإمكانات حول فهم ما نريد لكننا لانزال نذهب بعيدًا وراء ما لا نريد أصلاً؛ فكل حياة لها نهاية.. وكل نهاية نسميها موتًا، لذلك يعود ترتيب الأضداد سهلاً وفقًا لذلك، فخروجك

من السجن موت بالنسبة للأسرى الآخرين كونك انتهيت بالنسبة لهم.. وعلاقتك الذاكرة المشتركة من الآلام والمعاناة وبعض الفرح الذي نخلقه معًا، وأنت الخارج تواً من السجن تولد من جديد.

لم أخرج بعد من السجن لأشاهد ولادتي المؤجلة، خروجي ستزينه وعود العودة لكل ما كنت أحلم به، أو بالأحرى ما زلت أحلم به، فليس المكان سوى بعض الذكريات ووجع من حكايا خرافية التكوين، ميلادك موتك للآخرين، هذا ما يمكن أن تؤشره لمفهوم الموت مع أن الموت متشابه في عالم الاسمنت وحريتكم ...بعض الشيء.

في سنوات سجني عجزت دائمًا عن جواب لسؤال كان يلح عليّ من رحلة ذاكرة إلى أخرى: ماذا سيكون فعلي إذا مات صديق أو قريب؟ صعب المراد جوابك فهو معلق بدون طلب وحتى تخيل لما يمكن لك أن ترضى، غير أنك انتفخت من آخرك بتشاؤم لا تريد له الحياة، فأرجوحة التعابير لديك تخونك لأول مرة حين يتعلق الأمر بالموت.

بقي السؤال يطاردني بإلحاحِ جوابِه وفي كل مرة كنت أنظر حولي لرفاق المعاناة. جوابهم العملي لسؤال كان قاتلاً ...يبعثر كل قيمك وإنسانيتك خلف الحرمان والفقد.

كنا نتحلق حول مائدة الإفطار بعد أن انتهيت من

إعداده، صحن الفول الوجبة الرئيسية لكل صباح وبعض البيض واللبن.

– هيا يا رفيق ...تعال واترك الجريدة. نريد الأكل...

– آخر ينادي ...يا حبيبي مش ناقصنا غيرك يا شبل تعال.

رفيق تجاوز الثامنة عشرة منذ عدة أشهر لم تتجاوز أصابع اليد الواحدة، أخذ يبكي بكاءً شديدًا وكأنه هوجم من حيوان مفترس، نحيبه بدأ يطرد وكأنه أراد أن يغسل جسده بدموعه العذراء تلك فاكتشافه لها كان غضًا...

– ما بك يا رفيق ...لماذا تبكي هكذا؟

– الجريدة ...الجريدة...

أخذت الجريدة رحت أبحث عن جواب لدموعه لم ألتقط غير خيبة المحاولة، عدت له بالسؤال:

– ما بها الجريدة...؟

– لقد توفي جدي ...مع ازدياد شنين دموعه

أخذته بين يدي محاولاً فهم هذه الدموع مربتاعلى كتفه إيذانًا بالتضامن والتعاضد معه ...كدت أبكي وقتذاك... لكن، لم أفهم كيف يبكي جده هكذا، فأنا لم أعاشر جدّيّ قط خلال حياتي .فقد توفيا قبل ولادتي....

رفيق آخر ...يضحك بصوت عالٍ ...يا حبيبي إذا على سيدك هيك بتعمل شو راح تعمل إذا أبوك أو أمك ...ضحك ضحكة زلزلت أركان الغرفة...

قوم ...قوم كل .

تعجبت لهذا التصرف، مع أن الرفيق نفسه هذا الذي ضحك قد خسر أمّه قبل عدة سنوات وهو أكثرنا دراية بمعنى الموت داخل مجتمع الحديد. من هذه التجربة استنتجت أن الموت عابر كأي حالة عابرة في حياة الإنسان، بتمايز بين آخر وآخر، فلكل شخص وصف وتعبير محدد لفقدان أحد الأحباء أو الأقرباء، اقتنعت أنني سأبكي كثيرًا حين أفقد أحدهم، فالبكاء جيد للحزن والمصيبة.

في ظرف آخر طُلب إليّ الذهاب برفقة مجموعة من الأسرى لكي نبلغ أسيرًا بوفاة أمّه؛ فقد ترسخ في الأسر عادة مفادها: حين يموت قريب للأسير وخاصة من الدرجة الأولى، يتصل الصليب الأحمر ويبلغ إدارة السجن، وهي بدورها تبلغ ممثل الأسرى لديها، الذي يقوم بترتيب زيارة من أسرى السجن لكي يخبروه. من الخبرات المتناقلة اتضح أسلوب بمنطق فلسفة السجن في الموت أيضًا: لا مقدمات طويلة قد تساعد على توتير الأسير المراد إبلاغه، سرعة الإبلاغ مع احتضان بألفة ومواساة، ما لفت انتباهي أن الأسير الفجيع بفقدان أمّه لم ينطق بكلمة واحدة... لم يرف له جفن... تسمر في مكانه وأخذ يتلقف حديثنا ومواساتنا بأناة وصبر عظيمين. حسدته وقتها كيف يستطيع اختصار حزنه بصمت؟ حتى الدلالة التي كنت قد اقتنعت بها بدأت تتكسر أمام هذا المثال

الذي لم تنزل له دمعة واحدة، حتى أنه أخذ بكل ثقة وقوة وصلابة يقول :لا حول ولا قوة إلا بالله ...لا حول ولا قوة إلا بالله ...الله يرحمها.

وفي كل صمته ذاك ...بدأت أبكي، سالت دموعي عنه؛ فقد تخيلت نفسي مكانه، وجمع من الأسرى يخبرني بوفاة عزيز عليّ ...رفضت استعادة ما قام به قيمة لي واعتبرته جبارًا...ولكنه فعلها.

بعد أربع سنوات من سجني، نزلت لزيارة الأهل كما العادة.. بريق الأمل يقحتم يأس المكان وانعكاسه في داخلي حميمًا من الكآبة، رافضًا الخضوع لحالة السجن القبيحة؛ فالأهل يأتون لزيارتك كل خمسة عشر يومًا، وأنت مطالب بأن تعكس صور التفاؤل عنك ولهم، ليبقوا يتفاعلون بإيجابية مع صورتك تلك، مع أنك كثير الادعاء بذلك وهذا هاجس سأقدمه –أيضًا– في مساحة مستقلة.

– مرحبًا ...كيف الحال؟
– الحمد الله ...كل شيء تمام..
– كيف صحتك "ماما"؟
– تمام
– بتعرفي يا نونا اشتقتلك كثير.
– والله وأنا يا حبيبي.
– شو مالك "ماما "شكلك مش مبسوط؟
– لا والله في وحدة بتشوف ابنها وما تنبسط.
– لا في شيء احكي عادي.

– ما في إشي حبيبي.
– يا أمي هيك بتقلقيني عليك، أنت كثير زعلانة؟.
تنفجر أمّي باكية ...العوض بسلامتك، ستك توفت.

سقط الخبر كهالة عظيمة سلطت كل وبال شعاعها فوضعتني داخل دائرة الوجع بمنطقها، لا أدري وقتذاك كيف ينصهر الوجع مع الحب والألم مع الفرح، الحياة مع الموت... إرادة الأبجدية تداهمك بعكس تفاوضها معك، بدناوة الأحلام حين تغادر ذكراك وتعاند انتظارك، نهوض مفاجئ لكل سوادك فلا تعود تشاهد غير غيرك الأليم المتشائم من كل شيء، حتى ذاتك المتهالكة بفعل مفاجآت الوجع.

لا تقدر أن تعالج ذاتك حينها؛ فالأمّ أمامك تداعت بروح وجعها، ألمك يزداد حين تعرف أن الوفاة حصلت البارحة، وأنها اليوم تزورك في السجن، فتغدو حائرًا أمام لوحتين كل منهما تزاود على الأخرى بالوجع الصارخ، فالأولى جواب إمكاناتك المتخذة أمام حالة وفاة عزيز، كيف لا! هي وجدتي التي أحبّها إلى حدّ أنني لم أتخيل قط موتها، حيث وعدتني بأن تبقى في قيد الحياة حتى خروجي من السجن، لكي أقبل جبينها كما كنت أفعل دائمًا. لوحة أخرى لابنة ثكلى بفقدان أمّها... وتأتيك الزيارة تاركةً عزاء أمّها وتضحي بحزنها من أجلك، فما أصعب هذه من تلك! وما أقبح السجن حين يحضر في معاني الموت هذه! تشعره حقيرًا دنيئًا قذرًا لا رغبة لك بأي شيء

ما دامت كل الأشياء مفقودة، عدت من زيارتي والبكاء كان من نصيب قلمي، وورقة رحت أخط عليها بعض الكلمات لأمّي والأعزاء في الخارج فكتب:

(حكاية الموت)

عائد من طقس الفرح الأخير...
نازعًا عن سكون الوجع حيرته...
هو هكذا يأتي فجأة...
لا مقدمات يتلوها بساديته..
يجتثك من بستان الحياة
يمضي ..حيث لا أنا ..أنا
ولا أنت ..أنت
غادرت الحياة مودعًا إلى الخلود
إن أردت
الزهر في زمن الرماد خيانة
الحب شعور الترف إن كنت....
عاشقًا في لحظة غياب

***

يا أيها الموت اللعين غدرتني
قطف الأحباء في الغياب خيانة
بل جبن سارق الأحلام إن أردت...



obeikandl.com

لا، لن يكون وداعي صامتًا
سأغدو سنونو أطير حيث هم
أصيح بالصمت والفجيعة
عشقي لهم أسطورة أخرى...
اليوم يوم الموت ...وأنا هنا
في السجن حيث القهر أطويه قصيدة...
تزهر على ضريح الغائبين هناك
إياك ثم إياك أن تفعلها ثانية
فأنا مازلت في رحلة البعد...
وأنت تلهو بأرواح الأحباء...
إياك ...إياك ...ثم إياك...
***
خسرت اليوم جدتي...
لو تركتها لحظة حتى أعود...
لكنت قد مارست طقس عبادتي
وأخذت من نعليها قبس نور
وأشعلت مشكاة حياتي
وأنت...
مصر على ممارسة الحماقة...
فسرقت من حياتنا الأعزاء وذهبت...
أريد أن أعرف مسكنك...
لأدمر موت الموت لو كرهت...
أبغضك يا قاتل الحب والفرح

يا سالخ زهر اللوز بالربيع...

****

الموت هكذا إذنً... لذلك، لابد أن أختم صارخًا به هاجسًا يفتت عضد انتظارك المتزن في مساحات الضيق هنا...

## هاجس الذاكرة

من قمة حيرتك، فوق كل ذي نفس تلمع فكرة واحدة، ليس سواك من يقتنع بها، تهملها وتحملها معًا؛ ففي رفضك حضورها الدائم إرهاق بإثراء كل تاريخك أيًا كان أو لم يكن ، فحلمك أسيرها ...حبك أسيرها ...قلبك، كرهك، أخبارك أسرها ...حتى مستقبلك رهن أسرها، لا تغادرك ما دامت بين فاصلتين حلمًا، عند النقطة الأخيرة لنص ليس لك تلمح فكرة ليس في مقدورك ترك آثارها تقيدك من الداخل، فلا يعرف غيرك وهمك ولا يتعرى الحاضر ماضيًا في سؤالك وراءها ، تعالجها بسحر انتكاساتك وهي لا تستطيع غير إيلامك أكثر ...إلى متى؟

هذا سؤال يعالجه المحير من الشعور وبعض فتات السلوك المشبوه بانتمائه لمعسكرك أصلاً، تحتار كثيرًا وقليلاً قبل تأكيد ماهيتها الكامنة فيك ضرورةً، لا يغيرنك – إذن– قدرتها على اقتناص مكامن ضعفك؛ فهي كعاصفة تجتاحك دون أن تدري تقلبك رأسًا على عقب دون سابق



obeikandl.com

إنذار فحذار إذًا! ...ليس ككل ما تحديت مسبقًا برضاك أو مكرهًا. هي إعصار مداريٌّ ينال منك عند أول تقاطع طرق.

ها أنا أرتدي أجمل ثيابي ...أتزين لملاقاتك في ساحتي... لن تفرضي عليّ منطقك، فكل ما لنا سيبقى لنا ولأول مرة أتحرر منك واليك دون وجل. هنا على الورق ساحتي الأمامية حين أُلتحم مع من أقرر هزيمته، فهنيئًا لنا معًا... أنا بانتصاري وأنت عجزي الدائم بهزيمتك، حذار إذًا! فكل حروف الأبجدية تهددك دون سابق إنذار، أنحاز في لحظة هذيان لك ... ولكن....أيًا كان قراري ، انتصاري التاريخي ستحتفي به الكلمات وعلى طريقتها المميزة، ترفع كل أنوثتها شهوة بحضرتي، أختال متكبرًا وكأنني صرت رجل المستحيل ذاك بكل جبروته، الأخاذ، وكل دماره الهائل بمروره المزلزل حيث يطبع عليك حقده وخيبته؛ فأنت إذًا بيت القصيد..... بمقدمات عجزت عن تأليفها في مسحة حزن عابرة، تصبحين نهايات تذيل مستقبلي المبتور،أريدك الآن دون تأجيل ، سأسحقك بطرف قلمي المسكون فيها، وهي ...أنت ، و أنا مبتور بعاهة الألم المبرح الذي لن يغادرني في أول منعطف يصادفني فيك، ...آه ...وجع يمتد من أنهار، العالم يسيل متدفقًا نازعًا عني آخر أمنيات السكينة، أرضيت ذلك أم رفضته سأبقى كما لم أكن أقف على طرفي نقيض بوجع وحسرة ...لكن بفرح...

إذاً من هي هذه المتكبرة...؟
يا ترى كأي جيفة مسكون بها؟
وهل هي مستعدة للمواجهة؟
يا وجعي الأسطوري من قلاع طروادة حتى جنة الله في الآخرة.
أريد الشفاء الآن ...وهنا...

يا ذاكرة بحجم كارثة، كفاكِ عبثًا بي فأنا مازلت قادرًا على الحياة... والأموات وحدهم لا يكترثون للذاكرة؛ فقد حلوا كإشعار مؤجل للنسيان، ونحن لا نزال نحيا باحثين عن نعمة اسمها نسيان، فهل يكون نسيان شهر الخير والربيع حاملاً في بتلات زهراته حروفًا خمسة تريح دهراً كاملاً؟

فكيف –إذًا– تقترن الذاكرة في مساحات الاسمنت والحديد وداخل السجن، لها منطقٌ سار يجتاحك بروح اللقاء الأول لجسدين جائعين؟ كلّ همك الشفاء منها لمرة وإلى الأبد ...السجن مكان جيد لممارسة دورها بتلذذ وحرفية عالية، تمد يدها إليك تداعبك بإصبع، وأربعة أخرى يقتلنك كأنهن رماح مثقفة تنهال عليك فتخترقك من رأسك حتى قدميك، تستل سلاحها في وجهك وتأخذ تتبختر أمامك.. تدعوك لليلة حارة، أبادتها حياة لك وحياتها وجع ينزف بماء نشوة لا ينضب فما هي حكاية الذاكرة كهاجس يفتك بسكونك وصمتك بالسجن؟ .

ليست الذاكرة غير إمكانات قد تحدث معك مستقبلاً

بخوف العادة، كمشهد متكرر يحاول مخرج شاب إتيانه من زاوية بعيدة عن منطق المشهد العادي، يحتار ..... يضيع خلف منطقة دون، فمحددات المكان من الإسمنت والحديد ثقيلة بثقل جيل كامل تعوّد الهزيمة فأصبحت شعاره ، فتحمله إلى حيث لا يشاء أن يكون يومًا ...الذاكرة الصعبة المراس كالأمنية، أجمل ما فيها عدم تحقيقها، والذاكرة أروع ما فيها عدم قدرتك على نسيانها، تمارس طقوسها بمازوشية مبهرة تلوك بصمت وتمتع فريدين.

هنا لا تعرف طريق ذاكرتك بدون انقسامها الاضطراري؛ فقبل واقعك في السجن ذاكرة، وفيه لك أخرى لها مفرداتها واستخداماتها وطرق استحضارها، اختلافها كلونين متناقضين يأكل كل منهما الآخر، أبيض أو أسود نقيضان. وحده التقاؤهما ينتج السكون الرمادي، رماديُّك لا تعريه وتكتشفه على الورق وبجرأة قلم قرر المضي في رحلة غير اعتبارية، قافزًا فوق بؤس وألم واقع يتجرد من كل ما فيه غير الحكايا، بصورته الأخرى مكان جيد لا يحمل غير ملايين القصص التي ستحرجنا يومًا بأن نتركها ونمضي لحرية ستبقى أسيرة حضورها. فمن أين نبدأ أولاً ....من الذاكرة العذراء أو التي احترفت البغي هنا داخل الأسوار..؟

سأختار الطاهرة تلك القابعة كوحش يهجس بي، حنينٌ يمتلكني إلى حد تدمير كياني وتركي أمام نهايات صعبة كلوحة سريالية تحتاج سلفادور دالي يضيف لمسته

الجنائزية بجرأة منطقه. أتيه فيها كبحر هائج يدمر يقيني المدعي بعنجهية الإنسان حين يكون سيد خياراته.

## الذاكرة العذراء... ذاكرة ما قبل الأسر

كل ما يهمك منها حضورها المتقطع تبعًا لنشرتك النفسية، حين تداهمك نوبة حزن مفاجئة تأتيك غانية تعرض كلّ أنوثتها أمام خصيك الطارئ في وقت غير محسوب من أطراف الوجع المدروس بدقة، قد يحدث أن يكون بين كل ما تملكه من ذاكرة شعور مؤجل بالنسيان، فجأة تظهر بين ظهرانيك كاشفة عن عجز بحجم قارة بأكملها ...

أبوك الذي لا تملك له صورة غير ذاك المتكبر الصلف، لا يحمل بين ثناياه، رحمة أو حتى إنسانية تكلل جوعك لأب عطوف يقدرك ويقودك للدفع بنجاحاتك إلى الأمام، كلّ ما له فيها مسالك وعرة اقتدت إليها اضطراريًا رغمًا عن عفتي المبتورة بفعل حقده وعقدة نقصه التي شخصتها متأخرًا... لا أذكر أبدًا أنه قدم لي هدية أو عمل على شراء ما أحب؛ كان يحاول دائمًا زرع فكرة دونيتي عن أبناء جيلي، وخاصة عندما يقارنني بأقربائه التافهين الذين لا يملكون غير السمعة القذرة، وفتات كرامة تنازلوا عنها بفجيعة المتكبرين الأفاكين. إن حصلت على فتات فرح أسرقه من بين ثنايا الوقت يداهمني بعاصفة من

الضرب والتوبيخ، بحيث إنني لا أذكره بغير زعيقه، لكماته واستخدامه أساليب تفرض عليّ العزلة أكثر من أن أحاول الخروج من واقع أتذكره أليمًا ومحزنًا..

قد يقرأ أحدكم هذه السطور معلنًا كاتبها مراوغًا يحاول خلق حالة من التعاطف! قد يكون تعاطفكم بقمة الإنسانية الآن، ولكن، عليكم أن تعرفوا كيف يمكن لطفل لم يتجاوز عمره الثانية عشرة يقوم بأعمال في محل والده، وحين يخطئ بسكب مادة رخيصة تستخدم للحام تُمسك يده وتُوضع على حديد ساخن يتوهج بلونه الأحمر، لكي لا يكرر فعلته التافهة... أين كنتم وقت ذاك لتضعوا رأيًا بجانب تعليقكم الأكثر إنسانية؟ ولتعلموا أن كثيرًا من الذكريات هي تلك التي تموت شغفًا لنسيانها وموتها... يعني أخذها حيزا لا يغني فيك، فمرافقتها لك تجعلك معطوبًا يعاني نقصًا حادًا بالحب والشعور الأولي بوجودك كإنسان...

أيًا كان هذا... على هذه الأوراق أعرف بأنني حين كنت في عمر السابعة عشرة لم أحتفل يومًا بعيد ميلادي، حيث يأتيني نيساني الطلة بغير أن يكون للوحش المسمى أبي علاقة فارقة في جسدي، إما ضربًا أو كسرًا في يد ، أي طفل تريدون أن يكون هذا؟

في إحدى ثوراته الحيوانية، طردني من البيت وأحرق كل ملابسي الموجودة فيه؛ شاب يدرس في الجامعة يحلم بامتلاك العالم، يسير أسبوعين وهو لا يمتلك تبديل

ثيابه... أي مبتور سيكون؟

له مساحة من الحقد والضغينة وحاجة ملحة للانتقام، وقتذاك انتقمت بطريقتين: اجتهدت في دراستي فحققت نجاحات لا بأس بها، أنجزت مكانة بين زملائي محاولاً رسم صورة أعوض بها عن دائي به، درست تخصصًا في الجامعة كما أردت، وكانت نتيجة خياري منع نفقات دراستي؛ ما جعلني أتلقى المساعدة من أمّي وأخواتي والعمل تارة أخرى، مفتاح النجاح واستمراره ارتبط بروح تشجيع جميع مَنْ حولي على المثابرة والتحمل والنجاح.

في الذاكرة حنين للوجع المحرض ذاك، لهيب يقتاد حين أستحضر صورة البؤس والعذاب إبان تجربة السجن التي لها وقعها الخاص عليّ، مقتنعًا بقوتي وقدرتي لعدم النسيان، تمتلكك قدرة هائلة على الحفظ.

مالا تستطيع أصلاً نسيانه محفور في جسدك ببقعة هنا وكسر هناك، إحدى المرات انفجرت بوجه "الوحش" ذكرت له عشرات المرات... ضربني وآذاني بها وكلّ مشاعري تجاهه ...صاح بوجهي أنت مجنون... مجنون، بحاجة إلى طبيب نفسي؟

نعم سيدي، أنا فعلاً بحاجة إلى طبيب نفسي، يطوع يديه لتعبث في عفن الذاكرة المليئة بقذاراتك وانتكاساتي، يسلك دروبًا وعرة عله يعيد ترتيبها ليساعدني بالشفاء منها، بمنطق تفتقده أنت ليس عنوانه النسيان لكي أغفر لك،

ولكن لكي أحقد أكثر، وتعيدني لطهري وعفتي التي تهتكت على يديك المجرمتين، لا تقل إنك تندم مع أنني مقتنع أنك لن تقولها فكل ما تقوم به اليوم سيان.

في وجهها الزاخر سعادة وانتكاسة، ذاكرة تحبل بالكره والحبّ.. حبّ بروح برعم لوز أخضر يتفتح من على شجرة بعمر أحد عشر ربيعًا... قرأت في إحدى الروايات "الحبّ أجمل ما فيه الحرمان"، شعورك بالوله والحب الدائم وعجزك بموانع الإمكانات، فالحبّ باعتقادي لا يكتم عقده بالحرمان، بل أن تكون في سلوكك متمردًا فوق كل إمكاناتك إلى حدّ أنك تذهب بعيدًا خلف حصون وهم لن تستطيع تحقيقه دون قدرة فريدة على التحليق، وإن استسلمت لمبررات عجزت ستهلك أمام اللحظة الأولى.

أحمل ذكريات جميلة كتلك التي... لماذا يصعب أن تتذكر الأحداث الجميلة في حياتك؟ البؤس والشقاء لا تستطيع استحضاره!

قبل قليل كنت أقول إن لي ذاكرة فولاذية. أين هي في السعيد والجميل من الأحداث؟ هل أصبحت فعلاً مسكونا بالحقد، لدرجة عدم قدرتي استحضار السعادة ؟

نعم... هناك الكثير من لحظات السعادة التي غمرتني وكانت كوقود لقطار حياتي الذي صارع بؤس واقعه، ولو فقدها لتوقف في حفرته الأولى... لَمْحَته الأولى وما كنت أنا الآن... حانق أمام عجزي أتذكر حدثًا واحدًا... لا...لا، من الصعب مواجهة حقيقة كهذه. هل

هناك من يقدم يد المساعدة ويجاوب عن هذه الإمكانات؟

تتباعد الذاكرة من وقت إلى آخر. لا تحضر هذا المتكبر إلا عندما تستشعر لذتها بسادية مفرطة، أترك تلابيب ظهورها وألهث وراء تحديد فريدها المتكرر دائمًا؛ فالذاكرة خارج أسوار السجن يميزها انتقائيتها وحضورها الطقسي وعدم قدرتها على تملكك، سماتها الجوهرية هذه تبقيها طاهرة ونقية من رجس واقع يفتت عضد الإنسان، ويحوله هامشًا زائدًا عن الحاجة، فما بال ذاكرته...؟ كيف –إذًا– تبدو ذاكرة السجن؟ ولماذا هي هاجس من هواجس الأسر؟

## (الذاكرة البغي) . . . ذاكرة السجن وما بعدها . . .

تكرار دائم لكل ما تحلم وتعيش وتتمنى. طريق وعر ينطوي على فواصل عدة من المشاعر، تكبلك بانتقام أنثى اكتشفت خيانة حبيب لم يكترث يومًا لعشق الفراشات، المتنقلات بين خرافة وأسطورة. أي سؤال عن وجعها و حضورها بمثابة كفر وزندقة؛ التقفها –إذنً– فما زالت تسقط من عيون السماء تلك الحمامات حاملات رسائل برسم حياة؛ ابحث جيدًا ستستطيع الخروج من ثقب الباب الموصد أمامك؛ قف في سكون وارفع ياقتك معدلاً وضعًا حرجًا أصرت ذاكرتك السجينة وضعك فيه؛ ففي كل لحظات وجودك تحضر، لا تترك لك مجالاً للعيش

بعيدًا عن سطوتها كآخر ملكيات زمان عابرة تخرج من بين كتب التاريخ المتكدسة أمامك نافضة عنها غبار طلع ورود عفا عليها الربيع... أريحيني ولو لهنيهة بين الحيرة واليقين الممدد بروح بياض ورقة تقطعها مياه الزراق. السطور وهم حضورك كلماتٌ أو حروفٌ تحتاج لمبدع لغوي يركب وجودها منجزًا وفرة تعب أرهقته طليعة سنين عمرك الأسير.

"أريحي حلمي مرتين....
مرة لتعرفي كذبي ....
وأخرى لحب السهر..."

الآن... كل ما تحتاجه صدق إضافي لوصف حالة لا تغادرك حتى في أثناء كتابة هذه السطور، تهيمن عليك لا تفتك من عراوٍ ارتبطت بها رغمًا عن أنفك؛ فلا تطلبوا أن أغادر إرباكي؟!!

هنا... تسوق إمكانات حياتك بكل تفاصيلها من بشر وأشياء فقط كطقس اضطراري لذاكرتك، فارتباطك بكل ما يدور في روتينك عبر ذاكرتك إن كانت بوقعها قبل الأسر أو في تفاصيلك داخل السجون تهتك كامل كل محاولات تحررك من جبروتها، لماذا تصر هذه المتكبرة الشمطاء على أن تدير رضا حياتك هكذا؟ ودون رحمة وكأنك تستطيع تحمل حضور كل ذكرياتك مع كل التفاصيل كافة تنقشه بشكل يومي في حياتك العبثية، في طريقة شرب كأس الشاي تتذكر حدثًا ، نبض اليوم ومع

الكأس ذاتها بتغير وقته وطعمه من المريمية إلى النعناع تستحضر ذاكرتك صورة أخرى مذكرة إياك طعم كأس شاي احتسيته هناك.

في كل شيء ...أكلك ، لبسك، نومك روائح المكان صورة فتاة على التلفاز، أغنية صوت عابر في فضائك المسيج ، نوع من الخضار يحضر بعد غياب سنوات، تشبه تخلقه وهمًا حلويات تعدها بلا شيء في السجن وأخرى تنعم بأفواه أناس الحرية، عبارة لون لباس داخلي، مكسرات تقدم بطريقة مختلفة ، كلمات تلتقطها من أفواه الأسرى الآخرين...

فقط فراغ ورقة لا يذكرك بشيء غير وجع حب غائب...وهنا –أيضًا– تكذب ، فتكون ذاكرتك كذبك المستمر في كل تفاصيل التفاصيل....

إذن... ما يميز ذاكرتك هنا بغيها المستمر، تمارسه علنًا وفي حضور كل شيء، لا يخجلها حجم وتفاهة الأشياء، تدعوهم جميعًا لمعرفتها، تنزع قميص نومها الأحمر الشفاف كاشفة عن نهدين صلبين، يملآن يدي، أي جريء يكسر وقاحة اللقاء الأول بالعبث بحلمتين زهرتين ضاربتين للاحمرار في حالة هيجان لذيذة يميزهما بدورهما الشهواني؟ تلهب أعماق أيّ أحد؛ فشعر عانتها تحاك به شالات تضاهي الجوخ، لا تضعها غير الأميرات وفي المناسبات الخاصة، حين تضع شفتيها الكرزيتين تفجر مكامن نشوتك تشتعل الرغبة لامتطائها... خائبة

كل الأشياء، فسرعة الرعشة تفقدها متعتها المتصلة بشبق لا تعرفه نساء العالم، فتمارس سحرها على كل ما يحيطها بك... بابها لا يوصد بوجه أحد... الأسير وحده مذموم يقبع في زاوية عجزه، سماع الآهات ورذاذ ماء نشوتها هو كل ماله.

فخوفك من حضورها الدائم في سنواتك الأولى، وبعد تجاوز عدة أعوام هاجسك فقدان حضورها في كل تفاصيلك ، فكيف يحدث هذا التغير و لماذا؟

إن خوف حضورها في السنوات الأولى مرتبط بشكل مباشر بعبثية ذاكرتك واتصالها المرهق بالخارج –عالم الحرية– متعبة هي تلك الفترة بمقياس قيمك وحدودك هنا، تصور أمامك جبلًا من الأوهام والأعوام وأنت لا تقدر على الفصل بين حقائق واقعك المشوه وماض ترتبط به في كل شيء. هذا كله في ظل عدم توفر إمكانات العودة الفعلية إلى هناك، أي تعب سيكون هذا؟ إنه –تمامًا– كأن تخبر أحدهم بموته بعد ستة أشهر... فما بالكم سيكون وضعه؟

بعد الإرهاق واستنزاف كل طاقاتك بالعودة اللحظية إلى هناك الذي تحارب من أجل ارتباطك به كاشفًا عن إمكانات تحررك يومًا، تعود الهواجس إليك بمنطق معاكس، تخاف فك ارتباطك بالحرية ومن استحضار كل تفاصيل الحياة هناك، كأن تسأل نفسك: بماذا يذكرك هذا اللون؟ وهذه الرائحة؟ وهذا الطعم؟، تخاف لدرجة أنك تحاول جلب

ماضيك في كل شيء وفي كل لحظة تمر عليك، تشوه الذاكرة بفعل السنين، هاجس قاتل يفتك بك، فكلما سقطت أجزاؤها في محيط نسيانك الهائج غدوت حائرًا خائفًا كأن موتك قد أزف... هي كأسطورة سيزيف تمامًا كلما اقتربت من تحقيق مرادك ترتد خائبًا بسقوط صخرة الوعد الإلهي من قمة الجبل إلى قعره.

من كل عبثي المكتوب تناثرًا على هذه الصفحات أكتشف أن عبثية الذاكرة وشموليتها مؤشر جديد لوصفها بالسجن، وهذا أحد أهم مزاياها كعاهرة احترفت البغي هنا، تفصيلية لدرجة تتعبك لا يسقط منها أي حدث قد مر عليك في أماكن الضيق، أشعر أن هذا جواب لسؤال طرحته حول الحضور المؤلم في الذاكرة بشكل يفوق أي حدث آخر! المهم، أنها تفصيلية فلا تكاد تنسى حدثًا أو حتى موعد نقلك من سجن إلى آخر، وخاصة أن إدارة مصلحة السجون لا تبقيك في مكان لتقتل نزوع الاستقرار لديك، أو حتى فعل فلان هذا وماذا فعل فلان في وقت آخر، كل ما مررت به مخلد بأدق التفاصيل.

وهاجس الذاكرة يتمثل في عدم قدرتك نسيان السجن وتفاصيله وكأنه سيعيش معك بقية حياتك، وحتى بعد انقضاء الأعوام الثمانية! فتكون مبتورًا بعاهة التفاصيل ومتجاوزًا فكرة السجن من عيشها بمحددات واضحة إلى استباحة السجن لمنطق حياتك. فهل سيكون هذا؟

نقيضها خوفك الدائم من فقدان عوالم الحرية

كذاكرة ضرورية في كل ما تريد، هاجس يوازي هاجسك الأول، وهذا التصارع بين الهواجس في تناقض منطلقاتها وأضدادها الكامن فيك، يفتك بوعود قد قطعتها على نفسك... فما العمل؟

obeikandl.com

# هاجس الصدق والكذب

ليس سهلاً الوقوف أمام المتناقضات دون قدرة الانحياز أو التفكير حتى بأطرافه؛ يشدك كل نقيض بصفاء وجوده العابر، تلتفت بين بين لا تجد غير استمرار تدفق مشاعرك المعوجة أصلاً، كزائر غريب لمتحف اللوفر لا هدف لك غير العبث بإبداع الفنانين عبر التاريخ، وفجأة يكتشف أنه عاجز عن ترك أثر في الدنيا غير اسم تافه وبعض أحلام تتناثر هباءً بين مستحيل وممكن، يرتد عند أول اطلاعه للوحة وقعت باسم عبقري كباخ أو دافنشي، يعرف أن عجز انتمائه لقطيع الإنسانية داء سيبقى يلاحقه حتى برزخ آخر.

تحتاجه في كل شيء... فإن الأشياء تفقد معناها إن غاب عن حضورها الضروري... هو الصدق، يدفعك إلى حد اعتراف شبه فظ بأنك نبي القرن الجديد، اخترت بإرادتك حين قررت ممارسة الصدق، فكل ما يليه أو دونه إشاعة مقيتة كقزم حجم فعله كقيمة إن وجدت في كل البشر، انهيار مملكة السماء على قاطنيها فما عساهم فاعلين بفقدهم صفة الألوهية، لا تعبث إذًا بمصائر غيرك من الأحداث، بل اجعل كل ما فيهن لك وحدك متحررًا من عقدة النقص لتوسع كرهك عزلةً وهجرًا، فكلما ابتعدت عن الحقد والضغينة استطعت الارتقاء أكثر إلى حيث تشاء أن يشاء لك كل شيء.

مقارناتك بين عالمين هدف يأخذ بالكبر كلما طويت صفحة في البحث عن الذات، تمتطي وهم حبك للأشياء علك تهرول وراء دمامل ستبقى تقيح ألمًا ووجعًا طالما عبرت مكانِ التشوه هنا، يقف كل ما تريد أمام عجزك ليسأل سؤالاً واحدًا: كيف هي الفوارق بين المفاهيم؟ الصدق والكذب، أي جوهرين متناقضين يفصلان عوالم مختلفة بنيت الأول بفعل تطور التاريخ حبوًا، والآخر بنظرية سادية لكسر إرادة البشر وتشويه إنسانيتهم؟ فما الغريب بينما تتداخل العوالم بمنطق الثورة والنضال؟

حياتك خارجًا تقودها بمحض إرادة وفعل الضغط الاضطراري من عوامل شتى كحب أو مأساة أو حتى شعور بالنقص، لكنك في خضم كل ذلك تبقى سيد الخيارات بسلوك طرقك، فأنت وحدك والقمر تحددان عودة دربك أيًا كانت، صوتك الخلاق المبدع يحدد لك تصرفاتك كما تشاء، لا قوة خارجة عن إرادتك تحدد لك عبثك في الأيام، فمنذ أن تولد حتى تغادر هذه الحياة بفعل انتهاء دورك الضروري فيها، لك وقت تهدره كما يحلو لك فيما تشاء، لهذا لا يحدد مسلكك غير بيئة تنعكس بك، وتعكس بها ما تقوم به فعلاً حيًا لا تدفع ضريبته غير احترام وحب الناس لك.

في حياتك لا تهتم كثيرًا لمن يحبك أولاً، المهم أنك وحدك قادر على رسم ما تريد، ولذلك كل شيء يأتي عفويًا لا ادعاء فيه. فمن ذا الذي يجبرك على التصنع أو

الادعاء؟ فما يهمك رضاك وحدك ومن ثم تفكر بالآخرين، لذلك يكون مؤشر الصدق والكذب لديك واضحًا له أن يمنحك الكذب، كذبة بيضاء كذبة سوداء أو حتى رمادية أنت تختار وقت ( الباروميتر) القيم لديك، حتى تصبح صورتك أمام ذاتك نقية، وكم يلزم الإنسان من شعور غير الرضا عن الذات؟

أعتقد أن ما ينقص الفاشلين في حياتهم لينجحوا هو ذلك الشعور المحفز (الرضا عن الذات)، ما إن تمتلكه حتى يفجر براكين إبداعك، يقودك بعفوية تفصيلية ودقيقة في أوعر المسالك وأخطرها، علاقة طردية بين كل مشاعرك ونشوة أنك واثق بذاتك. أما أولئك الذين يلتزم الفشل حياتهم كمؤشرات على إحباط يصل بهم حدّ فقدان يوصله الحياة فينقصهم الوثوق بذواتهم التي تضعضع الملكات المتباينة من شخص إلى آخر، فكرة التفرقة بين هذا وذاك وفقًا لموهبة مبعوثة من السماء أو حتى تمايز عقلي كقاعدة للتفرقة بروح العنصرية، كلها مؤشرات يندى لها جبين الإنسانية، آمنت دائمًا بفكرة رضاك عن ذاتك سر إبداعك، حيث لا تستطيع النجاح دون حصولك على الأرقام السرية لولوج مكامن القدر الخارقة لديك، سريتي سأفتحها هنا على هذه الأوراق دون عبث؛ فقد كانت حروفي السرية مكونة من ستة حروف تكون كلمتين هما صدق، كذب، استخدمت حقل تشفير ليس صعب المراس ولا حتى بطيء الفهم، فانفتحت أبواب عانيت من انغلاقها

بداية حياتي وارتاحت كل إراداتي بعد ذلك.

صدق كذب... هما كلمتان تتحكمان بحياة صاخبة قبل دخول عوالم الاسمنت؛ ففي السجن لك منطق مغاير عن كل ما ذكرت سابقًا، حين يغلق باب أول زنزانة عليك تدخل برزخًا جديدًا جدًا منطلقاته مختلفة، فتحاول اكتشاف حدودها، بعد مضي الوقت عليك وأنت تعيد تعريف واقعك تتكشف لك خبايا عجيبة وغريبة، بين انقلاب مفاهيم وعدم صلاحية أخرى، حتى إن النزاع بين قديمك وحديثك من القيم يأخذ وقتًا ليحسم صلاحية هذا من ذاك، وتأخذ زمام المبادرة لترتيب حدودك الجديدة بوعي قائم على دورك الذي اخترته سابقًاعندما قررت الانخراط مع قناعاتك في رحلة الدفاع عن كرامتك وحريتك وشعبك، فأنت لا تملك خيار النزوع عن انحيازك، فكم ستبقى مقتنعًا بشعارك "إن كان هناك ما يمكن التضحية به فهي الحياة وليس الشرف؟" فتبدأ عملية الإحلال الجديدة لقيم ومسلكيات تقودك نحو "أنا" غير تلك التي عهدتها، وفقط بدأت أكتشفها مع هذه المغامرة في قيء السجن ورقًا، لأغلقه أمامي بعد الانتهاء وأرصد حدود أنايا المقصودة بفعله.

سيبدو دائمًا تأكيد اختلاف مفاهيم السجن اجترارًا يطوق رؤية ما أحاول إظهاره في ثنايا الأوراق، لكن ثقل التجارب وانحلال خيوط وهم الحقائق مرهق كخيبات ساحقة لها تأثير بحجم كارثة، لذلك، سيصعب علي دائمًا عدم التركيز بوخز الضمير لدي، وخاصة حين يكون

الأمر متعلقًا بجملة تفصيلية لمفردات واقع تَؤَلُّه دائمًا بفعل شهادات الوطنية والتضحية، ووجهه الآخر مليء بالدمامل والقيح المقزز باعثًا موجة تجتاح النزعة الإنسانية لدى مبشري الأنسنة في هذا العالم.

في أيامك الأولى داخل السجن، تقف متوهمًا حذرًا من كل ما يحيط بك، حائرًا لاختلاف عوالمك. فجأة أنت أمام اضطرار العيش مع أناس لا تعرفهم، قد تتناقض معهم اجتماعيًا ونفسيًا. الممر الإجباري للواقع الاجتماعي الذي يقدره مكان الضيق هذا يرخي بظلاله على الكثير من تفاصيل رؤيتك للحياة بشكل شمولي؛ لا حدود للبشر معك، تتكسر أمامهم كمرآة تعودوا الابتعاد عنها لتوضح لهم صورتهم، وإن اقتربوا منها محددها للرؤيا الخاصة بهم تمنعهم، لأول مرة في حياتك تقتسم كل شيء مع ساكني المساحة المشتركة، صمتك حديثك، أحلامك، ضحكاتك، حزنك، أكلك، فرحتك، خيباتك، عجزك، جبروتك، هدوؤك، حتى ذاتك، تتبعثر في حضروهم فلا يمكن لك ترك البشر الموجودين في كل شيء وتعيش بمفردك وهنا يتجلى مفهوم الإنسان ككائن اجتماعي.

حيث يكون كل أركان مساحة الضيق تعبيرًا واحدًا للجسد، لا يمكن تجاوز التأثيرات المتبادلة بين الجميع، في أيامك الأولى تبقى متأثرًا بمحددات واقعك خارج الأسوار تفعل ما يحلو لك، تضحك متى تشاء وتحزن كذلك، تتكلم بما تشاء ومع أي شخص كذلك. تفعل ما يحلو لك دون

الكثير من الحسابات والمحددات، فقد تعودت أن تكون صاحب إرادتك والأهم من كل ذلك أيضًا. البشر أنت تختار تقريبهم وإبعادهم عنك وفقًا لمعايير أنت وحدك واضعها، فمن يجرؤ فرض الأكل عليك مع شخص لا تحبه، أو أن تسكن مع شخص لا يربطك به أي رابط، أو أن تجامل إنسانًا حدود تفاعلك الكيميائي معه صفر.. ؟ بالتأكيد لا أحد؛ في السجن كل ذلك وأكثر، تستدخل خصلة جديدة اسمها التكيف مع الواقع بكل ما فيه من أشياء وبشر، لتصبح هذه أهم سمة من سمات الأسير كدالة لمروره داخل أروقة المكان.

في إحدى الأيام كنت جالسًا في باحة السجن (الفورة) أنظر لدائرة انتظام السير، فهنا حيث الضيق يغزو كل شيء يسمح للأسير بالخروج للفورة مرتين يوميًا؛ مرة صباحًا ومرة مساءً، وأخرى بعد الظهر، وبما أن الأسرى يعيشون داخل أقسام يتسع القسم إلى ما يقارب مئة وعشرين أسيرًا، وقد يصل في بعض الأحيان إلى مئة وأربعين، تقدم إدارة السجون على تقسيم أوقات (الفورة). بحيث تصبح فورتين صباحيتين وأخريين مسائيتين، فيقسم الأسرى، وفي بعض الأحيان نحقق ما ندعيه إنجازًا بحيث يسمح لنا إخراج نصف عدد الأسرى المتواجدين في القسم الواحد على (الفورة) دون جدول، وهذا قد يعطي الأسير مكنة الخروج عدة مرات للفورة.

إذن، ما هي هذه الساحة التي نطلق عليها اسم

(فورة)، هي إحدى أهم المرافق التي تحدد امتيازات سجن عن آخر؛ فهي من أكثر القضايا إلحاحًا على الأسير؛ فمثلاً هنالك سجون لا تتعدى مساحة الساحة بضعة أمتار، لذلك يتكدس الأسرى فيها وقت الخروج، فيصبحون كأسماك تعرض في بركة الزجاج للبيع، وهنالك سجون أخرى تمتاز بأن (فورتها) أكبر، بحيث تسمح للأسرى بأخذ حرية في الحركة أكبر من غيرها، لكن في تلك أو هذه يستخدم الأسرى تكنيكًاا مهما كسمة لهذه الأماكن، لينظموا عملية سيرهم بحيث توفر إمكانية السير للجميع دون أن يتداخلوا أو يعطلوا على بعضهم؛ فعند فتح أبواب السجن وخروج أول أسير ينتظم في السير بشكل دائري وهكذا ينضم للدائرة جميع الذين خرجوا للساحة بهدف السير؛ ما يوفر مرونة السير باتجاه واحد لأكبر عدد ممكن من الأسرى.

المهم أنني أخذت أتابع الأسرى في سيرهم . طبعًا أنا منهم . لفت انتباهي عدة قضايا من أهمها أن الأسرى لديهم القدرة الهائلة لخلق مادة تفاعلية في الحديث تغطي أوقاتهم، فسألت نفسي: متى كنت أستطيع الحديث مع شخص مدة ساعتين وقد تكون أربعًا يوميًا بتكرار غير محدد في الخارج. والله ما كنت أفعلها حتى لو أهدوني تاج كسرى، هذا من جانب. ومن جانب آخر سيرهم الدائري بعكس عقارب الساعة؛ للأمانة هذه ملاحظة أسرّها لي أحد الرفاق ونحن نسير داخل دائرة الوقت تلك، وحين

دققت في ملاحظته اقتنعت بها . فسألني: لماذا برأيك؟ قد يكون الأسرى وبشكل عفوي يحاولون محاربة الوقت (أي الزمان) فهو عدوهم الأساسي هنا داخل هذا المكان، وإن لم يكن الجبار الفاتك الذي يداهمهم وهم نشوة صمودهم وحوراهم مع الإسمنت والحديد، فهنا لا تشعر بالوقت كما الخارج تمر السنة لتأكل سنة وأخرى، وكأنها لا وزن لها في الحياة، في عالم الحرية (المحدودة) السنة بمثابة عمر كامل أعود بذاكرتي حين أنظر المقارنة هذه: أُف...! كم كنت أنجز من أشياء في سنة واحدة، وكم كانت طويلة كحياة كاملة! أشعر بالتغير الرهيب لقيمة المفاهيم بين العالمين، أما ملاحظتي الثالثة، فقد حدثت عند دخول أحد الأسرى من باب القسم (قادم جديد)، هكذا يصطلح عليه طبعًا قد يكون من الذين أمضوا سنوات داخل السجون لكن هو جديد كمعيار للقديمين في القسم، هذا عند دخوله يندفع الأسرى للترحيب بيه وسؤاله عن أخبار يحملها من سجن آخر أو من سجون عدة على اعتبار أن ( البوسطة) هي محطة إذاعية متنقلة للأسرى. إن سألني أحد ما هي (البوسطة)، فهذا سيكون هاجسًا أقدمه –أيضًا– بين ما أقدم هنا . يحملون أمتعته للغرفة التي تحدد بداية وفق التنظيم الذي ينتمي إليه، وبعدها للفراغ الموجود في الغرف، وإن توفر المعياران سابقا الذكر ينتقل للاختيار وفق محددات شخصية كالمعارف والأصحاب وأبناء البلد، ما يلفت النظر من كل ذلك انضمامه السريع لحلقة السير

في الساحة وتنقلاته بين مجموعة وأخرى، تذهلك قدرته على التكيف مع الواقع الجديد هذا؛ أخذت أراقبه بشكل يومي مستخدمًا إياه معيارًا تمثيليًا ليساعدني في كتابة هذه السطور، أثبت صفة التكيف وإنشاء علاقات مع الواقع المحيط به ليس وحده ولكن جميع من حاولت تتبع عدة أمثلة والجميع أشادوا باتجاه هذه الصفة.

لا مكان لمحددات الحب والكره، الكيمياء بين البشر، هذا تود التعرف إليه وذاك لا، دوائر علاقات تقسم محيطك كيف تشاء... هنا يتبدل الجوهر لديك حيث تتحول نحو الادعاء بالتصرف خوفًا من العزلة والكره، كيف؟ حين تأخذ قرارًا بأن تضع حدود الوهم من حولك لتقسم البشر وفقًا لرؤيتك الخاصة.. تفقد قدرتك على التواصل مع من حولك فتتهم بالغطرسة. لذلك، بشكلك الآخر تدعي بسلوكك في كل شيء، حين تحزن لا تظهر ذلك أو تغضب كذلك، أو إن كرهت أحدهم وحتى لو لم تستطع أن تجد قواسم مشتركة بينك وبين مشاركين مساحة الغرفة المتوفرة، تفقد مصداقيتك في ذاتك فتغترب عن نفسك وتنعزل عنها؛ تفقد صدقك الفطري مع مرور السنين... وأكثر.

بعد مرور سنوات طوال داخل السجن، ومع استمرار ممارسة الادعاء والابتعاد عن صدق السلوك والمشاعر، يظهر سلوك غريب اسمه الشك والريبة من كل شيء. هذه الصفة تجمع كل من عاشرتهم، وقد مزق

السجن عفوية وطفولة سنواتهم بعد انقضاء أعوام طوال، فمصطلح (الأسرى القدماء) أصبح يميزهم ببعدين: الأول إنساني نضالي بأنك تقف أمام حالة فريدة قادرة حين يطوي الإنسان عشرين أو ثلاثين عامًا داخل السجن متمسكًا بقناعات قادته إلى واقع أليم كهذا. كذلك يظهر أمامك سؤال: ماذا فعلت هذه السنوات بالإنسان داخل السجن؟ تكتشف البعد الثاني بأنهم قد تشظوا إنسانيًا واجتماعيًا؛ فمثلاً بين محالات الجمع عكس صورة طيبة تتشوه البراءة فيغدو تصرف الأسير مشكوكًا فيه لدرجة مس طهارة التفكير الاجتماعي بالبشر، كأن كل شيء معد بشكل مسبق، ولذلك قد تؤدي كلمة إلى كارثة بين مجموع الأسرى، أو أن يؤدي نقل شيء تافه من مكان إلى آخر لتفجير موجة من الخلافات، تطيح بصورة التأثر، وقد تدور سنوات عدة؛ فمرة سألت أحد الأسرى القدماء عن سبب فتور علاقته مع أسير آخر. طبعًا لن أذكر الأسماء لتجاوز أزمة علاقة مع أحدهم. أجابني: في إحدى المرات قبل عدة سنوات قُدم الأكل في الفورة لمجموعة من الأسرى ولم يدعوني أنا أيضًا، طبعًا! لكم الحكم.

من بين ثنايا هذه التجربة اقتنعت بأن الفوارق بين البشر هنا لا تقوم على فاتورة نضالهم، وكم سنة قد حكم عليه أو ما هي مرتبته التنظيمية، بل ترتكز على التمايز الاجتماعي وقدرتك على خلق حالة من الاحترام لك كإنسان فرد قبل أي شيء.. لذلك كله، يهجس بين

الصدق والكذب.. فأنا أدعي في تصرفاتي كثيرًا ابتغاء مرضاة الغير هذا ما كنت أرتضيه خارجًا؛ أثثت حياتي بكثير من الكذب على حساب الصدق.. وسؤالي هنا بين ثنايا هذه الأوراق: ما الفائدة من هذا؟

أريحيني أيتها الكلمات.. لقد سئمت الدور الذي أصر على تأديته وهو خلق قناع لا أريده، إلى متى سأبقى داخل مساحات الإسمنت هذه وأمارس مالا أرضى ؟ وإن كان لي موعد مع الحرية، فهل سأعود إلى عفتي الأولى بوعي قيمتين كالصدق والكذب؟ وكل أولئك الباقون بفعل المؤبد الذي يرزحون تحت ثقله: إلى أين سيصلون بوجعهم؟ أخاف.. فعلاً أخاف! فهل سيخرج السجن إن واصلت كتابة عبثي هذا؟ هواجس تداعب أخرى لا ترحم، ما دمت أسيرًا تكبلك قيود الضعف والخوف والحرمان والآلام.

## هاجس الألوان

بين هزيمة وأخرى تقف حائرًا تداعب أيامك الذاهبة دون رحمة إلى حيث لم تشأ يومًا، على مهلك ودون اكتراث تداعب هزيمتك الفائتة علها تداوي مخاض هزيمتك اللاحقة بأمل المدافع عن قرية سقطت قبل احتلالها أصلاً. عندها لا يعود مهمًا أي شيء؛ فالوقت عنوان الانتكاسة ومؤشر وقوعك بمنطق آخر: "ارفع رأسك فأنت مهزوم"، رسالة تعودتها رغم كل شيء، حيث لا يعود أمامك غير حقيقة

الهزيمة، في قناعتك هذه لا يعود لك منها غير السكينة وقاعدة انطلاق لن تتغير أبدًا

السماء دائماً حائرة؛ فمن غيمة عابرة إلى أخرى تجتث الشمس بمنطق عفوي وهكذا، إلى أن يهاجمك فصل لا تعرف فيه غير المطر، في دفئه حيرة أبدية وسكون مخيف، ترتجف أركانك حبًا ورعبًا. ترنو كل الذاكرة لتحمل لك عناوين ماضٍ تختار دائمًا الهروب منه وإليه؛ فأنت لاتزال قابضًا على سويعات لا تدعها تهرب منك لتختبئ في بتلات زهرة ربيعية تنبت على حواف نسيانك، ترتحل دائمًا عبر نفق الضياع الضروري كمقطوعة موسيقية تلحن حلمًا بعيدًا.. أكثر مما تتصور أنت.

كيف تميزها إذن؟

عبر كل مالك ولهم، بوهم تصوغه عبارة تداعب الحيرة مرة وصيام قلم أبى الكتابة مرات، فكيف إذن؟ ليقل أحد لي... تائه بأكثر ما لك حتى، مشاعرك رمز الأحجية الإغريقية فلا تدعها تفلت هذه المرة، حزن قد يكون ولكن أوهام أحزان مع خليط فريد من التردد وبتر الإمكانات أحيانًا، باكتشاف ضالتك تعود لتمسك بروحك مرة وإلى الأبد؛ فإمكانات الضياع تهبها لذات لم تتعود الهروب، فكيف إذن؟ سؤالك قاتل كريح تزمجر مختبئة خلف باب حلم قرر غسان كنفاني إبقاءه حاميًا للأوهام، شئت أم أبيت قادرٌ على كل شيء من دونه فيه حيرتك المطلقة

كسؤالك وهكذا تبقى إلى حين.. حتى تعاود ترتيب مفرداتك مرة أخرى بمنطقها هي...

الألوان.. مسلك وعر للذات؛ فمنها تستمد حياتك المتفاوته بين خالداتك تميزها بروح بديع قرر طبعها "كوداً" مرمزًا لا تفك شيفرته أعتى أنظمة التشفير، فهنا... هناك وبينهما مستحيلك معلق خلف قرائن عدة، أحببتها أم لا. لا شأن لك غير التفكير والتمييز، فهنا الألوان لها حضور وهناك آخر بعفة أكثر/ وفقط أنت أداة الكلام الواصف في حالة كهذه فما أصعب دورك، كصعود قمة شجرة خرافية آخرها تعلق عملاق طيب القلب لا يحتاج لغير رفيق يناغي له وحدته... فهل تستطيع؟

وهي تبقى بنفس المنطق... في السجن الألوان تناغي أمنيات وأحلامًا، بعض ذاكرة ترتحل معك في سنواتك من سجن آخر، فكل لون ذكرى وموقف كما لكل رائحة كذلك، فتبتدع منطق التذكر منطلقًا من الألوان كزاوية أخرى للبناء وذلك بكذا... وآخر، حتى تصطدم بالبني، كم أحببتك أيها البني لما تحمله من انتماء تفرضه طبيعة الأرض بلونها، قبل الأسر عندما كنت أرتدي البني قميصًا أو بنطالاً أشعر بأنني تماهيت مع الأرض وكل ما تحمله من مزايا لشعب عشقها حد التضحية... بعد تجربة الأسر ولما تلاقيه من أضداد تتمحور الكثير من المفاهيم والمشاعر من ضمنها الألوان.. كيف هذا إذن؟

بشكل عام تنتقل الألوان كمعبر مكثف لحالتنا

النفسية إلى انتقائية عبثية؛ فقد لفت انتباهي ما قاله أحد أهم الأطباء النفسيين حيث يستطيع قراءة الحالة النفسية كمحددات عامة عبر الألوان التي يرتديها الإنسان ويواظب عليها، لهذا ننظر إلى الشارع لنشاهد نشرات البشر النفسية، فشارع يخط بالألوان يستطيع حَمْلَ مشروع عبر تناقضاته بروح التفاؤل، أما داخل مساحات الاسمنت والحديد فتضيع هذه الميزة لما تطاله يد السجان من عبث إجباري بألوانك لدواعي أمنية، فمن جهة ليست كل الألوان مسموحة الدخول عن طريق الأهل، والأهم بما أن اللون البني هو الزي الرسمي لمصلحة السجون فقد أخذت تحبذ انتقال الأسرى نحو توحيد ألوانهم حتى عبر ما يدخل لهم من ملابس. في أحد التعليقات الممتعة لأحد الأسرى "ردائي الداخلي الوحيد لم يعد بني اللون"، فعلا عندما حاولت التركيز أكثر كانت معظم أسمالنا بنية اللون، وهذه حالة خصبة للأطباء النفسيين كي يرصدوا حالتنا النفسية ؟...

كما أن الألوان تأخذ مكانات مختلفة فمن لون آسر تشتريه كيفما طالته يداي قبل هذه التجربة، أجزم بطلاقي البني طلاقًا بائنًا بينونة كبرى، واضعًا إياه في منزلة الأعداء؛ ففي تعليق مؤلم لأمّي على الزيارة: "كيف منظرك وانت مش لابس البني؟" انتقل هذا اللون أمامها مستفزًا مشاعرها، كأنه أخذ من ابنها بعض ما فيه. بعد عدة سنوات يأخذ منك البني الكثير في حياديته، مزيج من

الأحمر والأخضر كم تشتهي أن يكون لديك القدرة على تفكيكه مرة أخرى، لتعاود النظر إليه بمنطق مختلف أيضًا كأساسه، فالأحمر يعطيك نوعا من التحدي، الأخضر يضيف لك الكثير من الطمأنينة.. والبني عدد نهائي.. لكن.

حتى الأسر له عقلية مختلفة؛ فقبل فترة وجيزة انتقل البني من لون مكروه بحضوره الثقيل بكل تفاصيل الحياة هنا، إلى لون أشعل جذوة صراع أوصل الأسرى إلى حالة من الثوران، عندما قررت إدارة مصلحة السجون استبدال الزي البني بآخر جديد برتقالي اللون، حدّ التلويح المفتوح كما يفضل الأسرى تسميته "الاستراتيجي" أي "إضراب عن الطعام" فهل يعقل أن يكون قادرًا على أن ينتقل من ضفة التناقض المنفر إلى محرك العمل النضالي الأول؟

عندما كنت أسمع عن مفهوم إضراب الطعام قبل هذه التجربة كان ينتابني حالة من التنازع الغريب للمشاعر بين شخص يشتعل عنفًا في سبيل محطة من النضال يخوضها أحد مكونات شعبنا وحدهم في مواجهة العدو مباشرة، نقيضه سؤال كان يلح عليّ من فترة إلى أخرى: كيف يستطيع الإنسان مقايضة حياته بمطالب كتلفاز وفرشة وكما الألوان أيضًا؟ هذا السؤال أجبت عنه بهاجس الهواجس باكرًا من هذه التجربة، ولكن قضية الانتقال للبني من لون الكره المتفق عليه إلى لون لاحم للنضال والإرادة. هذه المرة فتح الباب أمام السؤال مجددصا، وإنْ

في منطق مختلف.

حين احتد النقاش داخل الأسر حول ضرورات النضال ضد سياسة إدارة مصلحة السجون، كان الخارج يعج بسؤال عقلاني ومنطقي: "الأسرى موجودون في سجون إسرائيلية لهذا يرتدون الزي الرسمي لها. فلماذا يرفضون ارتداء البرتقالي؟" يبدو طرح هذا السؤال منطقيًا إن لم تكن قد خضت تجربة الأسر من قبل، ولكن لتعرف الإجابة سأطرح جواب منطق الأسر بدون الشعارات التي لم تقنع أحدًا لدرجة السؤال: كيف تقتحمون وزارة الأسرى بقضية الزي إلى درجة الانتقال لمراهنات مالية وأبعاد أخرى؟.

في السجون لا منطق يحكم غير منطقه... لذلك لم يكن السبب الزي البرتقالي، حيث وصم بالإرهاب وهم هكذا يريدون تأكيد هذه الصفة علينا، دائمًا هناك منطق مغلوط نحن –الفلسطينيين– ندير فيه معاركنا حتى لو أنها عادلة ومشروعة؛ فننقلها من قضية الحق الأول إلى مرتبة أدنى، لقد حدث فعلاً أن دار نقاش فعلي حول الجدوى من هذه المعركة وفق المنطق السابق، ولكن الصوت الأعلى الذي حسم خياره تجاه رفض البرتقالي، فأصبح هاجسًا فتك باستقرار السجون فترة لا بأس بها من الزمان، فبعد كون القرار جماعيًا برفض قضية ما هنا يصبح التطبيق فرديًا؛ فقد حاولت إدارة سجن عسقلان فرض البرتقالي على الأسرى في رحلة ذهابهم إلى المحكمة، فتطورت الأمور

إلى معركة اشتبك الأسرى فيها مع السجانين؛ ما أدى بهم إلى إلقاء ثيابهم؛ بقوا دون ثياب.... ما اضطر الأسرى كافة لأخذ خطوات عدة كان أهمها تبليغ الإدارة بأن هناك قرارًا بضرب كلّ سجّان تطاله أيديهم، فسرعان ارتدت إدارة السجن على أعقابها خائبة، وأقرت بعدم استخدام العنف لإرغام الأسرى على ذلك.

من ناحية أخرى عندما اشتد النقاش في بدايات قضية اللون، ظهر هناك وجهة نظر ترفض، وأخرى لا تكترث. للأسف! لم يكن هناك مكان للتفاعل بين الفكرتين. الأولى امتطت منطق البطولة والوطنية والأخرى ألبست ثوب التفريط والخيانة، تفاجأ عندما يحدث أن أسيرًا أمضى خمسة وعشرين عامًا وأبدى وجهة نظر: "أنا لا أكترث بالألوان، ولطالما قامت إدارة السجون بتغيير الألوان. يأتي العديد من الأسرى بتهمة العمالة، أو إن كنت لطيف التعبير: "انه مهزوم من دواخله"، مع علمي أن حقيقة طرحه عقلانية؛ فما الذي كان ينقص معركة الألوان وما هي حقيقتها؟

لا بد أن يكون واضحًا أن منطلقات الرفض التي ذكرها الأسرى عمومًا لم تكن مقنعة، وحتى لم تكن كلاحم وجامع لإرادات الأسرى بشكلها الكلي، لذلك، كنا أمام مرحلة خطيرة ظهرت تجلياتها عندما قبل أحد السجون "جلبوع" إدخال الزيّ، وأخذ منطق المناقشة –أيضًا– بصورة خاطئة، حتى وصول حالة التواطؤ غير المعلن

مع إدارة السجن إن لم يكن مقصودًا؛ فمثلاً أن يكون هناك قسم من بين خمسة أقسام داخل السجن يرفض إدخال الزيّ؛ ما أدى إلى وضعه تحت وطأة عقاب الإدارة وباقي الأقسام لا تكترث، حدّ وصول أن يكون هناك غرفة واحدة داخل قسم يتكون من خمس عشرة غرفة، ترفض الزيّ فتعاقب وباقي الغرف لا تكترث، هذا مظهر خطير جدًا أوصلته حالة تفتت الحركة الأسيرة، وبالضرورة عدم إدارة الحالة بشكل عقلاني، لذلك، ما نقصنا وقتذاك الاعتراف بالحقائق. صحيح أن إدارة مصلحة السجون هي صاحبة القرار بإلباسنا أي لون تريد، ولكن الحقيقة الناصعة أن القضية صراع إرادات؛ فكما لمصلحة السجون إرادة ومنطق، لنا كحركة أسيرة إرادة ومنطق أيضًا؛ لن نقبل أبدًا تجريدنا إياها، لذلك كانت قضية "الزي البرتقالي" بمثابة جامع ولاحم إراديّ للحركة الأسيرة، بعد أن نالت منها الأيام لدرجة غياب هويتها ومنطقها بفعل سياسة واضحة من جهة، وبفعل اقتناعنا بالحركة الأسيرة كونها خاصًا من عام "الحركة الوطنية الفلسطينية"من جهة أخرى، والأخيرة تعيش أسوأ أيامها في ظل الانقسام وغياب البرنامج الرافع لأدائها، ولهذا انعكس ضعفها على الخاص فترهل- أيضًا- وبهت من جهة أخرى.

إذن، منطق الرفض أساسًا هو الجامع للارادة، فأصبح الوسيلة والهدف. أجزم لو أن هذا المنطق الذي ساد في نقاشنا حول هذه القضية لما وصلنا إلى الحالة

المتردية، وما انعكس منها جروح بالغة ومسيئة عمقت حالات التشظي والتباعد بين عموم الأسرى "وظلم ذوي القربى أشد مضاضة" حيث تصل الحالة درجة مسّ الجانب الوطني. سبب وجودنا هو ذاته.. فكيف بات من سبب وجوده بالأسر الوطنية فاقدها وخائنها؟؟ أعتقد أن هذا السؤال الحاضر الغائب عن وعينا إلى أن نعيد النظر بالكثير من الصراعات والتوصيفات- لا بد لي القول- ليس سهلاً علينا أو على أي أحد منكم، بأن على من لم يخض تجربة الأسر أن يكون جاهزاً لكي يوصم بـ "غير وطني" -طبعًا كتعبير مخفف هنا- لمجرد رأي أو موقف. هذا من أهم الهواجس التي سأطرحها بين السطور تحت عنوان" هاجس العمالة". إلى حينه سيكون أمامي العديد من الهواجس التي تعرض ذواتنا للتشوه هنا. حيث لم أعد قادرًا على تحديد مُكْنَة الشفاء منها بعد هذه التجربة، وسأبقى معلقًا بين شعورين ولحظة، مازلت متأكدًا بأنها ستكون من وقع خاص وفريد لدرجة عدم استطاعتي مطالعتكم بها بعد قراري المضي قدمًا بهذه التجربة الكتابية قبل خروجي من الأسر. ليكون الأسر حاضرًا بكل تفاصيله حتى برائحة الورق، وشكل الحبر بانسيابه الذي مازال مصرًا على العبث بعذرية الأوراق بمرح لا أعتقد تميزه بقدر كونه ذا طابع إنساني متناقض.

هاجس لون قد افتقدته دومًا، لن يكون بإمكان أحد تتبع نشرتي النفسية، نقيض الإمكانات لإسقاطات التشوه

النفسي، إن لم تكن صورة عنها، دواعي أمنية أم نفسية لن تغير من القضية شيئًا، فقط خوفٌ يرتفع كلما دنت لحظة مغادرة هذا المكان....

## هاجس العائلة

يسير الوقت على مهل... تروق لي الدقائق المنسابة من نهر الحياة، كأنها تدنو من نافذة الأمل.. أمل قد يكون مفتاحًا من الصبر والسكون، لدرجة اليقين بأن الحياة أصبحت تكتنز بكل ما فيها من حزن وآلام مبشرة بميلاد فرح مؤجل حتى انقضاء السنوات، هذه السنوات التي سقطت وكأنها جبل محمول على أكف الرجال... تنتقل هاماتهم مرفوعة... ويأتي الجهد مبشرًا بوردة الحياة المخملية... ولكن.

هل تنتظر الأيام على صهوة الصحو وكأنها تمتلك زمام المبادرة...؟ مؤجلٌ بعض الشيء، لأن سكون الوقت قد ضاع بسرمدية الشوق إلى هناك، حيث يرتع الجسد المكابر تلك السنوات التي أكلت الانتظار على مهل انتظار يحمل الفرح لسجين هنا، ليرفع الحياة درجة بين سؤال الموت والحياة؟ إرادة لم تنعزل عن كونها "ملكوت" سماوي يخرج من فوهة نور لم يكن لنا يومًا حتى يحين... الصمت بالانتظار نبوّة... نبوّة تجددت على يدي أنبل

البشر، بآهات الصبر والحنين، كانت ومازالت تنتظر هناك على عتبات البيت حيث يقبع الربيع على ورقات شجر اللوز، لكنه سبق حلم طفل لم يعد يحتمل كتمان الفضيلة.. وأكثر.

أمّي هي أنت.. ابقي كما أنت عاشقة للانتظار، بصبر أيوب، أتذكرك كلما يدنو القمر من بين قضبان الحديد يمدّ يديه يهديني باقة من الأمل ليوم سوف يأتي حتمًا على جواد بشهوة البقاء، أحبك وأكثر.. يسلمني القمر أحلامك بلفافة من زيزفون وعنبر، أشدها كأنني ذاهب إلى درس من اللذة الأبدية، اجتمع مع كل الطقوس الغريبة التي صنعتها علّي أراك اليوم هنا، حين أراك.. أقف مشدوهًا لفرط التنقل السريع لتلك الدلالات التي تكاد أن تأخذني لحدود الموت، وتلقي بي في شوق الغياب الطويل.

أمّي... أراك قديسة، تصبرين على الفراق بأمل وأكثر، أتلمس أقدام المسيح تخطو خطاك، تقلدك بين الصبر وتبشير الخلاص بالفضيلة، لم أعهد يومًا أنني سرقت من دمعك المقدس محاولاً إشعال قنديل الانتظار الخاص بي، لكن اليوم أفعلها لأرى قبسًا من نور يشع مقلدًا خطوات العذراء على سفوح الكون السرمدي. عفوًا لأنني ما كنت يومًا أنتظر الربيع لأنتقي لك من أزهار الحنون واللوز والليمون والنرجس ثوبًا تدثرين به وجع السنوات... ولكن.

أحاول جمع قوت السنوات لأقدمه قربانًا من العزّ

بأن والدة مازالت هناك تنتظر، أسمع همس الماضي وأبكي علّي أقبّل نبل أقدامك، وأمضي حيث سأكون دومًا متلمسًا نبوة القرن الحادي والعشرين؛ ففي إقدامك يا أمّي يتشرف الشرف، ويصنع المستحيل، لأمتطيها عائدًا من بعيد، أحمل أحلام ابن عشق الوطن لأنه شاهدك ملتحمة بثراه حدّ الصيرورة الأبدية.

اليوم أقول لك أمّي... إننا عابرون من بين هذه الأماكن، نصنع مجد البقاء على عهودنا، في مكان مقدس لا تسمعين فيه سوى تراتيل الوطن ، نمتشق هاماتنا عاليًا، نرفرف عائدين من جولة وأخرى... بحقد أكثر، أسمع الصوت ينادي الأمّ نبراسًا يضيء دروب الظلام بأمل اللقاء... أردد أنشودة خالدة لحلم طفل عشقك، وعشق الوطن ببراءة لينبجس الحنين من ظلام الزنازين، يكتب على شواهد القبور سيمفونية الموت ليعرف الأعداء بأننا نعشق الحياة، والموت معًا... وذلك الموت الذي يأتي مبشرًا بنصر قادم معاهدًا الآلاف الذين سقطوا وهم يسكبون دماءهم هنا وهناك.

فما لنا غير البقاء على الصبر، نقتات وجباتنا منه ونلوك الألم بألم، نصبر على الصبر بصبر، نعشق الوطن بسكون قمر سيبقى دائمًا الأمين على عهود لن نقولها، لنكتب لرفاق سلكوا دروب الوطن بصبر الثائرين، ولم تكلّ عزائمهم يومًا: كم من أمّ لهم؟

لكل واحد حكاية وأمّ، حنين إلى ضمة شموخ بين

أحضان الحنان، في سياق الكلام سنكون معًا يا أمّي أريك أمهات رفاقي الشامخات شموخ الجرمق، الشاعريات بهدوء نهر الأردن. الصابرات كأسوار عكا الخالدة، فابقي أنت.. أنت، أعدك أمّي أن أبقى أنا.. أنا، حتى يوم اللقاء المؤجل.

حين كتب هذا المقال المنشور في جريدة القدس تحت عنوان "إلى أمّي"، لم أكن تجاوزت عمر السنتين، فعمري الحالي أحسبه منذ اعتقالي، وهكذا سيكون لي ثلاثة أعمار هي: ما قبل وما بعد والحالي.

هل كان كافيًا وقتذاك البوح بسر خطير له علاقة بقديستي كما أحب دائمًا تسميتها؟ شعوري بأنني أفلحت حينها بسبر غور مشاعر المستقبل والسجن بي، لذلك كل ما له الآن وما كان قبله منذ الاعتقال، لم يزد وينقص تجاه حاجات تستفحل كلما أخذ الدهر سنة أخرى لصالح الحرمان والبعد، فأمّ لم تُلمس غير مرة عابرة بهدف التقاط صورة وسنوات طوال داعبها كلام فقط من خلف زجاج لأوقات محددة متتالية. إذن. كيف؟ هل من ميزان إنساني يحدد التشوه المحفور ها هنا؟

إن كنت استطعت تحديد مناطق تشوهي الخاصة، ماذا عنها هي؟.. ما الذي تشعر به؟ وكيف لي تحديد الأضرار خاصتها؟ قبل الاعتقال لي مشاهدات عن مرارة الأمّ وإسقاطات السجن عليها؛ فلي أخ أمضى عاما قبل أسري، من فرط الانشداد لملاحظة سلوكها وقتها صدت

العديد من المتغيرات، انحازت أمّي إلى حالة اليأس والإحباط الدائم؛ ما عكس حالة من البؤس المطبوع بمحياها يوميًا، لم تعد تُعِد الأكل بنفس المذاق ذاته، وهي التي اشتهرت بمذاق طعامها، تبع ذلك تفاصيل عديدة أهمها رفض الخروج من البيت لأي ظرف اجتماعي من تزاور أو عرس. أجلس ملاحظًا كآبتها الدائمة عكس فرحها الذي طالما حاولت بثه فينا جميعًا. في حزننا مشكاة حب وأمل... في فرحنا غيمة تظللنا برحمة وحب، تقدم الطعام من غير نسيان أخي بوضع صحن له أو طهي كمية الأكل نفسها، وعندما سألتها عن سبب ذلك... (هل مات أخوك؟)

ما الذي تستطيع قوله بعد تعليق أمل رجوع محتوم، كم من وفاء تحتاج لمسلك لم أشاهده ولكنني أتوقعه! كم من عمر أحتاج للوفاء لدمعة سالت بانتظاري! هل أيّ سؤال تضعه مستعجلاً هنا يعطيك الحق بأن تتنقل من كلمة إلى أخرى دون الشعور بالذنب؟ فعندما تذهب في سفر اضطراري من سجنك لتغيب ثلاثة أيام تعمل على إخبار أمّك بعدم وجودك في السجن عن طريق زيارة لصديق لك، بفعل الصدفة تعود مبكرًا، تتراكم الظروف وإذا أمّك موجودة، تخرج لزيارتها وأول ما تسألها (شو جابك؟) تجاوب بمنطقها –أيضًا– لتلجمك التمطط عبثًا بالكلمات (قلت إذا ما بازورك بشم الهواء الذي تشمه، وأنا فعلاً زرتك).

بقاؤك صامت في حضرة نبوتها ألوهة تتوجها أكاليل الغار؛ ففي مثلك ينعقد اللسان ويفقد القلم رزانته، على أي بحر من بحور الشعر أكتب قصيدة تجذف عكس حالة تحتاج عبقري شعر لالتقاطها، كعطشك المعلق عند فوهة قارورة مليئة بالماء، فلا أنت تجرؤ على الشرب خجلاً ولا تستطيع تجاوز شعور العطش الفتاك. أي حلم هذا الذي بحدوده يهطل المطر كصور لم تأت بعد، تقترح على نفسك التنقل بينها خجلاً... إلى حين، عند وضعك السيء تذهب حد الشؤم، فتضيق مساحات التفاؤل والفرح، فأيّ سؤال لك فيها محرم، أما في حالة التفاؤل فتتلقي وعدًا برجوع بات ينتظرك برحم انتظارها، هي تكبر وأنت لا تزال تداعب عمر أوهام لها، ضع عنك كل سنواتك الثكلى وانهض، فمازال هناك دائمًا متسع من الفرح والحب، فلا هي ستبقى كما هي ولا أنت.. أنت، فقط المقدس النبيل بوعد الرجوع ثابت، وكل هاجسك أن تفقد هذه اللحظة بتدخل عابث من القدر كأن يحرم انتظارها مرض أو انعطافة تهلك الجسد هناك، إياك ثم إياك فما زال هناك متسع من الوقت، ومازلت أحتاجها لتداوي بنبلها جسدًا أثخن بالجراح، وتلملم وجعًا تمظهر بثورًا واضحة بجسد فتك السجن به.

كيف لي الانتقال من الحديث عن الأمّ إلى العائلة بما تعنيه بأركانها؟ صعب جدًا، لكن سأحاول بعض الشيء... فالأمّ هي الحبل السري الذي يربطنا بالحياة

طيلة العمر.. شمس تشرق كل صباح... تبعث بعهدها... تحث على الوفاء.. إن غابت... غاب نصفك الشاعري الحاس.

العائلة ..هاجس أيضًا

للوهلة الأولى يبدو العنوان فاقدًا لكثير من المعاني بحقيقتها الجرداء، بعد إزالة القشرة الخارجية بدخولك آفاق الضيق والحرمان الإسمنتية تكتشف أن العائلة بحد ذاتها وجع يطال بؤرة الذات الساكنة، لفرط ما ذكرت اختلاف مقاييس ومفاعيل الزمان في هذه الأوراق، بات واضحًا ما سأكتب حيث يكمن داء الارتباط هذا بمحيط ارتجفت له رغمًا عنك، تلاحق ظِلّ ماضٍ يربطك ببشر هم أخ وأخت وأبناؤهم وأزواجهم. دائمًا كان تعريف العائلة محط جدال كبير لديّ؛ فما زلت مصرًا على تعريف العائلة فقط بهذه الحلقة دون الدخول بتشعبات الأعمام والأخوال... الخ.

لطالما ارتبطت بأبناء وبنات أخواتي، أول إضافة لي كانت كلمة "خالي" مع العلم أن علاقتي بهم لم تكن بطابعها السلطوي، لفرط انتمائي لهم نداء خالي من المسميات السائدة، أحبّ مناداتهم غسان، نور، زاهر، ريم، شهد، أمل، ندوش هؤلاء ما تعرفت إليهم هناك.. لا، بقيت طفلة صغيرة لم تتجاوز أيامها الأولى عند اعتقالي... بيسان، لذلك هي بالنسبة لي اسم يحمل الكثير من المعاني دون شعور ملموس، أمر مؤلم وقاسٍ على أيّ أحد أحب

ملائكة أن يتلاعب بمشاعره بين سطرين، سأكتفي بتقديم صورة بسيطة لإشكالية مزمنة مرتبطة باغترابي عنهم، سأقدمهم فردًا فردًا محاولاً ربط وجودهم بمشاعري وكل المتغيرات معهم وفيهم ولهم.

غسان... أول طفل يغزو فضاء العائلة الفارغ، حمل معه فرحًا داهم أركان السؤال المنقول من جيل إلى آخر، حبّه أخذ يكبر مع كل يوم وساعة. حين ولد لم أكن تجاوزت ثماني سنوات، لذلك علاقتي به لم تكن بطابعها الدارج...خال وابن أخت "فكانت مزيجًا بين حب الشعور بفكرة أن تكون خالا، والصداقة المربوطة بحكم قرب العمر، كما لم يكن يومًا شعور الفرح دائمًا بقدوم فأل الخير حاملاً غيوم الوعد بالوفاء للأرض؛ جاء غسان حاملاً كنوز الترابط والإخاء فأضاف شعورًا جديدًا، باعتقالي لم يتجاوز غسان الخامسة عشرة، لطالما داعبت حلمه بحلمي؛ كنت أحلم أن أكون معه حين يحتاجني وخاصة في مرحلة الثانوية العامة؛ السجن أفقدني كلّ ذلك حتى تقديم نصيحة أو إجابة سؤال. أغرب ما في الأمر أن السجن بهذه الفترة، لذلك انتقل من طفل صغير إلى شاب يدخن، مغرم...مع هذه الكلمات يطوي عامه الثاني في الجامعة متجاوزًا عمرًا بأكمله. أي شعور قد يوصف هنا.؟

نور... أولى الإناث تزين عتمة البقاء، بمنطق الحضور المفاجئ اللطيف. حضرت الأنثى تضيف جديدًا لعالم يحتاج من الوفاء والحب قلوب الإناث، حكاية نور

هي حكاية حب ولهفة ظلت حائرة إلى أن قدمها القدر هدية لأختي بعد طول انتظار؛ فكانت تستحق ذلك، ولكي أكون منصفًا زوجها هو- أيضًا- يستحق عطية كنور، هبة إلهية تقدمها الملائكة... نور لم تتجاوز الثالثة عشرة بعد كل هذه السنوات ..نجحت نور بالثانوية العامة، وصدمة مدوّية كفرحة لن أشعر بها قبل حين قالت لي أمّها في الزيارة: نور سجلت نفس تخصصك، دمعة مكابرة تهادت من على الوجنة اليسرى عنوان حب: أكانت حبًّا وفرحة أم غيرة؟ لا أعرف، كل ما أيقنته ..نور حبيبة ترفع عن ساقيها محاولةً هرس عنب فيداعب الصمت خلخالها، الذي ترتديه في القدم اليسرى، هي غيرهم لما أذهلتني من قدرة على الكتابة؛ إن صدقت نبوءتي قد تكون مشروع كاتبة، حلمي المعلق رهن التحقق، مشروع كتابي أخطه مشاركًا أناملها، قبل انتقالي بينهم عليّ التذكر بأن تفاصيل كثيرة تضيع بفعل القلم ومنطق السرد هذا اعذروني أحبائي.

زاهر ..آخر تعليق سمعته من أختي أنه يشبهني بسلوكه؛ ففي كل تصرف يسلكه يقولون له : "هذا خالك"، آخر تقدم إلينا حاملاً معه إكليل غار وضعناه على قمة التقديس. فرحنا نغني دائمًا سمفونية الفرح والخلود، وأهم ما فيه عناده؛ أذكر عندما كنت أدرسه مادة الرياضيات في إحدى المرات أخذ يحاورني حول جواب خاطئ، أقول له خاطئ ...يجاوب لا. صحيح.

خطأ ..لا. صحيح، حدّ انفجاري بوجهه... ومع

كل هذا لم يقتنع أنه مخطئ إلا بعد محاولة تدخل بها أمّه وأبوه....قد يسأل أحدكم: أهذه ذكرى تقدمها لنا هنا؟ إن ما يربطني بزاهر كونه قطعة من روحي، طير يغرد كلّ صباح من على نافذة الذكرى قادمًا يلوح بيد رافعًا معه شوقي بيد أخرى ....يجعل منه ألمًا يصعب عليّ بثه؛ كم خبر بشأنه تنقله لي أمّي وأخواتي في الزيارة ؟ يؤكدن حبّه وتعلقه بي، لكن ليس شعوري ذاك عندما توفر لدي وسيلة اتصال، فطلبت رقمه وجاءني صوته، سألته: هل تعرف من المتكلم؟ قال: خالي... الوحيد الذي عرفني من أول كلمة مغلفة بصورتي عبر الهاتف.

ريم ...مليكة أخذت موقعها سريعًا بين الجميع، زاحمت على حبّ كان مميزًا، فأصبحت مميزة في كل شيء؛ سكونها وطيبة قلبها، عفويتها انسياب دافىء للقلب مع كل دفقة دم، تغدو حياة القمر فتعطي وجهه الآخر وإن كان بمرح أكثر، أول كلمة نطقت بها "توته" فأصبح اسمها. زمانها غير بكل ما تعنيه الكلمة من معنى؛ فمكانها في صورة العائلة كان فعلاً شاغرًا إلى أن تقدمت بوعد قدومها حلقة ستبقى فرحًا يزين المكان. حضورها حفل صخب من الموسيقى الفاتنة الملهمة، ها هي تخطو خطوات ثابتة نحو إنهاء الثانوية العامة، معتزمة كتابة فصول حياتها بتحدٍ وفرح، كما حدث مع زاهر في فسحة التواصل؛ كان ردّ فعل ريم مختلفًا؛ لم تعرف من المتصل... حين قلت لها أخذت تولول وتصرخ بأعلى صوتها مرتبكة وتبكي إلى أن

ارتاحت وتحدثنا، فكيف يمكن وصف مشاعري لحظتها؟

شهد مشكاة نور أضاءت مساحات أخرى، فوسعت إطار الصورة ممهدة لغيرها القادم، حضورها شهادة أخرى لإله آخر، يد امتدت تسابق النجوم راسمة حكاية خرافية وإن كانت بمتعة أكثر، هدوؤنا نغم يتهادى من على وتد عود بقي يناغم سكون الليل باعثًا الوعد بالحب والفرح، قدومها أخذ شكلاً جديدًا؛ فبعد انتظار دام سنتين جاءت حاملة معها براءة لطالما حملتنا باتجاه السكينة، أكثر ما يميزها خجلها الدائم وبساطتها، تعطي حبها للجميع دمعة تسيل، رقراقة صافية. كيف لي تفصيل مواقف حاكتها الأيام مشاعر كاملة لأطفال هم ليسوا أطفالي ولكن حبّي لهم خرافي؟ في إحدى المرات قالت لي أختي إن شهد زعلانة لأنني لم أكتب لها رسالة، للحظة لم أستوعب ما قالت، وإذا بي أسألها: هل كبرت شهد وأصبحت تطلب الرسائل؟ كيف لي معرفة ذلك وأنا أسيرُ وقتٍ مازال يحتجزني بجارور الماضي؟ وفقط آثاره شعر يتساقط وبياض يزداد تناثرًا كفصل شتاء يأبى الانتهاء.

أمل وندوش ...كوكبان دريان أشعلا فضاء الكون بحكاية أخرى وإن كان بمنطق آخر ..أمل، بكر أختي الصغرى، فكانت بحضورها أمل الحياة، اختارتها بمحض إرادتها ورغم كل شيء. ندوش كما نحب تسميتها خيرة الحصاد في انتظار ذكر يأبى القدوم، فأختي مصرة على ذلك، قناعتي أنّ الأنثى أفضل وأطهر. فجأة أصبح لدينا

أطفال من جديد، هذه المرة ثنائية الأنثى أضافت لدي فرحًا أكثر... عشقتهن كروح وعد يبث أملاً وعنفوانًا دائمًا، حلم لا يزال ينطلق معاندًا منطق الإحباط؛ كم من ذكرى لهن وخاصة أنهن أتين بعد عمر، كنت وقتذاك ناضجًا بما فيه الكفاية... لذلك، هن مميزات جدًا؛ أمل وندوش ثنائية حاضرة دومًا بين ثنايا الفؤاد والروح؛ كن يتخاصمن فتعتدي أمل على ندوش بما أنها صاحبة شخصية قوية، فتأتي ندوش تشكو. تأتي أمل –بعد مناداتي لها– متباكية محاولة خداعي، حين أسألها تجاوب بصدق، أطلب منها التأسف بقولي "حبايب "فترد علي مسرعة "حبايب "مقلة ندوش والعكس، أي ذكرى أراها لطفلتين كنت أحملهما معًا وهما تتراقصان فرحًا لألحان أغنية "علوش "للفنان علي الديك، تفرحان وترقصان حد التعب. أن تكون ندوش هادئة وطيبة لدرجة سكوتها الدائم كأنك تحاول قطف الكلام من فهمها فتقدم لك رحيقًا وعنبرًا، حبًا وأكثر. كيف تبدو اليوم بعد كل هذه السنين؟ هل تكفي صورة لتقدم جوابًا أصمَّ يحمل معه تفاصيل الجسد فقط لدرجة أن ندوش حين طلبتُ الحديث معها عبر الهاتف رفضت، من طفلة تزاحم الجميع لرافضة الكلام بدعوى الحياء... ؟ أمل طيف يناغي حلمًا مضى، عندما كانت ترتكب خطأ قبل وقوعي في الأسر، كنت أهددها مازحًا بفتح النافذة ومسكها من رجلها لأدليها منها، بعد كل هذه السنين تسأل أمل أمّها بأن تقول لي في الزيارة: "متى سيتحرر

خالي من السجن ع شان يمسكني من رجلي وينزلني من الشباك ؟ عندما غادر أخي السجن للحرية، كل البيت عجّ بالفرح والسعادة، فكيف لا وهو الغائب منذ ثلاثة أعوام؟ انتبه الجميع لغياب أمل... بحثوا عنها ...فوجدوها منزوية تبكي... فسألتها أمّها عن سبب بكائها فأجابت: أنا بدّي خالي الثاني مش خالي هذا... هل من إنسان يقدم لي تفسيرًا لشعور داهمني عندما أخبرتني أختي بهذه الحادثة؟ هل من أحد يطلب من الزمان الرجوع للوراء لأداعب أملَ ابنة شقيقتي؟ أعلم أنه لن يعود أبدًا، وسأبقى فاقدًا لكثير من مشاعر الحبّ والانتماء.

بيسان ...اسم أكثر من كونها حدثًا أخذ حيزًا من الذاكرة؛ فلم تكن تتجاوز الأشهر الأولى عند اعتقالي، ولكنني احتضنتها مستنشقًا رائحتها عبقًا طيب خلوده أيامًا مضت. هي لا تعرفني إلا من خلال الكلام العابر لأمّ تخبرها عني وصورة على حائط. مع كل هذا فبكت في إحدى المرات، وعندما سؤلت عن سبب بكائها أجابت الأهل بأنها تريد مفتاح السجن لتحرر منه خالها الذي هو أنا ، بعد أن أعطوها مفتاحًا وقالوا لها هذا للسجن بكت بشدة، استوضحوا ...أجابت: مفتاح السجن كبير وليس صغيرًا.... كيف لطفلة أن تدرك بفطرتها أن مفتاح السجن كبير، وأن أبوابه تحتاج لمفاتيح ..؟ كم كنا نحتاج أن يعي الكبار ذلك! فما كان ليمكن أسرى منذ أكثر من ثلاثة عقود مفتاحك يا بيسان.... طعنة مازالت تنز ألمًا ووجعًا

من جبين الإنسانية؛ فليس سهلاً علي أبدًا مشاهدة الحب يداعب الأحلام والأماني للأطفال.

ميس وزينة، حكاية وهمية لم تحملها حقائق الصور قطّ؛ هما فتاتا الصورة والكلام فقط، لا رائحة أو ملمسَ يختزن الذاكرة. فقط أحاديث ألملمها طلبًا على شباك الزيارة بقدوم أمّهاتهن. فهل يحلو السؤال عن عشق أقدمه لهن؟ بصراحة: حبّهن لا يقل عن غيرهن ممن سبقوهن، إلا أنهن بنكهة أخرى؛ فتأصيلهن كلام، وحبهن مازال كلامًا إلى أن أباشر العودة. فهم الكثير من معاني الكلام، أخواتي لا يكففن عن إخباري بمدى حبّ بناتهن وأبنائهن لي، وهم يطالبن برجوع خالهم من السجن، لكن سؤالا يؤرقني دائمًا: ماذا سأقول بعد التحرير؟ وهل –فعلاً– الكلام يكفي لنقل المشاعر من حيز الوهم إلى ممارسة عملية فتزيل عنه التكلف والادعاء؟

يتفق جميع الأسرى بأن السجن يأخذ أبعاده وحقيقته بالأطفال؛ فهم عنوان عبور الزمان، وفيهم تشاهد مدى التغير الحادث بمروره، مع أن وضعي مختلف إلا أن للسجن إسقاطات بوقع أشد في حالة الأبوة المباشرة؛ فحين يُسأل أحدهم ممن أمضوا أكثر من خمسة وعشرين عامًا عن أبنائه يجيبك: كبروا وتزوجوا وأنجبوا، ومازلت أتعامل معهم بالعمر الذي تركتهم به حين اعتقلت. هذه الفكرة مؤلمة... فالزمان يتوقف للأسير عند لحظة اعتقاله؛ فمهما أخبروه أو حاولوا أن يقنعوه بتقديم الزمن عبر تقدم

الأطفال بالعمر، يبقَ، إصراره بالتعامل معهم كما تركهم، فكيف لا تكون العائلة هاجسًا يوجع ويفتك بالأسير أملا وحبًا وفرحة ووعدًا تعلقه عهدًا؟ ...كل ذلك يضيع بفعل السجن، والأهم من كلّ هذا سؤال يحطم سكينتك...: هل ستقبلونني بعد التحرر من الأسر؟.

حين أخبرني أحدهم أن طفلته رفضته، بعد تحرره من السجن بعد قضاء خمس سنوات، عبر عنها بألم تجاوز حدود الإخبار الطبيعي؛ فجرحٌ أصابه لن يندمل أبدًا بعمق حياة بأكملها، فستحتاج عمرًا آخر لتداوي تشوهًا يطال محرماتك هذه، فكيف لا إذن؟ ...خوف المضي قدمًا نحو مجهول الزمان، وآخر في طرف الحياة يمضي باتجاه مشاعر الانتماء، هما لا يعرفان حدود التشوه أبدًا وفقط شعور الوطن الكامن بتفاصيل كل شيء جاهز ليقدم العفو عن أي ألم قد تشعر به. كل ما ذكر هنا وجع الطرف الأسير وقد تحتاج إلى مساحة أكبر... لا تقل خوفًا من الطرف الآخر؛ فالعلاقة متبادلة، كما العائلة هاجس للأسير فالأسير هاجس العائلة بكل تفاصيله.

## هاجس البوسطة

في ليلك يطلّ القمر من نافذة الأمل معاهدًا بروح البقاء، وفيًا لا يكترث لوجع قد يحمله لمكان مظلم، يرفع كل نوره وينادي هيت لك! تتلقف وجعك المنعكس بنوره وإن كان بمنطق آخر؛ فالوجوه دائمًا تسعى إلى طهارة

تلملمها ثنايا الأساطير. كلامك لا يسع غير حروف أنت أصلاً لا تريدها. حيرتك بئر عميق لا يسبر غوره غير ماهر يتمتع بحدس المناضل العنيد ، وذكاء الطفل بفطرة وجرأة كيفما حاولت منع غيره من المضي إلا هو، عاشق للخطر فاقد لمعاني الخوف المبتذل، وتأتيك المفاجأة وإن كانت على شاكلة سؤال: من منا لا يخاف؟

عندما شاهدتها أول مرة أيقنت أنني أمام رحلة مرفهة تحملني كسائح يوفر له كل وسائل الراحة ..ما اصطلح على تسميته" بوسطة"، عبارة عن حافلة تتسع لخمسين راكبًا، لونها الأبيض الخارجي يفاجئك كما حدائقها؛ فمنظرها عربة حديثة فارهة كتلك التي اعتدت مشاهدتها في التلفاز؛ داخلها منظر آخر لحافلة أخرى.. للوهلة الأولى المرتبطة ضرورة بالمرة الأولى لك ينتزعك منظرها من حالتك كأسير مصنف في حالة" البوسطة" لدى وحدة النقل الخاصة بإدارة مصلحة السجون" نحشون" أشد حالات وجودك خطورة!! (قيد بالأقدام وبالأيدي يمنع عليك وضع بنطالك بين حلقات القيد" ورجليك ليكون الألم حاضرًا بكل حركة تواتيها ...حالة ترجعك بالشعور الأول أيام أسرك من اعتقال وتحقيق ...إلى شعور بأن رحلة العذاب لا تحمل معها كل معانيه ، وقد يكون هناك فصل مغاير للحقائق...

حقائق هذا المكان مغايرة دائمًا لأمانيك ...حين تبدأ بالدخول" لعالم البوسطة " تنهار صورة الرفاهية شيئًا

فشيئًا، لتتكشف أمامك سادية التقدير لشئون الأسرى بشكل عام؛ لونها الرمادي من الداخل يذكرك بزمانك الرمادي أصلاً، فليس عبثًا – إذن– هذا اللون، وكأن الألوان لها منطقها الحاضر هنا أيضًا، من الداخل عبارة عن وعاء حديدي مطليّ باللون الرمادي، زنزانة تتسع لحوالي أربعة وعشرين أسيرًا، في الخلف أخرى طولية تتسع لعشرة ، مقابلها أخريان صغيرتان، مقاعدها من الحديد، نوافذها مطلية بالسواد لكي لا تشاهد شيئًا؛ شبك وحديد... حديد ...إذن عالم الحديد من جديد، ولكن– هنا– بروح الادعاء الأمني، فترتد مشاعرك من مكان إلى آخر.. أفضل وصف استمعت له" البوسطة" "الوحش الحديدي.." وهذه– أيضًا– كلها قصة أخرى ...فمعاناة الأسير لا تبدأ منذ دخوله الحافلة المعدة بسادية واضحة، ولكن هي رحلة تبدأ وتنتهي عند معنى واحد لا غير... سيكون بين ثنايا الحكاية ..وإن كان الشعور سيبقى تضامنيًا إلى أن تجربه أنت.

في السجن خرافة الاستقرار تسيطر وفق رؤية الحياة بين آخرين، ارتباطك وهم تنسجة لضرورة الحياة مستمرة بسعادة مقتنعة متجاوزًا العديد من حالاتك النفسية؛ ففي غرفة تتسع لثمانية أشخاص، موزعين في الغرف وفق الانتماء السياسي تعيش؛ فهذه غرفة الفصيل كذا وتلك لكذا، حين تأخذ مكانك بينهم تتواءم ونظام الحياة الجماعي ..يتناهى لديك شعور الاستقرار حتى لو كان

منقوصًا. في باحة السجن يعمل مجموعة من الأسرى نسميهم" مردوان "هم بمثابة حلقة وصل بين رجالات الشرطة والأسرى، في نهاية كل يوم تأتي قائمة بأسماء الأسرى المنقولين أو الذاهبين في" بوسطة" أي؛ يخرجون في سفر ويعودون للسجن مرة أخرى، في أغلب الأحيان تتأخر القائمة إلى ما بعد دخول الأسرى غرفهم، فيأتي الشرطي ليلاً يقف بباب الغرفة وينادي اسم الأسير، تتحفز كل مشاعر أفراد الغرفة فمصير مجهول يهدد أحد أركان حياتهم، هنيهات ينطق الشرطي" بوسطة ...مراش"أي ذاهب إلى المستشفى (ترتاح التناقضات ولا يبقى غير صورة عذاب وألم سيلاقيه أسيرنا في رحلته..

يأخذ يُعِدُّ حقيبة يحمل بها احتياجات ثلاثة أيام، يُمنع عليه حمل أكثر من حقيبة واحدة، وكذلك يحدد كل سجن كمية محددة من المأكولات والسجائر المسموح بها، بعد العدّ الصباحي- فهنا نُعد ثلاثة مرات يوميًا-، صباحًا وظهرًا ومساءً، فيها يتوجب على الأسير الوقوف وبعض الضوابط الأخرى، من يخالف يعاقب بوضعه في الزنازين -عزل انفرادي -في الصباح الباكر جدًا يخرج الأسير حاملاً معه حقيبة، مرتديًا الزي البني الرسمي لمصلحة السجون إلى غرفة الانتظار" أمتناه "وهي عبارة عن غرفة صغيرة يحشر فيها كل الأسرى الخارجين من السجن، فيتكدسون فوق بعضهم لفترات غير معلومة قد تصل إلى خمس ساعات، إلى أن تصل وحدة النقل

الخاص بالأسرى" نحشون "طبعًا هذه الوحدة لا داعي لتعريفها في مجتمع الأسر؛ فأسلوبها الوحشي بالتعامل معهم معروف، وكأننا مجموعة من الحيوانات ولسنا بشرًا، لأتفه الأسباب يضربون، يدفعون الأسير المقيد بيديه ورجليه، في كل لحظة يستفزونك على أمل تطور الحادث لكي يعتدوا عليك بالضرب، ستكون دائمًا الطرف الخاسر؛ فأنت بقيدك وهم يعتدون عليك جماعات لا أفرادًا، في كل الأحداث التي حصل بها اعتداء على أسير نجحت الوحدة المذكورة بتحطيم الأسير نفسيًا بعد الفتك به جسديًا في حالة رفع الأسير شكوى حول الاعتداء عليه، فالوضع الأمني للأسير" في البوسطة "ذريعة جاهزة؛ صحيح أن حوادث الاعتداء قلّت نسبيًا في الأوان الأخير، لكن ذلك جاء نتيجة سياسة اتبعها الأسرى بقرار واضح؛ من يُعتدَ عليه فليواجه ضاربيه؛ ففي فترة زمنية أخذ الأسرىاإستراتيجية للدفاع عن أنفسهم أدت إلى خفض حالات الاعتداء عليهم.

يطلب منك أفراد" النحشون "مدّ يديك من فتحة الباب، يتم تكبيلهما بقيد يحرص دائمًا على أن يلتصق بجلد معصميك، بعد الانتهاء من تقييد الجميع يفتح الباب ويطلب الخروج فردًا فردًا، تكبل رجلاك بالطريقة نفسها، يطلب منك حمل حقيبتك، لطالما سألت: لماذا أحمل حقيبتي بعد القيد وليس قبله؟؟ لا مبرر غير فرض المزيد من المعاناة والألم. بعد مرورك من أجهزة التفتيش بأنواعها تقف أمام ضابط السجن ليقوم بتشخيصك للتأكد

من هويتك، بعدها تنقل لعهدة" النحشون."

أخيراً، يطلّ عليك" الوحش الحديدي "بكل ثقله ووجعه؛ تضع حقيبتك أسفل الحافلة، يمنع عليك التدخين داخلاً أو إدخال أيّ شيء معك؛ فتفتش مرة أخرى ببابها، تصعد في هذه المرحلة وأمنيتك الكبرى وضعك في الزنزانة الكبيرة؛ فهي أقل وطأة عليك بثقلها من تلك التي تجلس بجانب عشرة في الخلف، حديد المقاعد يضيف معاناة لك! ، فالبوسطة شتاءً لها وقعها الأشد إيلامًا؛ تجلس كيفما اتفق هناك، لا يفوت" النحشون "المماطلة بإجراءاتهم لتزيد معاناتك أكثر.

ما لا يعرفه الكثيرون ممن لم يخوضوا التجربة، "البوسطة "لا بد وأن تمرّ بكل السجون في خط سيرها؛ فالمسافة– مثلًا– من سجنك إلى وجهتك قد تحتاج ساعتين مباشرة، لكنها تستغرق يومًا ونصف بعد زيارة البوسطة لكل السجون، حيث تمكث في كل سجن من ساعة ونصف إلى ساعتين وقد تزيد. تصل في نهاية اليوم إلى ما يسمى "معبار) "أي قسم فيه مجموعة من الغرف يستقبل الأسرى ليوم واحد فقط"، وإن لم تكن محظوظًا ووصلت" المعبار" يوم الخميس فتبيت يومي الجمعة والسبت، وهكذا تزيد معاناتك أكثر؛ دخولك إلى هذا المكان وخروجك منه لا يقل بإجراءاته عمّا ذكرناه سابقًا في السجن؛ طبعًا يقتصر القسم المذكور على أسِرّة للمبيت وحمام لقضاء الحاجة فقط، فالخدمات بحدودها الدنيا.

تعود صباحًا للكرة مرة أخرى ووفق المنطق ذاته من مماطلة وإذلال. علق أحد الأسرى في حديث له:" أنا أشعر أنني سجين إلا في ثلاث حالات، الزيارة، العيادة، البوسطة "كيف لك أن لا تشعر كذلك حيث القيد يتغذى على لحمك تارة، وأخرى يذكرك بسلب إرادتك وحريتك! في نهاية يومك تكتشف كارثة بقاء القيد يومًا كاملاً بيديك ورجليك، بعد التخلص منهما تحاول النوم بعد كل الإنهاك والتعب.... شعور القيد يبقيك ملصقًا يديك ورجليك معًا، فينتقل القيد لحالة نفسية تحتاج عدة أيام بعد رحلتك للتخلص منها ..كيف يقضي الأسير يومه الكامل داخل "الوحش الحديدي"؟؟ هذا السؤال المنطقي بعد الوصف التفصيلي للرحلة.

على المقاعد الحديدية يجلس الأسرى اثنين اثنين، من كل السجون يلتقون، يحدث دائمًا أن يقتسم جموع الأسرى جنائيين وسياسيين كحالتنا، أو كما يحلو للاحتلال توصيفنا" أمنيين" تأخذ البوسطة زخمًا غير عادي؛ فمنذ دخول الأسرى إليها يبدأون يتبادلون الأخبار والأحاديث؛ فكل أسير يتحول لإذاعة متنقلة لمجمل الأخبار والأحداث في سجنه، يتبادل تفاصيل حياتهم العام منها والخاص، فإن حدثت قضية ما في سجن يبعد مئات الكيلومترات عن آخر تصله بالتفصيل والدقة، أجمل توصيف مضحك لأسرى البوسطة" نسوان الصحيّة "على اعتبار كثرة كلامهم بما يلزم وما لا يلزم.

يعلو صوتهم آنَ دخولهم إليها، إما يتعارفون أو يتقابلون بعد عدة أعوام من الفراق، قد يحدث وإن يكونوا أفراد مجموعة واحدة، أو أبناء بلدة واحدة ...وهكذا، يعيشون مع قصصهم تكتبها معاناتهم على جدران الحديد الرمادي، فتتراءى البوسطة كصندوق الحكايات المليء بملايين القصص، أمينة على حكايا حريصة لدرجة عدم إفشائها للمتربصين من عملاء أو أفراد وحدة" النحشون." سلوكها محبب لكل أسير رغم حجم تنكيلها التي تخلدها صفحات الوجع المدون ألمًا حادًا يعتصر جسدًا يتلوى أربع عشرة ساعة فوق الحديد، بمنطق السجن ذاهب للمشفى، فأيّ أسير هذا الذي يذهب إليه ضمن هذه الحالة ويصله ولا يزال حيًّا...؟ قد يكون، لكن آثار المعاناة والألم تتخلد أمراضًا مزمنة ترافقك من سجنك إلى قبرك.

لا مكان للنسيان ..صباحات تبشر بالمكان الخالد حكمًا، تنفض عنك كل يوم حكاية مرتبطة بواقع يهجس بك، فأين تعلقها؟ في اللاوعي ساكن رغمًا عن كل إرادة تحكيها بقرار واعٍ أو أكثر، التباسات الحياة تقودك بالضرورة إلى التباساتٍ الزمان بمكانه، هنا حكاية وآهات... وهنا وجع وطعم يضيف نكهة الأمنية دون خجلٍ، فتصبح المعاناة أمنية تدور في فلك القلب العليل أصلاً، تتوالى أحداثك ورحلاتك من واحدة إلى أخرى، جارة أوهامًا تختارك دون رحمة ورأفة !

تعاود البحث عن حديث ضائع بصفحات الألم،

خيوط الشمس تدغدغ سكوتك الدائم؛ فمن زاوية روحك المركونة بالإهمال هناك، يصدر صوت الضمير النابض بالحب حينًا والكره أحيانًا، تحتار لحالة هذيان تداهم وضعك، تتفتح بذرة الكراهية نبتةً تشتد ويتصلب عودها واعدًا بشجرة حنظل يحملك حضورها للتسليم بكل إرادة زرعت حروفًا على لحائها بخط عابث ما؛ خوفك يبقى مبررًا دون شك، فمن استقرار تواظب الشعور به إلى حالة من التأهب تعيشها ساعات وساعات، تحتاج لدورة أخرى من الفرح والسكينة لتربت على لثمة أخرى تطال روحك.
هكذا تكون رحلة العذاب والأمل، بما تحمله من إمكانات للتواصل والحديث الهاجس يرتعد الأسير أمامه في كل لحظة، يتقدم شرطي إلى باب الغرفة لينادي أسماء الخارجين مع وحش الحديد ذاك.

## هاجس النقل

قلما يسابق شهوتي نحو الخلود، عبث يزين وحدتي بليالي السهر الطويل، أمل يغرد صهوة الحب العليل، بين الغياب والحضور حكاية تحتاج عمرًا آخرَ لنقصّها، لا تعرفوا وجع الأسير في المغيب، حجر يناور محيطًا آسنًا فأين المفر؟ أتسلق شجرة مرمر أم عشق ياسمينة ليلية هو المقر؟ ليس بين حياتنا زهر وفل، أشياء ثم أشياء حتى اضمحل شعور الذات ببعضها، فكيف إذن؟ سألوني فوق

سحابة عابرة تلملم حلم الثائرين بعد انتكاسة أخرى، تحجب شمس الصامدين كحلم غائب شق عباب صحراء الضجر: فهل بقي لنا من شيء؟

حكايات تلاعب طفلها كعشبة ربيعية تداعب حقله، وتهجس زهرة الأقحوان بعذرية الساعات نحو ذهابها في المستحيل، فصل وآخر ..حكايتان، رمزتهما بكلام ينادي كالأذان، صلوات عشق الغائبين كاليمام، هديل ..رسائل عابرة بين الكلام، عودوا لأجل أمنية علقتها بقدم عذراء تلوحها خلخالاً يداعب فراغ هدوئنا، أسمال عصور خلعها عائدًا فوق الغدير، يرفرف وجه مائه ثملاً، قدم ترن جرس السكون وأخرى تلوح بالهواء أنا هنا ..هيهات أن ينسى كلّ عصفور غديره.

تحت السماء نمرح طفلين وشجرة تظلل حلمنا الأبدي، نشرب رحيق غيوم أينعت لحنًا عذبًا، تجدد أيامها فينا ترتيل ترنيمة الإنشاد تارة ،وسورة تهدهد عنفنا الفطري إن شئنا، فلا داعي- إذن- للعودة المحمودة فوق الأكف؛ فأمنية تمسك بأخرى تعقد سلاسل رحمة تزين آهاتنا ، ورسم مقاطع الأسطورة من على ألواح الخلود. ما بال وجعك ساكن رغم أحلام تزين مساحة تحتلها بإرادة مبتورة كجليد! هلاك يضاف للطبيعة إن هوى ذئب بقاءه. منطق آخر يحتاج حلمين آخرين حتى يذوب.

مساحاتك هنا بياض بفراغ وقتك وعمرك، بفراغ حلمك وأمنياتك، بفراغ سلوكك الواعي وهذيانك، كل

ما لديك فراغ وآخر فارغ رغم ازدحام البشر من حولك والأشياء؛ فالوجود داخلك ليس مساحة تحدد رغمًا عنك بين حديد واسمنت و"شيك" ستبقى دائمًا حائرًا إن لم تصل درجة ترتيب الفضاءات من حولك حتى بضيقها وحضورها المحدود، فما الطريق إلى السكون والهدوء؟ استقرار تحاول نسجه كجراب طفل تحكيه أم تنتظر حلمها القادم بعد صيف، لا بد لك ارتداؤه ليعالج فراغك المشوّه رغمًا عنك، فكيف الاستقرار في عالم كل شيء فيه غير الزمان ومشاعر الإنسان؟

تحدد مواعيد دقيقة لكل شيء؛ فطورك بشيء من الوقت، حمامك، كلامك بوقت، سكونك وحتى حلمك يصبح بوقت، من داخل كل الترتيب هذا ينبت شعور الروتين فيرسم لك صورة الاستقرار وإن كان متخيلاً أكثر منه واقعًا، حيث الاستقرار شعور السكينة وتباعد أي خطر عنك، فما بالك في مساحات الاسمنت حيث ضغطة زر تغير نبض واقعك! يد متحفزة بشكل دائم للعبث في خرافة استقرارك، إما بتفتيش استفزازي أو إجراء تدريب لشرطة السجن مدججين بأسلحتهم القمعية، سرّ نجاحهم بضرب استقرارك سياسة النقل الدائم.

عندما تدخل إلى السجن وتتعرف إلى ساكنيه تبادلهم الأماني والآلام، حتى يطلب منك إعداد حقائبك "منقول إلى سجن آخر"، عبارة التهديد المخيفة لسكينتك المؤقتة؛ فالروح تحتاج إلى وقت حتى تعتاد المكان،

احتلالك سرير أو" برش "بلغة السجن يعطيك مساحة خاصة بعض الشيء، إن لم تتعوده بكل ما في تفاصيله ويعتادك –أيضًا– فسيبقى التوتر سيد الموقف بينكما.. فكيف تصبح عملية النقل هاجسًا لدى الأسير؟

كنطق" البوسطة "عند وقوف الشرطي بباب الغرفة تتحفز كل حواسك، حتى ينطق باسم" نقل ...حضر أغراضك"، إن كان الأسير في واقع يزيد ضيقه ضيقًا... الفرحة حاضرة، أما وإن كان حاله تخفف ضيقه القائم بفعل الاسمنت والحديد ينعكس الخبر شؤمًا إضافيًا لفكرة غياب الوجه فتبدأ التكهنات: إلى أين؟ هذا السجن، يمكن هذا ..فإدارة السجون ترفض إبلاغ الأسير وجهته لدواعٍ أمنية، الأخير لا ينام ليلته بعد إعداد كامل أغراضه لدواعٍ نفسية.

صباحًا يخرج الأسير محملاً بكل ما له وعليه؛ فكل أشيائه له ، وعليه تفاصيل حياته الاجتماعية ؛فهي شكل التبادل من قبول وترحيب إلى حدود فاصلة في الواقع الجديد، في غرفة الانتظار يضع الأسرى كل حقائبهم خارجًا، أخيرًا، قررت إدارة السجن عدم حمل الأسير سوى لحقيبتين فقط، يخرجون فردًا فردًا لإجراء عملية التفتيش، لا ينسى من وضع اللمسات السادية حتى وأنت ومغادر فيطلب منك خلع كل ملابسك لإجراء التفتيش العادي، تناقش وتجادل حول الجدوى من ذلك، إن انتقل نقاشك إلى رفض تستحضر قوة من الشرطة يمزقون ملابسك

عليك بعد أن يتم تقييدك طبعًا؛ هذا ما حدث بدايةً، إلا أن حدود المعركة الفردية وعدم استكمالها باتجاه توجه عام أضعفت حركة الاحتجاج؛ ما أطفأ جذوة الرفض لنوع التفتيش هذا إلى حدوده الدنيا، فسيكتفي الأسير بالعادة والجدال ، وقد ينجح في بعض الحالات ..إلا أن السائد هو إجراء التفتيش.

تفاصيل سفر الأسير أثناء" البوسطة "هي ذاتها من وحدة النقل الخاصة إلى" وحش الحديد "بكل حضوره الثقيل .

بوصولك السجن الجديد تدخل غرفة انتظار، تخرج لإجراء التفتيش، ولكن هذه المرة بطريقة مختلفة: يوضع على الأرض قطعة قماش يقوم الشرطي بالطلب منك إلقاء محتويات حقائبك، تفرغ كل محتوياتها باسطًا إياها على الأرض، لا ينسى هنا إبقاء القيد في يديك زيادة في إذلالك وقهرك، يحضر ورقة المسموحات في السجن؛ فكل شيء بأعداد محددة، وكذلك ألوان محددة، يطلب منك على التوالي التقاط الأغراض وفق المحدد عددًا ولونًا وشكلًا. بعد الانتهاء يأخذ كل ما تبقى أرضًا إلى مخزن السجن بعد تسجيله، تواظب إدارات السجون إخراج ما يخصك من المخزن عند أول زيارة يأتي الأهل بها إليك، من سجن إلى آخر تخسر من أغراضك شيئًا ؛فهذا مسموح هنا ،وهناك ممنوع.

يطلب منك الشرطي الدخول إلى غرفة التفتيش:

"اخلع كل ملابسك "يتراءى لك مشهد الاغتصاب... تحاول وتجادل ...لا مفر، تخلع ثيابك حائرًا بين خجل وخوف، تتجاوز نقطة الانعطاف الحاد، تُسحب لغرفة التصوير يأخذون لك صورة، مقابلة مع ضابط استخبارات السجن، أسئلة معتادة حول سبب نقلك ومشاكلك في السجن، لأيّ تنظيم تنتمي... يغلق ملف أسئلته بتوعدك إن خرقت القوانين ولم تلتزم، تلقى داخل غرفة الانتظار ساعات عدة إلى أن يأتي شرطي ليأخذك إلى القسم الذي حدد لك.

تدخل القسم فيتجمع الأسرى حولك. يرحبون بك على عادتهم بالوقوف صفًا لإلقاء التحية والقبل، يختلف طقس الترحيب بعمرك الأسير؛ فكلما أكملت عمرًا يزددْ معارفك بحكم تنقلك الدائم، فيزداد الترحيب حفاوة، يدخلونك الغرفة الخاصة بتنظيمك إن كان فيها فراغ؛ في العادة دأبت إدارة السجن على إدخال أسرى أكثر من القدرة الاستيعابية للغرفة بوضع أسير تاسع لينام أرضًا. استمرت هذه الحالة فترة إلى أن رفضها الأسرى بعدة أساليب؛ فأحيانًا بالعنف كما حصل في أحد السجون، فرفض الأسرى إدخال أحدهم إلى غرفة لينام أرضًا بعد أن أبلغوا إدارة السجن بقرارهم. حاولت إدارة السجن إدخاله مستخدمة القوة، صراع الإرادات نشبت مرة أخرى" قمع السجون –"مصطلح قمع السجن، أي أن إدارته استخدمت القوة والغاز بالتعامل مع الأسرى –طريقة أخرى نهجها أحد الأسرى بتقديم دعوة قضائية ضد إدارة مصلحة السجون،

فنال حكمًا بعدم جواز إدخال أسرى فوق القدرة الاستيعابية للغرف ...منذ حوالي ثلاثة أعوام انتهت هذه القضية ليس بفعل ضغط الأسرى ولكن بفعل انخفاض أعدادهم.

في الغرفة يحدد لك مسؤولها الإداري سريرًا، طبعًا يتم تحديد ذلك وفقًا لحالتك الصحية والعمر، إما سرير أرضي أو سرير بالدور الثاني؛ ففي الغرفة يوضع كل سريرين فوق بعضهما لتوفير مساحة، تأخذ ترتب أغراضك بمساعدة من في الغرفة. مساءً تُعقد جلسة للترحيب بك، يعرف كل أفراد الغرفة أنفسهم لك بالعمر ومدة السجن والاسم ومدة الحكم. تتبادل وإياهم أخبارك وأخبار السجن الذي كنت فيه ،وبدورهم يطلعونك على أوضاع سجنهم.. وتبدأ ليلتك الأولى...

يلملم بعضك بعضك، عطب يلاحق وجعك، في الروح تزرع حقل ورد بين آه وسنديان، تشدو الكلام نغم انتظار من على متن الحروف، وأبجدية العرب القديمة بحد شهرٍ للمحال، فما كانٍ من وصف السؤال بغير كلامٍ لا يقال، هات حلمك شالاً من الدانتيل يزين جيد عذرائك الأولى، تمسك طرف حرف اسمها وتعلقه، ها هنا ...لا لا ...هناك، أفضل الأماكن ضلعك الثاني يسارًا بخافقٍ لا يستكين، قطرات دمٍ تصرخ اسمًا وتغرد، فمن ينسى صوت الأنين؟...

قالوا في سجنك راحة، تتلو الملائكة عليك نور إله وتستكين، في حينها صاح الضياء أنا متاع الحالمين، أم

جنة توعد ساكنيها بمسحة من الحنين، ما عاد لي من وعدكم تثوير لهجتي، فالواقع المؤلم صاغ حيرتي، ما زال بي وجع وآخر ألملم خيبتي ووطني أسير الثائرين بعبثهم، كأنه جواد يراهن عليه بأمل الجنوح عن تيه يلازم شعبًا بأكمله منذ سنين، أفكارك الخضراء تجبلها دمًا قانيًا، تنفجر رعدًا قاصفًا بفضائك المائي، ضوء يشق زراقك المصفر ...وإن حلمت.

لا تسألني عن الكلام فكل أفعالٍ تضاد الصمت فيك لا مثلها، وجع يقابله الحلم كسيف يلاعب المتبقي من جسدك المثخن بالجراح، جرح ينزّ الحلم وباقيك اندثر... فما بين الكلمة والأخرى فضاء لا تسعه صلاة تواصل دعوة للرحمة، ما ذنبنا نحن الذين وعدنا حقًا في سؤال جوابنا عن الانتماء؟ ذنب الخليقة إن كان كذلك ضغينة الأخ لأخيه وقنوط رحمة ربانية تحت الشهوة للتحدي، بشر خلقنا والتحدي صاغ حلمًا، رحلة لا أعلم للسحاب أين بدأت وإلى متى ستنتهي!

لا يختلف المكان الفارغ عند حلولك ضيفه لليلة الأولى، وحشة وألم غيرك بين ثناياه المرمزة بحرف التكوين، أماكن عدة تحدد فضاءه الخاص كانت حيز أحلام غيرك، فما عساك فاعلٌ؟ في الليلة الأولى تحاور المكان بأرق وبعض الأمنيات، وحين تواظب احتلال أركانه فتعلق حلمًا هنا وآخر هناك ...وها هنا آخر ...يعج مكانك بأحلام تعلقها أمامك فتغدو الزنزانة مكانًا جيدًا لتعليق الأحلام،

من دونها تتوحش الجلوس بعري واقعك ويهجس بك دائمًا خوفٌ من تبعثر أحلامك المعروضة إن صاح الشرطي باسمك نقلاً.

مع كل الخوف المتبقي في حدود حلمك تحتاج وقتًا حتى ترتب معرض أحلامك الجديد، تختار اسمًا لكل حلم من بينها وجع الحب وآخر لأم ...هذا لأخت ..وذاك لأخ ..الغائب الأبرز بينهم سؤالك : ماذا بعد؟ إن كنت من أصحاب الـ " ما لا نهاية " من السنوات، سيكون السؤال محرمًا بين أحلام يجاوب واقعك استحالة تحقيقها في القريب، وإن حصلت على حدود مكوثك الإجباري هنا فيحضر السؤال مع انتهاء عمرك الأسير...

فالنقل هاجس كل أسير يقنع نفسه بـ" خرافة الاستقرار."

OpenKandil.com

# هاجس الرسالة

يجلس القلم على حواف الكلام يداعب حيرة الأفق، مادًّا حبل أمانيه ليلتقط وجع السؤال، فهناك- دائمًا- خلف عاصفة الكلام حيرة وأكثر، صفحة بيضاء تهنئ نفسها بضجر النزق، ترف كاتب آخر يعالج بُعْد المكان بنزف مشاعر تسمى لدرجة التقديس، حلمًا وبعد إفاقته رتّل من الجمل السعيدة تلملم بعضها ورقًا إلى أن يلغى شعور البعد والشوق، ترافقها خيوط الشمس من يد إلى أخرى، يصافحها الحنين بطبع أحلام أطفال من على وجنة الماء تقطف أجمل الأزهار لتصنعها طوق نجاة من الوحدة، ترميها للغد القادم؛ فكل يومٍ آتٍ لا بدّ وأن يكون أفضل.

انتظار يداهم وحدة الأيام ما طالت، هنا عاشق وهنا شوق ...أمّا هنا فكفّ انتظار الشوق للشوق؛ فما من ورقة تطوى يؤمنها أهل الحضور مشاعر أنبل البشر، إلا بوعد صارخ كالشمس بوفاء عهدها الأبديّ، تتحدى عنف سجان يراقب دبيب النملة، فما من ورقة تأتي الأسير بريدًا إلا وعيونٌ تتلصص ما فيها ، حتى مشاعر العشاق والأحباب يسترق النظر إليها فتخبو طهارتها ..يهتك السجان عفتها الأولى، فلكل شيء طعم مختلف عندما يكون الأول...

تسقط قطرات الماء مودعة مكان الغيم للأرض، وهكذا تفقد حرية الانتقال بالأفق، فغيوم اليوم ها هنا وقبل يوم كانت هناك، بعد هطولها مطرًا تروي مساحة الوطن

إلى أن يأتي أجلها لتفارق مكانها نقلاً ..حرية لكن دون عودة إلى النعيم، تفرقنا، أما في الحب مجمعة شوق السؤال وحروف تخطها من فوق بياض الثلج غيثًا يداوي انقطاع شواهد الأضداد والشجن، حكايات المكان الثقيل ما قطعت كل ما فيه غريب عنك، حتى سؤالك المنسي عن أهلك، عمّا يفعل العصفور في عُشٍ تمتد يد الغدر له عبثًا كلما مالت، هناك بعيدًا في أعماقٍ أعماقك، فتغدو مفتوحًا بلا حرمات؛ فمرة يشاهدون جسدك تحت ذريعة الأمن، وأخرى يطلّون من النافذة السرية لعلاقات الحبّ ومشاعر شوق أو محاولة للتفاعل خارجًا بقضية تريد أن يكون لك فيها رأي عبر رسالة ...فها أنت كما الزيتون بشموخه يعريه حنين الأرض، تعبث فيه أماني الشمس الى أن يبقى في جبل يمانع عبثًا عابرًا.. لكن بشموخ وعزة أكثر.

لا بدّ وأن تكون للرسالة حكاية أخرى لتغدو هاجسًا، فما قصتها إذن؟؟

دأبت إدارة مصلحة السجون على منع الأقرباء من زيارة الأسير إلا من الدرجة الأولى "أب، أمّ،زوجة،ابن، بنت، أخ، أخت"، تأتي الزيارة كل خمسة عشر يومًا ولمدة محدودة، فما الطريق للوصل مع حياة عشتها بقدر ما عاشتك غير قلم وورقة تطويها رسالة! وكلي يكمل دوره العبثيّ ساكبًا معاني أخرى للتدخل بإرادتك، يمنع عليك السجان إخراج أكثر من رسالتين شهريًا، وبعدد أوراق أربع فقط، ينتابك شعور دائمًا بالحيرة: إلى من سأرسل

هذا الشهر رسائلي؟ وكم من شخص سيفهم إرسال هذا العدد فقط من رسائلي؟ وكم مرة سأكون جاهزًا نفسيًا لكتابة رسالة؟

كمٌّ هائل من الأسئلة، لكل منها جواب يحمل صورة أخرى لمعنى السجن في الإنسان، إن كانت الرسالة جسر التواصل المفتوح بينك وبين الآخر البعيد، هذا الاستنتاج يضع حبلاً أمام قدرتك على خط كلمات، فمن أين لك الإيمان بقدرة الكلمات لتحافظ على علاقة لسنوات؟ إلى من يستطيع إمساك قلم وهو يعلم هذه الحقيقة ليخط رسالة لصديق أو حبيب؟ أستطيع التأكيد لكم بأن القضية ليست سهلة بقدر سهولة كتابة هذه الهواجس؛ فقبل فقدانك عفتك أسيرًا وللوهلة الأولى تقدر إرسال الرسائل بشكل دائم، ولمن يطول البريد الوصول إليه، إلا أنك مع مرور الوقت تكتشف ثقل الرسالة وحجم مسؤولياتها، فيصدمك الخوف من كتابة الرسالة ...وكيف لا؟

وأنت المقتنع حتمًا ببعد منطقين للحياة واختلافهما، هنا لا وقت يحسب بمعركة حياتك غير انتظار، ووقتهم إنجازات وتفاصيل حياة لا تنتهي، مشاغلهم وحياتهم تبعدك عن الحضور اليومي، ولكنك تبقى حاضرًا في البال، يتذكرونك ترفًا مارًا مرور الشعور بالعطف أو التضامن، وقد يكون الشوق في بعض الأوقات المرتبطة بمناسبة خاصة، أمّا أنت فأسير تعيش معهم لحظة بلحظة، يكبرون أمامك وتبقى أنت أنت، لا تتعرف على المتغيرات النفسية

التي تطالهم أوتطال شخصياتهم، فقط ارتباطك الشاعر بهم يصنع أسطورة العودة إليهم؛ فالرسالة تبقى مساحة مستقطعة من المعاناة، والحياة قد تحمل معها شعورًا هنا وآخر هناك ،إلا أنها ستبقى على هامش هامشك وطرف حضورك معهم.

بعد تجاوزك عدم القدرة على كتابة رسالة، بتحضير طقس متكامل من حالة نفسية إلى وقت يداعب هدوءك سكون المكان وصمت هواجسك، تقف أمام سؤال آخر كحاجز ليس سهلا: أمسموح لي رسالتان؟ لمن سأرسلهما؟ يتناقض بعضك كما يتفتت وجودك بين شوق لهذا والتزام أخلاقي مع ذاك، تخاف الكتابة؛ فمن سيعرف حقيقة الرسالتين فقط؟ إن كتبت لهذا سيغضب ذاك، وكيف ستشرح لأحدهم فكرة تحتاج التحدث لكليهما، ويمنعك التناقض عن كتابة وقت، وعندما تحسم وجهتك الكتابية تكون قد حددت أولوياتها ...ولكلّ أسير محددات خاصة.

مع تجاوز الهاويتين السابقتين، يأتيك الأصعب: أيّ كلام ستكتب؟ فهناك عيون تتربص بكلّ كلمة تخطها؛ فمن جهة ستعاقب إن فهم السجان كلمة خارج نصها، ومن أخرى ستسبب للمرسل إليه أزمة أمنية مع أجهزة الأمن، إن فهم سياقًا خارج نصه. تنشر الكلمات جمالاً من حولك كبستان ربيعي، تأخذ بانتقائها حذرًا، فكلّ كلمة لغم قد ينفجر بك أو بمن تود الكتابة له، ترتبها وفق صيغ واضحة لا تقبل التأويل أو الشك، تبتعد عن أيّ

موضوع خارج المشاعر والعلاقات الاجتماعية محددات... محددات ...تعيق كل صدق ورقة تحاول أن تكون جسر تواصل طاهر يحمل معه الوفاء والحب، فتفقد رسائلك الكثير من عفتها، فمن عبث إلى آخر ومن حفرة إلى أخرى ..تنتقل الرسالة لحقل ألغامٍ الولوج إ ليه إجباري، وإلا سيقال عنك بأنك تتجاوز علاقاتك بالآخرين، بالأحرى؛ هي هي علاجك بالإصرار لعدم نسيان علاقتك بالآخرين.

رسالة تود كتابتها ترميك من فوق السحاب لتواجه مصيرك وحدك، في أدغال الشعور يمكث وحش الانتظار، تركب حدود مغامراتك وتمضي في الأفق، تحمل أماني العاشقين وتداعب السحب، لا ترفعوا عني الوصاية فوق أهداب الكتب، صمت أنا وكل أحلامي سكون اللهب، من بين حلم وآخر أختار الكلام عاصفة تذرف خيباتها عبثًا، هناك أو هنا بين الساكنين كلام الصمت سيد التكوين، فلا تفترشوا الأرض الحرام بانتظار الغيث، بعد كل لغم ينفجر بك يبعدك عن الإبداع والخلق، فتغدو رسائلك متقطعة من وقت إلى آخر، حتى تأخذ قرارًا ينافي وازعك الأول في فهم دور الرسالة...وتمارس انقطاعًا فتنسى قيمة الأشياء من بعدك، وما قد يكون الآن بالغد قادمًا ...وللرسالة القادمة قصة قصيرة ..لا تحمل أكثر من جواب لسؤالٍ: ما هي؟؟

ما أن يحسم أحدهم في الخارج أمره ويكتب لك رسالة، يحتاج دهرًا من الأماني والمشاعر، وكمًّا خرافيًا من التفاصيل ليخط لك ورقة يتيمة تحمل لك الكثير مما

يشعره غيرك، تعيدك للوهلة الأولى إلى أيام خلت ولن تعود أبدًا، فلا أنت بقيت ولا هم الذين تركتهم قبل سنوات، تفاصيل حياتهم أكبر من كونك أصبحت الهامشي بمشاعر الوفاء، أعمال وأشغال، فرح وحزن ..حياة وموت ..إلخ، وما العلاقات بين البشر غير احتياج الآخر ليكون حاضرًا بتفاصيل الحياة ذكرى؛ ففي فرح يشاركنا وفي حزن يواسينا، نصيحة نحتاج إليها أو عكس ذلك ..بعد كل هذه السنوات من البعد الإجباري يواجهني سؤال" الحقيقة المرة " : كم من صديق سيبقى لك بعد كل سنوات غيابك؟؟

قد يكون لحالة الأسير شكل من الوفاء يشكل سياجًا منيعًا لتفتت العلاقات الاجتماعية بين البشر، إلا أن عطبًا ضروريًا يطال علاقاتك، تتشوه أحلامك للعودة العذراء هناك، فما من أسير يحلم بالعودة إلا توازيها تفاصيل ما كانت عليه الحياة قبلاً، كأنه لا يعي حجم السنوات الماضيات ومدى هتكها لكل تفاصيل حياته، كصورة أخرى لفراغ يأخذ يتضخم من على صهوة الواقع، وما إن يعود حتى يصبح بلغة حسين البرغوثي" الفراغ الذي رأى التفاصيل،" فهل سيكون جاهزًا لملامسة الحقائق، حاضرًا للتنازل عن أحلام أخذ يعاشرها، فامتلأ بها أكثر من أن تغذي شهوته؟

من الصعب جدًا فهم قيمة رسالة تأتي بعد انقطاع، لا تتجاوز صفحة وقد تكون بأقصاها اثنتين، لا تحمل غير تأكيد على الذاكرة، وكأن الذاكرة صك غفران للحياة

تلهو بها كما تشاء، أي زانية أنت أيتها الحياة تمارسين عبثك مع جميع البشر؟ تقضين أمامي بعفة لتؤكدي شهوة تزرعينها كذبة فوق جلد حفرته سنوات الدهر تعبًا ..إذن، ما زلتأاحتاج كثيرًا من الوفاء وقليلاً من العقل حتى لا أصاب بوجع الطهارة هذا.

ما إن يبلغك الأهل برسالة أرسلت إليك، حتى تبدأ العد العكسي لحالة نفسية ستعيشها إلى أنْ تدخل مجموعة الرسائل بيد أحدهم لساحة السجن، تعد طقسًا فريدًا لاستقبالها كأول عذراء تستضيفها على سريرك، ارتباكك الأول، حيرتك الأولى ...ما إن تصبح يداك تدرك بأن يد السجان سبقتك بهتك عفتها عبثًا بمحتوياتها باحثًا عن جملة تجرّمك فتحرم منها، بالمحصلة تفقد بريقها الأخّاذ، تحاول لملمة جروحها لعلمك حزنها وخجلها لعدم قدرتها إيفاء عهدها بتوصيل ما يريدون لك وحدك ...تداعبها بحنان وحزن، وكمعنى آخر للسجن يظهر لك عجزك حتى عن تلقي مشاعر طاهرة في ورقة ...تقرأها مرة وأخرى إلى أن تلثم جراحها بقبل أعدتها ذاكرة ستحفر تفاصيلها فتنقلها لدرجة التقديس...

من بين أجمل الحروف تأتي أصعبها، وكأقصى تعبير يأتي أبسط الكلام يدغدغ حيرتك، فتحفظ الكثير من تفاصيلها وكأنك عايشتها بين احتمالين: سماء تبشر بأرض ستزهر عما قريب، وأحلام يتفتق عنها عجزك بلونها البني، وإن كان بشكل آخر، فتواظب على جمع كل رسائلك معًا

في جعبة الأحلام. من حين إلى آخر تتحرش بالذاكرة فتغدو رسائلك أمامك متنقلاً بينها؛ فهذه بمناسبة كذا تحمل لك مشاعر وفاء، أخرى لها حضورها الدائم بوجع الفراق وكأنها لم تكتب رسالة فراق لعاشقٍ من قبلك. وهكذا تنتفخ بكتلة غير مفهومة من المشاعر بتناقضها، فتلملم أحزانك الحلم وتعيدها لزاوية لن تنساها بفعل الأعمال بقدر ثقل ما تحمل من أماني، أقصى درجات وهمك دمعة تتناثر من على وجنتيك بفعل عبارة كتبت لك منذ سنوات، بعد مرور كل هذا العمر تعود لتغتالك دمعة بنفس المنطق ولنفس العبارة، ولكأنك لم تقرأها قبلاً، تشتهيها باشتهائك فنجان القهوة صباحًا ،وبعد الرشفة الأولى تتيقن مرار قهوتك، ولا تعدل أبدًا عن تلك العادة، إذن. هو أكثر من موقف وأقل من أمل ...بينهما سلوكك المفهوم لك وحدك من دون غيرك، أحدهم يلاعب رسالة تضاهي عمرًا كاملاً ،وحين سألته: كم عمرها؟ نظر إلي وسألني: "كم عمرك؟ "أجبته ...وإذ به يقول لي:" تصغرك بسنتين وتكبرني بعمرين "فأي رسالة للأماني والأوجاع تلك؟؟

لكل أسير حكاية خاصة يحملها ذكرياته وأحلامه يبينها حرفًا حرفًا، ويأخذ كلامها بين ذراعيه كلمة كلمة، تتلاحق الصفحات فيما بينها لتحزم أمتعة تعبت منها الحياة . فما أجمل من حل؟.

# هاجس الأغراض والأدوات

صمت القلم حيرة تقف على بوابة الأمل، نهر يتدفق باتجاه الوجد تارة وأخرى نحو إرادة البقاء، فسكوتك عامل التثوير الأساسي لك، فما أن تقدر على الكلام حتى تصطدم بحقيقة أسرك؛ فكل ما تعايشه من قهر وظلم ويأس وبطش عنوان يقتصر على من يعاشر أماكن الضيق هذه ، كأنها فوهة بركان تلفظ الباقي من حراك الأرض المستمر بين معرفتك لواقعك المؤلم، وشعورك المؤجل لفهمه يكمن التناقض الأرجواني، فلكل لون تناقض وسيد التناقض الرمادي بما يحمل من انتظار سرمدي.

فقرارك إذًا، رهن إشارة الأحلام المحبوسة خلف باب إدراكك، تتأرجح قناعاتك بحبال الواقع حتى لو لم تكن لك منها إرادة، فقط سؤالك الحائر رغمًا عن الغيوم الحبيسة واستمرار تقاطر الآلام عليك، بوابات فرح سيبقى مؤجلًا بعض الوقت وإن لم تقرر بعد ...المهم أنك تغادر حافتك القابع فيها إلى ما لم تتوقعه يومًا؛ فقد يكون بإصدار أو أقل من ذلك بقليل ...ولكن .

كلما تدنو له ستطاله، فالعمر كالإسفنجة يفرج عن مياهه بأمل البقاء، تكبر أو تضمحل هي مؤشرات البقاء، فلكل وردة ساعة بزوغ وانكفاء وما بينهما نضال مستمر نحو الأفضل، مما ليس لك أن تناقش فيه إمكانية الانتهاء رغمًا عن إرادتك؛ فلاعب الشطرنج الخصم لا يزال يحاول

نقل أحجاره بوهمك النصر ...وأنت تتوهمه إدعاءً فتغدو منهزمًا لنصرك الزائف، فما من معادلة غير فهمك الوقّاد لآهاتك ووجع محيطك، حتى تستطيع تأطير باقي مشاعرك نحو اتجاه واحدة: فما هو والى أين ؟

يصعب السؤال كما الجواب؛ فكلا الحالتين آه وحنين متدفق عبر شريان الحياة، وإن كان بعنفوان أكثر، تنظر من حولك في عالم المجهول أو كما يسميه أحد الأصدقاء تيمنًا بغسان كنفاني: "عالم ليس لنا"، تلتقط العديد من صور الألم والمعاناة؛ فمن تفاصيله الصغيرة إلى الكبيرة دور محدد بعناية واضعه، كما النقل أو البوسطة وحتى الحرية والمرأة ...إلخ من هواجس هذا المكان، لا بدّ وأن أكتب لكم عن تفاصيله الصغيرة التي لا تقل أهمية عن تلك القضايا التي استقطبت هواجس الأسير، ولكن هذه المرة سيكون مبدأ عرضها رزمة واحدة، فكيف لي الوقوف أمام تفاصيل المكان بأشيائه وأدواته فرادى كهواجس منفردة؟ ما كان لدفتي كتاب الاتساع لتفاصيلها المؤلمة !

في هذه المناسبة اسمحوا لي أن أقتنص أسلوبًا ناقشه أحد الأصدقاء الأسرى ممن يقدمون فاتورة انتمائه عمراً آخر في الأسر؛ ففي أحد النقاشات قبيل إعداد هواجسي دار جدل بيننا عن أكثر الأساليب قدرة تعكس واقع الأسير كما هو؛ طرح رفيق المعاناة كتابة ملحمة تحمل في تفاصيلها تسجيلاً حيًّا لواقع الأسير، مع ضرورة إفراد مساحة لأغراض الأسير وأدواته، لكي تتحدث عن

نفسها؛ فإن كان الأسير يعاني داخل مساحات الاسمنت والحديد، فلا بدّ أنها تعاني نفس معاناته مضافًا إليها معاناتها من أسلوب تعامل الأسير معها. كانت –فعلاً– فكرة نيرة؛ فلطالما كان صديقي صاحب رؤية وقّادة تحمل في ثناياها انعكاس تأثير السجن بطريقة تفكير الأسير نفسه.

لقد ذكرت هذه الحادثة لسببين: أولهما لأقدم لكم دليلاً على مكانة أغراض الأسير، وحجم دورها في المعاناة المتبادلة هنا، وكيف أن قيمتها تختلف وتنعكس بانعكاس واقع الأسر، هذا من جهة ومن أخرى ضرورة تبيان أن أسلوب الكتابة الذي سأتبعه في هذا الهاجس ليس نابعًا من تفكيري الخاص، ولهذا أدين لصديقي ورفيق معاناتي .

"جالسًا في زاوية الغرفة التي بالكاد تتسع للأسرى الموجودين بداخلها، رفعت رأسي باتجاه سقف الغرفة نافضًا عني تعب يوم آخر، حاملاً فرح انتهائه أيضًا ، وإن كان عداد الأيام يتلكأ من وقت إلى آخر، فما فائدة الحساب إن كان الزمان عُطّل منذ تلك المحاكمة الصورية التي حكمني فيها الاحتلال بالمؤبد نتيجة مقاومتي دفاعًا عن أبناء شعبي رافعًا ، مناضلاً لأجل الحرية والعدالة؟

في نهاية كل يوم أنظر للأعلى رافعًا شكواي للسماء علّها تجاوب حيرة ما زالت تسيطر عليّ منذ ذلك اليوم، منتظرًا سقوط إرادة هذا المحتل، وكامتحان لي دائمًا أو كما يفضل رفاق المعاناة هنا الحديث " "كغيرك بوجود

الله سبب بلائك "لا أعلم! هل هذا يحمل الصواب؟ فعلى اعتبار ذلك، أو ليس العدل الرحيم الغفور هو الله؟ فكيف له معاقبة رجل مثلي سجن نتيجة قناعاته ومبادئه نضالاً من أجل العدالة والحرية ...؟ هذا الحوار لا ينفك يداهمني نهاية كل يوم مع الحركة اللا إرادية التي أتبعها معانداً منطقي، ومتحدياً منطق من معي داخل الغرفة.

منذ الصباح وأنا أشعر بضيق إضافي؛ فاليوم أدخل عامي الثامن أسيرًا، وما زال سؤال يحتاج للإجابة، وكأن منطق الأسير يزيد إلحاحي لا العكس. تناولت فطوري مع الأسرى الآخرين. أخذت كأس الشاي الذي أعده أحد الأصدقاء مع سيجارة آثرت أن تكون فاتحة عامي الثامن هنا بتمام الساعة التي تم اعتقالي بها، نظرت من حولي: كم من الأحداث مرّ؟ وكم من الأشياء تغيرت؟ وكم سجنًا سكنته؟ واليوم سجن يسكن بي! ما إن انتهيت من سيجارتي الأولى بعامي الآخر هنا حتى تذكرت حديثًا كان لي مع أحد الأسرى إبان وقوعي في الأسر:

– سيأتي يوم وتعرف أن السجن كارثة حقيقية، بوقعه على الذات البشرية.

– صحيح السجن قاس، ولكن إرادتنا أقوى من فعل آخر.

– كلنا في البداية نتكلم هكذا... لكن مع مرور الوقت!!

– مع مرور الوقت ستزداد عزيمتي وإصراري.

– القضية ليست قضية عزيمة وإصرار، بقدر ما هي قضية إنسانية؛ فكل عام تطويه هنا يطوي بداخلك بقايا عفتك هذه وحماسك هذا.

– أنا لا أعتقد ...فقد تكون ممن هزمهم السجن.

– لا عليك من نقاشنا ...ها أنا أدخل عامي العشرين، وما زلنا هنا مع المناضلين، ولم أقبل أن أهادن أو حتى... فقد كنت أتحدث مثلك في بداية وجودي هنا، وستقتنع عاجلا أم آجلا أن القضية ليست قيمية بقدر ما هي إنسانية بحتة.

وقتذاك لم أقتنع ..؛اتهمته بالعديد من التهم تراوحت من مهزوم إلى عميل، لا أستطيع الغفران لذاتي بارتكابها تلك الحماقة ...أعود وأقول: لا عليك! لقد قدمت اعتذاري له منذ فترة طويلة، لكن شعور الذنب أقسى من الذنب نفسه.

يا أبو حنين ...وين سرحان، صحيح تركناك لتحتفل بعامك الثامن بطريقك لكن خلص بكفي.

– كالعادة الأسرى من حولك يحاولون ممارسة دورهم لتقليل وقع الأحداث على نفسيتك، فهم يعون إمكانية مرورهم بمثل حالة كهذه ، لذلك يوفرون دعما نفسيًا لبعضهم ...(شكراً لك مصطفى.

– على ايش بتشكرني ...المهم شو رأيك بكأس شاي ثاني؟.

– على الرحب والسعة...

ما إن انتهيت من تناول الكأس حتى دخل وقت القيلولة في الظهيرة، اضطجعت محاولا لملمة ذاكرة أعوامي السبع بكل تفاصيلها، صدمتني حقيقة غياب الأحداث الكثيرة، فقارنت بين سبع تقضيها هناك وأخرى تقضيها أسيرًا...

– شو رأيك تفلتك من الحكي الفاضي.

"سمعت صوت أشبه بالهمس، تخيلت وقتذاك أن أحد الأسرى يكلمني وعجبت لأسلوبه"

– لا ...لا ....أنا هون قدامك.

– أين أنت؟ الجميع نيام...من أنت؟

– يا حبيبي زهقتني كل يوم رايح جاي ماسكني ومن سخن لبارد..لمشعارف شو...

– من أنت...؟ صحت مرتعبًا خائفًا.

– هدي من صوتك بلاش يصحى أخوتك.

– أنا أمامك على الطاولة...

– نظرت أمامي على الطاولة... ما من أحد...

– يا شباب أرجو عدم المزاح معي...

– مش حكيتلك وطي صوتك أخوتك نايمين.

– خفت جداً ...من أنت؟ تكلم...

– يا سيدي أنا كأس الزجاج.

– نظرت بتعجب مقتنعًا بأن أحدهم يعبث معي، فنهضت متفحصًا سكان الغرفة وإذا هم نيام.

– تعال ...تعال ...عن جد راسك يابس، أنا الكأس ..تعال خلينا نحكي كلمتين، من زمان



obeikandl.com

نفسي أحكي لك إياهن.
– تقدمت من الطاولة خائفًا، متوهمًا، متوجسًا... بماذا تريد الحديث؟
– اليوم أنت دخلت عامك الثامن وأنا كذلك صار إلي معك سبع سنين تقريبًا بتذكر متى اشتريتني.
– نعم أذكر.
– كم كأسًا كسرت قبل شرائي؟
– كأس واحدة .والك سبع سنوات يللي ما تخاف الله تستخدمني ...ما سألت حالك مرة، ممكن أريح الكأس؟ أو مش ممكن تكون زهقتني؟ أو إنك تسألني عن إمكانية الاستمرار بخدمتك؟
– سكت ..مذهولاً من أسئلتها ..لأول مرة يتبادر لذهني هذه الأسئلة.
– طبعا حضرتك كأس شاي بطيز أخته وقهوة وكولا وعصير ومش عارف شو ...رايح جاي على المغسلة مرة بصابونة ومرة بدون صابونة ...وأنا ولا على بالك ...بطلع لك يا عمي..
– اعتذر إن سببت لك الضيق....
– على شو سبع سنين يا كافر ...ارحمني واكسرني خليك كل سنة بكاسة.
– عند دخولي الأسر سرعان ما كسرت كأسي الأول بعدها افهموني أن الكأس صعبة المنال، كما أن فقدانها يعني فقدان إمكانية الشرب بأخرى...

لذلك لطالما حافظت عليك.

– أنت لم تحافظ علي ...أنت زهقتني ...لو بقدر أمشي لكان من زمان رميت نفسي عن الطاولة وارتحت من قرفك...

– أيتها الكأس ...قبل وقوعي في الأسر لم يكن لك أي قيمة .فإن كسرت واحدة تحصل على أخرى ...ولكن إن فعلتها هنا سأحتاج لأشهر حتى أحصل على أخر ...بأذكر عند فقداني كأسي الأولى انتظرتك ثلاثة شهور ...وتريدينني التفريط بك...

– طبعا أنت بتفكر بس بنفسك ...يا سيدي أصلاً زيادة على وجودي بالسجن مثلك أسيرًا، استخداماتك إلي وبمنطقك هذا ...كنت أفكر نقاشنا راح يغير شي، على ما يبدو الأسرى راح يبقوا يتعاملوا معي بنفس المنطق.

– القضية لا تعنينا وحدنا ...فالمسألة مرتبطة بالسجان.

– .....

– لو كان الأمر بيدي لاستبدلتك كل ثلاثة أشهر... ولكن.

–.....

ألا تسمعينني ...لماذا لا تجيبين...؟

–.....



obeikandi.com

– أيتها الكأس ...تكلمي ما بك؟
استيقظ أحد الأسرى وأنا أحمل الكأس بيدي محركًا إياها بالهواء ...صارخًا.....تكلم ...يتكلمي....
– ما بك أبا حنين؟
– نظرت إليها ...سكنت رويدًا ...لا شيء.

صعب عليك أن توضع في مواجهة كهذه دون العودة للتفكير فعلاً، هل حدث هذا أم أنك تخيلته، أو أنك رهن مزاح أحدهم؟ للحظة كنت أريد سؤال سكان الغرفة حول الموضوع ...لكن ترددت فقد يتوهمون اختلال توازني العقلي ...آثرت الصمت، ولكن أثر المحادثة مع الكأس وإن حدثت تركت ثقلا آخر يضاف لثقل سبع سنوات مضين برفقة كل هذه الأغراض، وإن كانت قد فتحت الباب أمام التأمل بالأشياء من حولي، ومحاولة إعادة النظر إليها من زاوية أخرى، نبهتني بها كأس الزجاج بحديثها معي.

ارتديت ملابسي ...خرجت لساحة السجن محاولا الخروج من الحالة التي سيطرت عليّ، تقدم الأسرى نحوي مباركين ذكرى الاعتقال عاقدين لواء الصمود داعين لي بالتحرر العاجل أسوة مع كل الأسرى الآخرين. وفور انتهاء مراسيم المجاملات تلك عدت أدور في حلقة السير بباحة السجن وحيدًا؛ فقد اعتذرت من أصدقاء حاولوا السير معي متحججًا بأنني أريد الذهاب والحديث مع أحدهم.... ها قد نجحت بالهروب من ثقل المجاملات والأحاديث الممجوجة

حول أتفه الأمور وأبسطها.
التفكير في كل شيء داء يداهمك ...شمس تطلّ عليك كل صباح، تبعث الأمل بقدوم فجر مؤجل، وذاكرة مصرة على المضي بك نحو ضيق الذات التي يفرضها ضيق المكان حتمًا؛ ففي كل مرة تحاول التسلق على آمالك متجاوزًا ذكريات الفرح المؤلم هناك، يتكسر بك واقع المأساة حلمًا بعد آخر، وكالخريف لا يؤثر فيك غير انتزاع لون نضارتك فتغدو أيامك كلها خريفًا يلاحق آخر، تتماسك فيما بينها ذكريات المؤجل والمأمول معًا ...فتختار لكونك تفقد رباطة جأشك أمام حالة يأس تداهمك، ويصير الحال أفضل إن صرحت بوجعك آه بعد أخرى ...ولكن.

حيث أخذت أسبح بأفكاري تلك انتابني شعور بالإنهاك، تحاملت على ذاتي فقادتني قدماي لأقرب كرسي يقع في زاوية "الفورة"، وهكذا انتظم مشهد سير الأسرى أمامي، فأخذت أسأل نفسي عن إمكانية انتهاء أحاديث الأسرى، وكيف سيصبح منظر السير بالحلقة هذه دون حديث... ولكن، كيف تنتهي أحاديث الأسرى وهم يعالجون التافه بالتافه وإن صدقوا القول لأنفسهم أعطوا بعض نقاشهم جدية تحمل هموم الوطن والشعب!

– يا أخونا ...والله قرفت منكم...
– من الذي يتكلم؟
– أنا تحتك ...الكرسي.
– لا يعقل! ماذا حدث لي اليوم؟ الأغراض الجامدة

تتكلم معي!
– شو مش سامع ...بجوز مش مصدق إني بحكي...
– إن كان هناك أحد يمزح معي أرجوك توقف فنفسيتي لا تحتمل.
– لا. يا سيدي ...ما في حد يمازحك..
– ماذا تريد أنت أيضًا... ؟ صرخت بصوت عال، غير مصدق لحقيقة كون الكرسي يتكلم.
– سامعك ...يا حبيبي، خفض صوتك بلاش يفكروك مجنون وانت بتعرف عند الأسرى كلشي وارد.
– طيب ...ماذا تريد...؟
– بس حبيت أحكي لك إني زهقتكم ..من حوالي خمسة عشر عامًا وأنا هون بزاوية الساحة ..وكل ما بتعب واحد منكم نفسيًا بيجي يرتمي عليّ دون ما يراعي مشاعري ...وإذا كنت" متحمل حد يستخدمني ولا لا ..."
– ماذا تريد أن أفعل ...؟هل تريد أن أطلب من الأسرى عدم استخدامك؟.
– يا ريت يبطلوا ..أو حتى يقتنعوا إانو لكل شيء في قوة تحمل ...إنت نفسك أوقات ما بتتحمل حالك، ولا حتى بتقدر اتواظب على نفس الدور لكل العمر ...أما أنا فمطلوب مني العمل بواجبي ودون

شكوى ...كل ما أقول بكرة بيجي واحد ناصح أو مثلا حد يستخدمني بطريقة تريحني وتكسرني... على الفاضي.

– صحيح ! إن يستخدمك أحد الأسرى بشكل يهدد وجودك تجد أصوات الأسرى الآخرين تطالبه بالعدول عن سلوكه.

– طب ليش ...أنا بدي أرتاح.

– لأن قضيتك مرتبطة بقيمتك.

– أي قيمة يا أخي؟ ...كل ثمني خمسة وعشرون شيكل ..يعني تراب المصاري.

– لا. ليست المسألة بالثمن المادي ..بل بالقيمة الفعلية.

– كيف يعني؟

– إذا أتلفت ليس سهلاً أن يؤتى بغيرك، فإن حدث هذا ستأخذ المسألة أشهرًا عدة ..لذلك، قيمتك الفعلية لا تقدر بثمن..

– شو يعني ليش ما أكون زي أي كرسي آخر قيمته بثمنه؟

– بصراحة ...المسألة مرتبطة بمكان وجودك...

– يعني أنا زيك، أنت أسير وأنا كمان بس الفرق أنت إنسان وأنا جماد...

– قد يكون هذا...

– لو أستطيع تغيير مستقبلي لما ترددت للحظة



obeikandl.com

واحدة.
ما الذي ستفعله يا ترى؟
-.....
- خليها على الله يا مواطن ...شكلوا السجن إلي كمان مدى الحياة ...ومن هون لحد ما يجي واحد بنظري رحيم وبنظركم مستهتر بحلها ألف حلاّل.
- عن إذنك ...خلص موعد الفورة ولنا بالحديث بقية...
- الله معك...

دخلت غرفتي والحيرة تلفني وشاحًا لحال الأغراض من حولي؛ كيف لها أن تصبر علينا حيث حصرنا الزائد وحاولنا الذهاب بعمرها للنهاية؟ فلكل مُنتج عمر افتراضيّ وما حولي من أدوات وأشياء لها عمرها الافتراضي، كل ما نفعله الإبقاء عليها ...فهذه قد تفيد حتمًا وتلك أيضًا إلى حدّ امتلاء الغرف بكل ما يلزم وما لا يلزم... المهم أن كل شيء مهم ولا يفقد أهميته وفقًا لقيمته: الإبرة، الخيط، الحذاء، البنطال، الطاولة، الدلو، المقلاة، الطنجرة، الصينية، الشبرة، التلفاز، المروحة، الحقيبة، الفوطة، الوسادة، الإنارة الليلية، الساعة، اللباس الداخلي، السماعات الصغيرة، الزر، فرشاة أسنان، البلاطة،

أدوات الطبخ، المجراد، القلم، الشراشف ..والكثير الكثير من أشيائك تفقد معناها البسيط بمجرد وجودها معك هنا داخل الأسر.

راح بي التفكير لحالة حصلت منذ فترة وجيزة، حين

أدخل أحد سكان غرفتي ملابس خلال زيارة الأهل، فطالبته إدارة السجن إخراج بدائل لما دخل، وخاصة أن كل ما لديك بحساب ...أخذ رفيق المعاناة يمزق ما يستغنى عنه، بإزالة سحاب تلك وسحب حبل من أخرى وجيب من غيرها.. إلى أن أصبح ما لديه أكثر مما أخرج لإدارة السجن، سألته وقتذاك: لماذا تفعل كل هذا وما الفائدة بتمزيقك لها..؟

- يا صديقي، كل شيء يلزم في السجن، وكما تعرف "الشغلة لما بتحتاجها بتسوى ثقلها ذهب.."

وها هي الأغراض تأخذ موقفًا كما بدأت تفصح لي عبر محادثتين غريبتين للكأس والكرسي، فهل أنا موهوب أم أن المحادثات فعلا قد حصلت، وما يزال الكثير علي لأكتشفه في هذا المكان بعد...؟

بُعيْدَ انتهائي من موجة التفكير تلك حتى رحت في نوم عميق إثر إرهاق اليوم بكل ثقله ومعانيه المؤلمة...

- صحّ النوم ..أبو حنين
- شكرًا لك ...هل لي بكأس شاي؟...

حين أخذت الكأس من يد زميلي نظرت لها مبتسمًا وقد ذكرتني بحديث الصباح...

في اليأس تكمن الهزيمة؛ لذلك، لن يتسلل لثنايا الروح أبدًا، وستبقى بكل ما حملت به من وجع وآه ..فكلمات اليوم عنوان الغد القادم، تشابك بعضها كزرد السلاسل معلنة حكاية أخرى، والقمر ها هو يطلّ علي من نافذة

الغرفة باعثًا معنى بقائه عاكسًا نور الشمس ليلاً، ليأتينا سراجًا ينير عتمة الليالي على شاكلة إله نتهجده كلما دقت الساعة منتصف الليل معلنة وفاة يوم وولادة آخر ...لا عليك، عهودنا ستبقى لغة سرية نطرزها حبالا من أمنيات حتى تصلك أو تصل بنا الضفة الأخرى هناك تحت أغصان شجر البرتقال...

فكم من شجرة ستكون بانتظارنا؟؟ قد تكون شجرتان وباقة حب وأمل، وتغريد عذارى الوطن ناسجات بيدقًا يليق بعودتنا وعروتنا معًا ..تنظر الغد القادم بأمل وأكثر... وستبقى حتمًا...

غفوت ليلاً وأحلام اليقظة كسفينة لا ميناء ترسوه تحملني من واقع إلى آخر ومن فكرة إلى أخرى. على وقع النقاش الداخلي كان الحلم جاهزًا بتشوهاته وبثراته، استيقظت قبالة الفجر بحالة يرثى لها متعرقًا كالعائد من حرب حامية الوطيس سرعان ما اتضحت خيبتي، فعدلت من جلستي متناولا سيجارة وأشعلتها باعثًا فيها حقد الأمنيات، نافثة هي الأخرى دخانًا حبسته أنفاسي الحارة العطشى للمضي برحلة اللاعودة.

عاد اتزاني طاردًا هواجس هذا المكان، رافعًا فكرة البقاء عهدًا للذين مضوا عنوانًا للاستمرار، كما- دائمًا- فكرة محمود درويش الفذة :"على هذه الأرض ما يستحق الحياة" تأتي ويأتي معها جدٌ لا أعرف كيف أنهيه حيث ابتدأ...

- يا أبو حنين

– التفت من حولي مجددًا محددًا مصدر الصوت.
– يا أبو حنين ...لو سمحت.
– كل الغرفة نيام... من المتكلم...؟
– أنا هنا ..تحتك.
– انتفضت واقفًا، خائفًا، مرتعدًا ...من أنت؟
– أنا الفرشة...
– نعم ...ما بالي اليوم كلّ الأدوات تحدثني...
– انتبهت بأنك تعاني من أرق الليلة ...وكل من حولك نيام.
– أشعر بأنني فقدت صوابي ...كيف لكم أنت والكأس والكرسي أن تحدثوني؟ ...نعم، أنا جننت وهذا كله وهم...
– لا. ليس وهمًا ...إجمالاً يصعب عليك تصديق فكرة كلامي ولكن أنت أعز صديق ..لقد أمضيت عامين ونصف ما أرحتني ..مع أنني مستاءة منك جداً ...!
– لماذا أنتِ أيضًا مستاءة؟
– هذه قصة محرجة ...وهل لك الحديث بها؟
– لا عليك! كلّ من الغرفة نيام...
– ليكن ذلك ...ولكن، قل لي أولاً: ما الذي يؤرقك؟
– بصراحة ...أفكر كثيرًا بالغد؟
– يا أبا حنين ..تعاقب عليّ أسرى كثيرون، جلّهم

ممن يحلمون بالحرية مع مؤبدهم كحالتك، الكل على الإطلاق لم يكن اليأس ملازمًا لروحه...
– ومن قال لك بأني يائس؟.
– أها ..أعلم ذلك، لكن التفكير الدائم بالغد المجهول يوصل لليأس.
– أليس من حقي التفكير بالغد؟ فالعمر ذاهب والحياة مستمرة غير أن وجودنا هنا تحنيط، فلو تركونا للموت أفضل لنا وأرحم ... !
– إياك ...إياك ...لا يمكن أن تبقى عمرك أسيرًا، ففجر الحرية قادم حتمًا ...رغمًا عن السجان.
– إلى ذلك الوقت سيكون العمر قد شارف على النهايات...
– فارفع رأسك إذًا، فأنت أفنيت عمرك مناضلاً...
– نعم صحيح...
– .....
– طيّب، ما هي قصتك المحرجة أيتها الفرشة؟
– أليس لي الحق بأن تكون لي إرادة...؟
– طبعًا. لك...
– أيضًا! أليس لي حرمة يجب عليكم تقديرها..؟.
– هذا أكيد...
– كذلك، أليس لي حالة نفسية تحدد نشاطي وقدرة تفاعلي...؟
– هذا ما لا أستطيع تأكيده..

- لماذا...؟
- بما أنك جماد، قد يكون لك حرمة وحتى إرادة... لكن حالة نفسية!!
- نعم ..لي حالة نفسية، وكلكم ممن امتطيتموني تجاوزتم حدودكم بالتعامل معي.
- كيف ذلك؟
- كم مرة اغتصبتني يا أستاذ...؟
- اغتصبتك؟
- نعم...
- أنا ..مستحيل! هذه قذارة لم ولن أقدم عليها في حياتي..
- قهقهت
- استفزني ضحكها ..كأنها تجرمني ..ما لك؟ هل جننتِ ؟
- لا. لم أجن ..لكن الحقيقة مؤلمة! أليس كذلك..؟
- أي حقيقة هذه؟.
- الاغتصاب..
- على رسلك، أنت تغضبينني وتطعنيني بمبادئي..
- لا عليك، هذه عملية مختلفة ..وإن كانت بالمعنى نفسه..
- كيف هذا؟
- كم مرة جاءك المني عليّ؟
- سكت برهة.... ما هذا السؤال؟



obeikandl.com

– أرجوك أجبني؟
– لا أذكر ...لكن كثيرًا جدًا...
– أليس هذا اغتصابًا؟ فهلا سألتني مرة عن قبولي ممارسة الجنس معك...!
– على ما يبدو أنك مجنونة...
– لا. لم أجن، لكن كما قلت لك العملية مختلفة والمعنى واحد ...فأنت عند استحلامك تمارس الجنس حلمًا مع أنثى تتناهى لمخيلتك حلمًا، فتتمتع بها بكل ما يخطر ببالك من أساليب... وفي نهاية العملية "منيك" يسيل عليّ متحملة قرفك ووساخة ممارستك تلك.... ولم تفكر حتى مرة بأن تقدم الاعتذار لي...
– على رسلك ...أشعر أنك تخلطين الأمور..
– لا ..لا أخلط الأمور ..هي هكذا مثل ما قلت لك ...وكم تمنيت أن تقدم أنت وغيرك الاعتذار مني..

أخذت أفكر فيما تقول.....
عدد ...عدد ...يا شباب عدد....

جاء العدد الصباحي حاملاً معه إرهاق يوم آخر..... بعد إيقاظ جميع الغرفة والوقوف لضابط العدد كما هي القوانين ..عدت لفرشتي حتى أكمل معها الحديث...
– أيتها الفرشة..
– .....

– ألا تسمعين؟
– اسمعيني ..أيتها الفرشة؟
– ما بك أبا حنين ..على من تصرخ؟

حين تحدث معي أحد سكان الغرفة أيقنت بأنني كنت أهذي، وأن ما حدث معي خلال اليوم بأكمله كان سحابة تعب وإرهاق، لكنه فتح أمام عينيّ ضرورة التدقيق والتأمل في حال الأغراض والأدوات من حولي، فاكتشفت صدق ادعائها وكم نحن نغالي بطريقة التعامل معها مكسبيها قيمة ..إلا أن فعل السجان كان الحاضر بقوة أيضًا، فسألت نفسي: كيف للأدوات التافهة أن تعظم قيمتها لو أنها بمتناول اليد دائمًا ..حاضرةً وقت طلبها؟.

فمن سجن إلى آخر ترتفع وتهبط قيمة الأشياء، فهذا سجن فيه إبرة خياطة وغيره ممنوع.. .وهذا فيه حنفية وغيره ممنوع ..وهكذا...

أعددت كأس الشاي الصباحي ..وإن كان اليوم الثاني في السنة الثامنة لايختلف كثيرًا عن الأول... ولما أخذت أحرك الشاي بالملعقة ..صاحت..

– دوختني...

انتهت

هذه القصة القصيرة تكشف حقيقة الأغراض والأدوات؛ فعند فقدانها بفعل أمر من السجان... تأخذ حيزًا من تفكير الأسير ومخاوفه؛ قبل فترة وجيزة ألقى أحد

الأسرى كأس زجاج باتجاه سجان.. فاتخذ قرارًا بمنع كؤوس الزجاج في السجون، عندها أصبحت كأس الزجاج عقيقة فريدة وتمايز بين أسير وآخر؛ فهذا يملك واحدة وآخر ليس لديه مثلها... فكيف لكم أن لا تقتنعوا بأن الأغراض والأدوات من هواجس الأسير المؤرقة لوجدانه ...ولن تقتنعوا حتى تزوروا هذا المكان ...تسكنوه فتنهال هواجسه عليكم...!

obeikandl.com

# هاجس الجنس..

من طرف الكلام البعيد أطلّ حاملاً معي أبجدية حارت بي، حد ارتباطها بأمل لقاء صفحة بيضاء بعد كل عمر التيه المنقضي بحثًا عن شجرة الأحلام، حين يعود بي الوقع نحو السؤال الأول: "إلى أين ومتى؟ "أجمع بين أحاسيسي وكذبة لطالما حاولت إخفاءها؛ ففي سلوكك الدائم بطريق الرجوع يتساقط بعضك ألمًا وحقدًا أو حبرًا وتوددًا. في كلتا الحالتين تواظب إخفاء جرحك العميق بعد إطلالة الحقيقة عارية لتداعب جوع عبثك الأزلي...

بكل واقعك تدّعي ضرورة العيش حيث أنت بعيدًا عن أحلام تؤثث بها أيامك هروبًا منها، فتغدو أسيرَ مأمولٍ لا يقع على سطح الأرض أبدًا؛ لأن أحلامك أكبر من ادعائك الواقعية، خروجك الدائم على ذاتك منارة تقف من على شرفتها سابرًا غور محيط واقعك، أبحر إذن ..فما عاد هناك من شطآن؛ فكل البشر يقفون على حياد منك، أمسك طرف وجودك اليوم.. وهلمّ إلى حيث حديث التودد للقاء يكون؛ ففي عتمة المحيط متعة المغامرة، وعلى سفح نهود العذراوات يقع مأمولك التائه، فإلى متى ستبقى رهن عبثية الكلمات ...وهل لك من رجوع يداعب عورتك الأزلية...؟؟

إن تعليق الأسئلة بذاتها عبارة عن محاولة لتحنيط الشعور وإن كان بمنطق آخر، فهيهات أيها الفراعنة الجدد

لتواظبوا على تسكين شعور البشر لتخلدوها آلاف السنين! ففي مجازفة كهذه ينزف القلم رذاذ روح نزقة، تدفع رياح الوجد العاصفة أشرعة السفينة دون رُبَّان ...وجهتك لا تحددها غير أوهامٍ وبعض أماني...

فبين مفاهيم عدة اخترت القنبلة الموقوتة "الجنس" في واقع فيه من التابوهات ما يكثر ألم الذات حنينًا لذاتها؛ فمع كل حركة وكلمة وموقف لك خط أحمر يمنع عليك تجاوزه، إما مضطرًا أو راغبًا في اضطراره. ومن ضمن محاذير الواقع "الجنس"، حيث يكمن في الزاوية المظلمة من وعي المكان، مع أنه أحد مفاعيل الحياة الأساسية. إن مجتمعًا لا يعترف بضرورة الخوض في ثقافة الجنس ومدى تأثيره في مقتضيات التفاعل الاجتماعي ما هو إلا كمن يواظب دائمًا على وضع أنشوطة الأوهام حول عنقه، ويقف على حافة تحلّله المميت ..فكيف سيكون أبناء مجتمع كهذا، في مجتمع الأسر الذي يرى فكرة الجنس تدنيسًا وقدحًا لواقع يؤمه المناضلون والثوار أصحاب القضية العادلة؟ وكيف يعترفون بفكرة دونية كهذه أثناء مسيرة تأليههم واقع الأسر، وكأن الذين يقطنون –هنا– ليسوا بشرًا يحملون آهاتهم الخاصة قبل وجع الوطن، وهم لا يزالون بشرًا لهم احتياجاتهم وشهواتهم؟!

إن أحد أهم الأمور التي دعتني لكتابة هذه الهواجس رفع ستار التضخيم والتسويف لواقع الأسر، كمعادلة لوضع الحقائق كما هي على طريق تعليم أبنائنا ضرورة الصدق

وفهم الذات قبل أيّ شيء.

أثناء كتابة الهواجس دار نقاش بيني وبين أحد الأسرى حول جدوى نقل حقيقة السجن كما هو؛ فقد آثر رفيق المعاناة ضرورة منع تشويه واقع السجن في عيون من لم يزره، إلا أنني أصررت رافعًا ضرورات تغيير قواعد نضالنا ضد الاحتلال عبر فهم أن نضالنا هو – بالأساس– نضال قيمي، وصراعنا صراع قِيَمٍ قبل أن يكون صراعًا على الأرض أو الهوية؛ فصراع القيم أشمل وأعمّ ويضعنا على طريق فهم أدوات نضالنا، التي يجب علينا الارتكاز قبل كل شيء على وضع حقيقتنا كما هي دون موارية، أو محاولة لتغيير الحقائق، لأن أفراد الشعب –وإن استطعت تحشيدهم خلف صور الوهم والخديعة– سيكتشفون الحقيقة، ونصل إلى ما وصلنا إليه أخيرًا حين يصبح قرابة نصف مجتمع تحت الاحتلال لا يؤمنون بحركة تحرره العقيمة.

إن هذا الجدل لم ولن ينتهي أبدًا؛ فهو بين منطقين، إلا أن هواجسي ستذهب بعيدًا إلى كشف المزيد من سراديب الظلمة البعيدة عن متناول أيادي عامة الناس، من ضمن الأدغال الوعرة والأكثر وعورة، الجنس كهاجس يعصف بالأسير داخل هذه السجون. كنت من قبل تطرقت في "هاجس الأنثى" حول العلاقة والتشوه الذي أصاب الأسرى خلال سنوات عمرهم داخل المعتقلات بما يتعلق بالأنثى. في هذا الهاجس سأحاول وضع صورة

استكمالية لحالة النقائض والتشوهات التي طالت الأسرى ليس كمناضلين معصومين عن الخطأ، بل من فهم هذا المجتمع كمجتمع إنساني قبل أيّ مفهوم آخر، وهو عرضة للكثير من الأخطاء وكذلك البثور التي تصيبه، والطريق الوحيدة –برأيي– لتجاوزها هو الاعتراف بها كما هي بعيدًا عن تحريفها أو تسويفها لأي سبب كان، مع أنني أعرف مدى الضغوط التي سأتعرض لها، وكذلك الانتقادات، إلا أن ممارسة القناعات التي يمكن الموت على طريقها هو ما يجعل القضية قضية قيمية بالأساس.

إذن ...كيف يصبح الجنس هاجسًا؟ وما هي الخبايا الجنسية لمجتمع الأسرى؟ وكيف يعالجون حرمانهم الجنسي في مجتمع ذكوري يمكثونه سنوات طويلة؟؟

إن مجتمعًا تلفه حدود المحرمات، حفاظًا على تنزيهه، سيكون– بالضرورة – بعيدًا عن أيّ شبهة تطاله أو حتى تعلق فيه، خاصة إن كان السبب بريئًا، ولكن ليس بالضرورة أن تكون النتيجة تؤشر بنفس الاتجاه، حين يكمن الفهم المباشر غير القادر على تركيب وتفكيك المعطيات بعقل متفتح بعيدًا عن حالة التهويل، أو حتى الخوف من مس التابوهات؛ فمجتمع تسيطر عليه انعكاسات الانغلاق الديني تحت فكرة "إننا محافظون" وكذلك فهم النضال باعتباره حياة زهد وبطولات خارقة بعيدًا عن أنسنة السلوك هذا، سيؤدي إلى نتائج كارثية ، وإن لم تكن يومًا محطّ نقد أو تشريح من أحد، خوفًا من مسّ قدسية الأسير ونضاله.

حين قلت لوالدتي في إحدى الزيارات ...إن السجن ليس كما تعتقدينه يحمل المناضلين الشرفاء والقديسين أحفاد المسيح ومريم والطاهرين تلاميذ محمد، قالت: "أنت تبالغ يا بني"، فقلت: إن السجن فيه من كل البشر وكل الألوان، فينتج ذلك ضرورة حالة من التفاعل الاجتماعي، كما أن المناضلين هم بشر قبل كل شيء؛ لهم احتياجاتهم وكذلك نزواتهم. نظرت والدتي إليّ وكأنني أحاول إيصال رسالة مشوشة ...أثارني ذلك، فصرحت لها قائلاً ...هنا كأي مكان يعيشه الإنسان محرومًا، خذي- مثلاً – حين أنظر إلى التلفاز، أول ما يلفت انتباهي أنثى جميلة تداوي جوعي لها، وإن حصلت عليها تتفاعل أضدادي نحو عطشي الجنسي، فأبحث عن أيّ إشارة تثيرني، فأغدو باحثًا في ثنايا جسدها عن إيحاء جنسي يأخذني حدود التيه، كبروز نهديها، أو إن كانت قد أضاعت حدود تفاصيل جسدها فبان من تحت ثيابها مكان حلمتيها، فأرسم مشاهد الجوع الوحشي لواقع تعيشه حتى دون قدرة على إعطاء مقدمات تتوافق مع ضرورات وجودك البشري قبل أي شيء...

منذ تلك المحادثة لم أعد قادرًا على إخفاء الكثير من تفاصيل السجن، خاصة فيما يتعلق بموضوع الجنس، عندما تتحول إلى إنسان يرى بالأنثى مساحة لإشباع غرائزه، من الضرورة الوقوف والعودة إلى الوراء لإعادة البحث عن المتغيرات التي أدت بك الى الانحطاط نحو نفق الضياع

لقيم ليست مرتبطة بالضرورة بالمناضل، ولكنها مرتبطة بقدرتك على فهم علاقتك مع الأنثى، فلطالما حصرت على إبعاد خطوط علاقتي بالأنثى عن المفهوم البيولوجي للأجساد، بقدر ما كانت فهمًا للعلاقة بعيدة عن كيمياء الجسد، وتتحفز نحو الفهم لقدراتها واحترام إنسانيًا لا تفرقنا أيّ محددات، إلا أن السجن حفر منطقة بمؤامرة ليغير السلوك وإن تتغير القناعات.

سألتني أمّي ...طيّب كيف بكرة لما تروح راح تتعامل مع البنات.

– والله ما باعرف...

– يعني يا فضيحتنا بكرة ....وأخذت تضحك.

– مش لها الدرجة ...ما تخافي سأرسم مسلكيات ستبقى تؤشر باتجاه قداسة هذا المكان وقاطنيه كما دأب من خلال السجن وارتحل عائدًا إليكم.

لم يقدم مجتمع الأسرى عبر تاريخه قدرة حقيقية لفهم الأسير كإنسان؛ فقبل أعوام عدة كان الجنس والتأشير نحوه هو أحد أهم المؤشرات للعمالة والارتباط مع الاحتلال؛ مِنْ ذلك أنّ مَنْ كان يمارس العادة السرية، يوضع في دائرة الشبهة، أدّى ذلك في كثير من الأحيان الى التحقيق معه واتهامه بالعمالة، فكان المسؤول التنظيمي حين يدخل أحد للحمام يحسب وقت مكوثه، وإن تجاوز الدقائق المفترضة له سيكون قد مارس العادة السرية، وبالتالي يقع المحظور. أيّ أسير هذا الذي يقمعه الواقع بكل سادية ويأتي –أيضًا–

رفاق معاناته ليضيقوا على احتياجاته الإنسانية؟ قد يسأل أحدٌ: أيّ احتياجات هي تلك التي تريدها عند حديثك عن العادة السرية؟

صحيح يصعب على كل من لم يلج مساحات الاسمنت والحديد هنا، أن يفهم ضرورات الحياة، إلا أن واقع الأسر بكل حرمانه وضيقه الذي كنت قد هجست به عبر العديد من الهواجس السابقة لهذه السطور، يقمع الأسير ويأسره فوق أسره، فكيف بربكم تريدون أن يعيش أسير عمرًا إضافيًا من الحرمان يبعد نصفه البشري الآخر الذي يعطي الحياة معناه دون محاولات منه لتعويض هذا النقص؟ وتأتي ممارسة العادة السرية ضمن هذا السياق؛ لقد أخذ مجتمع الأسرى الكثير من السنوات حتى فهم ما طرحت في هذه السطور التي لم يتجاوز كتابتها خمس دقائق، فتنقلت ممارسة العادة السرية من تابو وخط أحمر إلى أمر طبيعي يستطيع الأسير التصريح به. إن هذا التغير والتبدل يعتبره البعض أحد مؤشرات التراجع لهذا الواقع، إلا أنني أرى فيه حتمية التطور لفهم طبيعة الأسير والمناضل البشرية من واقعه قبل أن يفهم ذلك كل مجتمعنا الفلسطيني.

في حادثة طريفة آثرت كتابتها، دخل أسير جديد قادمًا من الزنازين لأحدى الغرف التي يقطنها مجموعة من الأسرى، حيث دأب الأسرى المزاح والمرح مع أيّ قادم جديد كعنوان للتودد وتخفيف وقع الأسر عليه. استقبله أحد

الأسرى القدماء وأخذ يحدثه عن حياة الأسر وقانون الغرفة ومن ضمن ما قاله:

– نحن هنا يوميًا ندخل إلى الحمام لنستحم ونمارس العادة السرية بالترتيب..

– كيف يعني؟

– كل واحد يأتي دوره يدخل إلى الحمام يمارس العادة السرية ويستحم ويخرج ..ليست صعبة..

– أكيد بتمزح...؟

– لا ...لا أمزح ..وحين يأتي دورك سأقول لك..

بعد ساعات تقدم الأسير القديم من الأسير الجديد وأخبره أن دوره قد حان؛ دخل إلى الحمام وبعد انتهائه دخل الأسير القديم إلى الحمام وبدأ يصرخ...

– مارست العادة السرية ...وليش عدم التنظيف.. مخلي السائل المنوي على الحيط – طبعًا، لا يوجد أيّ شيء ...فقط من أجل المزاح–

ارتبك الأسير الجديد، احمر وجهه وأخذ يتلعثم بالكلام، فأخذت الغرفة تضحك، وتناقل الأسرى الحادثة بينهم كأنها نكتة الموسم.

إن هذا ما كان ليحدث لولا التغير الذي حصل في جوهر وعي الحركة الأسيرة عمومًات، إلا أن تراث الوعي والقيم لدى مجتمع الأسر يجعل من التغيير محط نقاش وجدال بجدواه وصوابيته، مع ذلك أستطيع التأكيد بأن الكثير الكثير من تفاصيل الجنس قد تغيرت هنا؛ فمثلاً حجم

تعليقات الأسرى على التلفاز، والأسلوب الفجّ في بعض الأحيان يؤشر على ذلك، كما أن المواد التي يعرضها التلفاز وخاصة التي تحتوي على مقاطع جنسية تحتل حيزًا مهمًا من حياة الأسرى، وإن اختلفت درجات تفاعلهم مع ما يبث، من التحضير لليلة فريدة إلى استراق النظر للفلم، وأقساها منع ذلك خاصة لدى الحركة الإسلامية، إلا أن هناك حوادث طريفة أكدت مدى التغير –أيضًا– لدى أصحاب التوجه الإسلامي فيما يتعلق بقضيتنا؛ فعلى سبيل المثال لا الحصر كان أحد الأسرى القدماء الذين يدينون للتيار الإسلامي يستيقظ باكرًا ويعمل على إعادة توليف محطات التلفاز من أجل مشاهدة القناة "الروسية" التي تتواجد على التلفاز بحكم السجناء الجنائيين في السجن، أو مشاهدة "dud"، كما أن الحديث في الساحات مع الأسرى من أصحاب هذا التوجه لا يقل غضاضة عن غيره في ما يتعلق بالجنس، وتتحكم بهذا– طبعًا– طبيعة ودرجة العلاقة بين الأسرى، كما أن الحركات الإسلامية تقوم بما يسمونه تشفير الجريدة العبرية؛ أي أن يقوم أمير الجماعة بطمس الصور في الجريدة، التي تظهر فتيات بلباس البحر أو نهود إحداهن باستخدام قلم أسود، فيأتي الأصدقاء من هذه الجماعات ويطلبون من الأسرى الآخرين مشاهدة نسخة الجريدة خاصتهم بطريقة سرية.

كلّ ما ذكرته –سابقًا– يؤكد التغير الحالي، إلا أن مسألة الجنس هي كضوء أحمر يضاء لدى التنظيمات

كافة، حيث ارتبطت هذه المسألة بالعمالة، ولسوف أقدم ذلك في هاجس العمالة، إلا أن مجتمع الأسرى وكأيّ مجتمع ذكوري حدثت به العديد من القضايا غير الأخلاقية التي أدت إلى عواصف كبيرة داخل هذا المجتمع، سأعمل على سرد بعض هذه القضايا التي عاصرتها زمنيًا داخل الأسر، إلا أن هدفي- وأنا أقدم هذه الأمثال- ليس الطعن بنضال وتضحيات الأسرى، بل التعرف وتأكيد أن هذا المجتمع الذكوري المغلق يؤدي إلى مسلكيات اجتماعية ذميمة مثله مثل أي مجتمع آخر، وإن النضال لا يوفر للبشر شهادات قدسية تنزههم عن المعاصي والأخطاء، مع أن هذا المنطق لن يعجب الكثيرين إلا أنني مصر عليه...

وأكبر قضية حصلت مؤخرًا داخل السجون هي ما اصطلح على تسميته "القطار"، طبعًا هذا الاسم كناية عن حجم الأسرى المشتركين بها؛ فقد ناهز عددهم العشرين أسيرًا ممن مارسوا اللواط مع أحدهم...

بدأت القصة منذ دخول أسير إلى السجن سأصطلح عليه "الضحية"، حيث اغتصب من أحد أقربائه قبل دخوله الأسر، فشكلت الحادثة انعطافة حادة في حياته، فصنعت منه شاذًا جنسيًا، ومع ولوجه مساحات الضيق، تعرف على أحد الأسرى ممن كانوا قيادات في أحد السجون، وحدث أن أخذت علاقتهما به تتطور حتى أصبحت لواطًا. استمرت هذه العلاقة عدة أشهر، حيث كان يمارس معه

اللواط في ساعات متأخرة من الليل، وأثناء خروج الأسرى الآخرين إلى الفورة ، فيبقيان وحدهما داخل الغرفة.

انتقل الأسير الذي كان من قيادات الأسرى إلى سجن جديد، وسرعان ما قام بطلب الضحية الذي يمارس معه ليلحق عن طريق ممثل المعتقل. في السجن الجديد أخذ منطق الممارسة معه يختلف؛ فقد دخل عدد من الأسرى ممن يعملون في السجن إلى دائرة الفعل، فأصبحت الممارسة معه تأخذ طابع التتالي، في النهار يؤخذ على زيارة الغرف ضمن أسباب تنظيمية، وتهيأ الأجواء لممارسة اللواط معه، حيث يكون في الغرفة واحد أو اثنان فقط... وهكذا...

أثناء هذه الفترة تعرف الضحية على أحد الأسرى القدماء، وتطورت علاقته به إلى أن انتقلت إلى فعل جنسي، الأول صرح بأن الأسير القديم مارس معه اللواط بلعق قضيبه، أما الأسير القديم فقد صرح بأن الضحية قام بلعق قضيبه فقط عدة مرات، بعد ذلك انتقل الأسير الضحية إلى سجن آخر، عند وصوله كانت هناك إشاعات وحديث يتداول بين الأسرى عن شكل العلاقات المشبوهة التي يدخل بها الأخير، فسرعان ما قام المسؤولون وقتذاك بتكليف أحد الأسرى الثقات بمتابعته...

إلا أن الانحراف سرعان ما أخذ يذهب بعقل الأسير المسؤول إلى اتجاه ممارسة الجنس، وهكذا أصبح يمارس معه، ولم يقتصر عليه فقط، فقد تطورت عملية الممارسة

حتى شملت العديد من الأسرى ممن أمضوا سنوات طوالا داخل الأسر، ومن أسير إلى آخر حتى وصل عدد الأسرى المتورطين بالقضية ما يقرب العشرين. ممارساتهم – بالأغلب– ليلية في وقت متأخر، وحين يأخذون بالممارسة يكممون فمه لكي لا يخرج أصواتًا ..بعد تطور القضية تم نقل الأسير الضحية إلى قسم آخر حيث اتخذت إجراءات من قبل القائمين، بحيث لُمّت تفاصيل القضية ولم يُثر أيّ حديث حولها؛ فالمتورطون جزء منهم كوادر، فحرصوا إدخاله غرفة من الأسرى الموثوقين جداً ...إلا أن الأسير الضحية كان قد انتقل إلى حالة متطورة من شذوذه، فبعد انقضاء عدة أيام، يسهر أحد الأسرى على دراسته حيث يتعلم في الجامعة المفتوحة، تقدم منه الأسير الضحية وطلب منه الجلوس، كانت الساعة متأخرة...

– لقد حلمت البارحة حلمًا، أنا مبسوط منه بس إنت راح تزعل.

– لا مش راح أزعل، احكي شو حلمت؟

– أكيد ما راح تزعل؟

– باحكلك لأ...

– حلمت إمبارح انك بتمارس معي الجنس من الخلف..

ما إن سمع الأسير ذلك حتى أخذه إلى داخل سريره وأخذ يمارس معه الجنس بشراسة. بعد انتهاء الجولة الأولى، لم تكن قد هدأت غريزته، فعاد ليمارس معه مرة

أخرى، وأثناء الممارسة أصدر الضحية تأوهات عالية الصوت، فاستيقظ من كانوا بالغرفة وألقوا القبض عليهما متلبسين أثناء الممارسة. ضربهما الأسرى... اتخذ قرار بإخضاع الأسير الضحية للتحقيق فاعترف على مجمل التفاصيل آنفة الذكر، وكذلك أسماء كل من مارس معهم، وعلى إثر ذلك اتخذ التنظيم المعني إجراءات عقابية قاسية بحق كل من شارك بهذه القضية.

بمجرد سرد تفاصيل كهذه، لا بدّ لنا العودة لدراسة أسباب حدوث تلك الأفعال داخل مجتمع الأسر: من جهة هو طعنة واضحة لقدسية الأسر، ومن جهة أخرى هو وثبة جريئة باتجاه تشخيص الانحرافات لكي يتم تجاوزها، فليس بالعقاب وحده يكون الردع؛ إذن علينا فهم جذور وأسباب حالات كهذه ، والذهاب نحو علاج جذورها، لدرء أيّ مخاطر قد تتلاحق بعد ذلك؛ لان استخدام أسلوب القفز عن الأحداث وكأنها نزوات فقط، وعدم الاعتراف بالمفاعيل الأساسية سيؤدي- بالضرورة- إلى ظهور أحداث كتلك؛ فهذه القضية لم تكن الوحيدة إلا أنها أكثر القضايا شهرة وأكبرها حجمًا نظرًا لعدد الأسرى ونوعيتهم. فالسؤال هنا: ما هي جذور وأسباب حدوث ذلك؟

إن الأسير الضحية- الذي آثرت تسميته كذلك- حدث وإن تعرض للاغتصاب قبل دخوله الأسر، فهو إذن ضحية مجتمع مغلق يعاني الكبت والحرمان الجنسي، فباغتصابه وعدم توفير إمكانية معاقبة الجناة أولاً، ومن

ثمّ توفير العلاج النفسي والمعنوي لطفل يتعرض لمثل هذه الحادثة، فإن المجتمع –أصلاً– يتحمل مسؤولية الشذوذ الجنسي؛ فابتعادنا الدائم عن الخوض بالمظاهر المؤلمة التي تؤشر باتجاه تحلل الروابط الاجتماعية بظهور مظاهر كهذه تحت مسميات العيب والفضيحة، لذلك كان لا بد لنا من الاعتراف بتحمل المجتمع الخطأ الأول، ومن ثم غياب دور العائلة، التي تعد الحلقة الأولى في الأمان الاجتماعي لأيّ مجتمع. فكيف لنا تصور حدوث فعل مريع كالاغتصاب، ولا يستطيع ابن عائلة ما الشكوى لها ومطالبتها بالدفاع عنه؟.

بوضع السببين الرئيسيين في واجهة التشخيص، نعود نحو واقع الأسر، حيث يتبادر لذهن أي متفحص سؤال مهم: كيف يحدث انحراف كهذا داخل واقع يؤمه المناضلون والثائرون؟ بداية، لطالما ركزت أثناء كتابة الهواجس على فكرة أنسنة السجن، بالاعتراف أن مريديه وقاطنيه هم –بالأساس– بشر، لذلك يحبون ويكرهون، يخطئون ويصيبون، وبما أنهم كذلك فهم عرضة للتشوه المفروض عليهم من واقع المكان، حيث يقبع الأسير سنوات طوالا في مجمع ذكوري مكبوت، ودون تحصين فعلي، فمن منطلق تعامل الجميع مع الثائر باعتباره قديسًا، فإنهم يتجاوزون ضرورة ممارسة التحصين ضد الانحرافات التي يفرزها واقع الضرورة، وهكذا يصاب الأسير بالتشوهات النفسية والاجتماعية دون الاعتراف بها خوفًا من تحطيم

صورته، وكذلك، لأن مجتمعه لا يفهم ضرورات ذلك، إلا أن مسألة الانحراف هذه فردية أكثر من كونها سلوكًا جماعيًا، حتى لو ظهر ذلك بتورط عدد من الأسرى بالقضية المذكورة؛ فواقع الأسر كظاهرة اجتماعية يحافظ حتى الآن على محددات قيمية لم يتجاوزها، عكس صورة مجتمعات الأسر الأخرى التي تحدث بها هذه القضايا كأحد مؤشرات تفاعل طبيعي، وذلك نتيجة التركيز القيمي لقضية الأسرى، بما أنهم أصحاب قضية حيث وقْع القيم و دور التنظيمات الذي يعطي نسيجًا مختلفًا لأدوار وجود الأسرى الاجتماعي.

هكذا يكون الأسير الضحية أساسًا هو كذلك، وكذلك الأسرى الآخرون المتورطون في القضية هم ضحايا واقعهم والفهم الخاطئ لدورهم، وكما هم- أيضًا- جناة، فهم في الواقع وانعكاساته على الإنسان كظرف موضوعي لا يسقط المسؤولية للعامل الذاتي، وإن اعترفت بالتأثير والتأثر القائم بينهما، إلا أن العلاقة هذه ضرورة تؤشر نحو تبادلية ما زالت تؤثر بالوعي الجماعي لواقع الأسر؛ فحين يأتي الموضوع على انحرافات خطيرة كهذه، علينا تحصين الذاتي إلى أقصاه لدرء أيّ مظاهر تنتج كسلوك بشري، لذلك هم جميعا يتحملون مسؤولية فقدانهم بوصلة الانضباط القيمية والمعبر عنها بشذوذهم الجنسي وقبولهم الانحطاط القيمي الذي أشارت له القضية.

في قصة أخرى وإن أخذت منحى آخر، قضية

"تحرش جنسي "بأحد الأسرى صغار السن من قبل أسير مكث عمرًا داخل الأسر. تفصل إدارة مصلحة السجون والأسرى الأطفال، أيّ ما دون الثامنة عشرة، عن باقي الأسرى، وحين يتخطى الأسير حدود الثامنة عشرة، يُنقل إلى أقسام الأسرى الآخرين، وقد دأبت الحركة الأسيرة تسمية أقسام الأطفال بأقسام "الأشبال" كرمز لهم ولدورهم المستقبلي في النضال.

بدأت حيثيات هذه القضية مع انتقال أحد الأسرى من أقسام "الأشبال" إلى أحد السجون. بدخول الشبل تغيرت معالم اهتمام الأسرى من حوله؛ فالغرفة أُدخل إليها أغلب قاطنيها ممن لهم سنوات داخل الأسر، في كثير من الحالات المشابهة يتحول الأسير المحروم من ابنه أو حتى من شعور الأبوة أصلاً إلى حاضن وراعٍ للأشبال منذ دخولهم، هذه الظاهرة راجت داخل إطار أسَري، فتتطور العلاقة كأب وابن، وهكذا صار عند دخول الشبل تلك الغرفة، فالنزاع ارتد نحو من سيحتضن الشبل ويرعاه؛ فهذا يجلب له كميات كبيرة من الحلوى عبر الكنتين، وذلك حذاء وهذا يعطيه شيئًا آخر ...داخل الغرفة كان هنالك شخص من الأسرى له أسبقيات شذوذ جنسي، فأخذ يتقرب من الشبل ويجلب له سجائر وحلويات ...يجلس معه لساعات يناقشه عن السجن وأحواله، وتدريجيًّا أخذ يحرف حديثه نحو الجنس: "الليلة في فلم خليك صاحي بنحضروا مع بعض"، "هاي صور لصاحباتي كنت أمارس

معهن الجنس من الخلف"، ..الخ..

في صباح أحد الأيام همّ الشبل بعد انتهاء العدد الصباحي بالخروج لفورة الرياضة، فبدأ يبدل ملابسه، أثناء ارتدائه "شورت" الرياضة، وقبل إحكام رفعه فوق ركبتيه قفز الأسير نحوه" ..لا تخاف ...إنت ما بتعرف السجن هذا شيء عادي .."خاف الشبل من الصراخ لكي لا يستيقظ أحد من الغرفة، وأخذ يبعد الوحش الهائج عنه فلكمه، إلا أن الأسير أصر على اغتصابه، وبدأ يجره نحو حمام الغرفة وبقى الشبل متمنعًا رافضًا، وبعد أن فشلت كل محاولاته سأل أحد قاطني الغرفة: "ماذا هناك؟"، فرد الاثنان لا يوجد شيء... في نهار اليوم نفسه توجه الشبل إلى الأسير الذي استيقظ على الجلبة وأخبره بما جرى، عقدت جلسة داخل الغرفة، واتضح أن هناك تواطؤًا بين أركان الغرفة، فلم يتخذوا إجراءً قاسيًا بحق الوحش الذي انفلت من عقاله، وجرموا الشبل بأنه قام بإغراء وفتن الأسير.

انتقل الشبل إلى غرفة أخرى ...وسرعان ما عاد الأسير لسلوكه مع شبل آخر، وبالطريقة نفسها متسترًا خلف الرعاية والاحتضان، إلا أنه هذه المرة جلس مع الشبل الجديد، أخذ يريه صور الألبوم خاصته، وأثناء حديثه مدّ يده من أسفل شورت الشبل وأمسك بقضيبه "لا تخاف ...هذا شيء عادي في السجن"، إلا أن ردّة فعل الشبل هذه المرة كانت قاسية فلكمه على وجهه وصاح

به "راح ألعن أبوك يا ".....ولكمه مرة أخرى ...وكما المرة السابقة، تم إغلاق القضية بالأسلوب ذاته، غير أن المسألة تعدت إمكانات الكتمان لانحراف الأسير هذا، وكذلك سلوكه غير الأخلاقي ...فقام اثنان من الأسرى وفي تصرف فردي بعيدًا عن أي قرار تنظيمي بإدخال الأسير إلى إحدى الغرف والاعتداء عليه بالضرب حتى كاد أن يفقد حياته، وفي حديث مع أحدهم صرح أن غياب دور الجهة التنظيمية المسؤولة، وكذلك شكهم بتواطئها أجبرهما على فعل ذلك . .وهما يقومان بذلك تلبية لنداء القيم والأخلاق التي ترعرعوا عليها في كنف واقع الأسر... بعد هذه الحادثة تم اتخاذ إجراءات عقابية قاسية بحق كل من تورط بالقضية السابقة، إلا أن الأسيرين الذين أخذا على عاتقهما ضرب الوحش المنفلت من عقابه عوقبا – أيضًا– عقابًا شديدًا لتجاوزهما الحالة التنظيمية، والتسبب بالضرب دون قرار ..وأغلقت القضية على ذلك...

ومن خلال شرحنا هذه الحادثة –أيضًا– يتضح لنا هنا أربعة أبعاد مهمة هي:

أولًا: التشوّه الذي يصيب الأسير نتيجة واقع الأسر، إلا أن هذا العامل الموضوعي ليس وحده الحاسم؛ فالاستعداد الذاتي لقبول الانحراف القيمي له دور مهم جدًا، لذلك تظهر هذه الالتواءات القيمية عند فئة قليلة داخل مجتمع الأسر، فالأغلب يحسم تناقضه الداخلي منتصرًا لمبادئ وقيم ما فتئ يرفعها لواءً لوجوده ونضاله.

ثانيًا: خطورة انفلات عقال أيّ من المنحرفين الذين يقبلون بتشوههم دون رقابة ومحاسبة، لأن عدم الوقوف الجاد أمام الأسير المذكور يؤدي به إلى تكرار فعلته.

ثالثًا: صحيح أن تراجعًا حادًا أصاب واقع الحركة الأسيرة، إلا أن الأغلبية الكبرى من قواعد هذه الحركة ما زالت منتصرة لقيم ومبادئ لا يُقبل إلا الذود عنها، وحتى لو كان بفعل فردي يؤدي إلى عقاب كما حصل مع الأسيرين المذكورين.

رابعًا: لا مبررَ لغياب دور الفعل الجماعي، فمثل دور كهذا سيؤدي إلى كوارث حقيقية داخل مجتمع مغلق، انتهاءً من هذه القصة لا بد من الإشارة بما أن المشكلة نفسية، فهي بحاجة لعلاج ضمن هذا الإطار، وبالتالي هي تحتاج إلى بيئة، ووعي عالٍ الجودة في هذا الحقل، فلا الضرب ولا الإهانة وحدها تعالج انحرافات كارثية كهذه.

لا بدّ من الإشارة الى أن هناك أحداثًا كثيرة حصلت داخل مجتمع الأسر، تتدرج تحت هذا الإطار، إلا أن عدم ذكرها –هنا– عائد إلى سببين أولهما عدم حدوثها أثناء الحقبة الزمنية التي عشتها أنا دخل الأسر، وثانيهما أنها تدور في فلك ما رويته من قضيتين: إما ممارسة اللواط، أو تحرش جنسي على الطريق نفسها ...

لا داعي للهلع من حقائق كهذه؛ فالنضال وصورته –تحديدًا– كفكرة شمولية لن تطال التشوهات؛ لأن الهدف

هو أنسنة النضال أصلاً، وعكس حالة التأليه المدمرة إن كانت على صعيد الوعي الفردي، وحتى على صعيد السلوك الجماعي، وما بينهما إدراكًا مهمًا في ثنايا المكان وإسقاطاته على أي ذات تعيشه. صحيح أن الأغلبية هنا لم تصل بهم التشوهات إلى حد الانحراف بالمسلكيات الفظة، إلا إن الحرمان واستمراريته يؤديان حتمًا إلى تغيرات في المسلكية؛ فالمسافة بين الوعي والمسلكية هي كالمسافة بين النظرية والتطبيق، والإدراك لطرفي التفاعل هذا هو حدود الهدف المرجو.

إن ذكورية السجن ومنطق حرمانه لوجود الأنثى لسنوات، سيؤدي –ضرورة– إلى تغيرات مسلكية، وفضحها سيساعد الأسير على رصدها وفهم آليات التحكم بها. أما إخفاؤها والإصرار على عدم حدوث ذلك فهو كما الوقوف على حافة وادي سحيق دون خيار لك إلا بالقفز نحو مصيرك المجهول ...فأسفل الوادي مكان جيد ليقبع فيه من مروا في الحياة دون قدرة على الصراخ ولو بالحد الأدنى بِـ "لا."

مع سماعك كلّ هذه الأحداث والحكايا في مكان سيبقى سرًا دفينًا لها، إلا إن صُرح لهذه الأوراق أن ترى النور كتابًا، سيبقى الجنس وتفاعلاته أحد أكبر القضايا التي تهجس بالأسير هنا، وخاصة أنها مرتبطة مباشرة بهاجس آخر سآتي على ذكره هو "هاجس العمالة ..."إذن. هي كلمات تحلم بأن تصبح تنهيدة يسمعها أحد، يحاول

اشتقاق طريقه نحو مبادئ تؤسس قضية نبيلة كفلسطين، وكما تحاول –أيضًا– رفع المسؤولية المرهقة عن عاتق من مرّ داخل مساحات الاسمنت، وفضل عدم السكوت وكتمان الفضيلة... كالشمس سيبقى كلامك حارقًا ما دمت تحملين لنا حقيقة وجودنا ..وآهات كلّ من يذرفون العرق في مواسم الحصاد.

## هاجس الألبوم والصور

ينطلق الفرح شاقًا ديجور المكان، يؤدي دوره الضروري بحياة بشر هم –بالأصل– حكاية صمود ونضال. تفتش عن كل الإمكانات المتاحة أمام سدّ تفاصيل واقع يضغط بضيقه على أرواحهم، فيجعل من صدورهم وهما لا يبارح الفتك بمشاعرهم بين انتظار سقوط الرحمة المؤجلة والفرح الصارخ بالوجع. يبقى من أصر على المضي منطلقًا مع أسراب اليمام، يداعب تيارات الهواء ببرودها المحبب على عهده، حتى لو أطلّ في عنان السماء خطر داهم..

كم من حروف تذهب معك حقول الأبجدية تحاورها وكأنها تدك الصعب على الكسر! تكتشف ضعفك أمام انتهائها الدائم نحو المذهل؛ حرف هنا وآخر هناك فوق تلة المستحيل يداعب آخر يشق طريقه نحو الحياة؛ أبجديتك هي بيت القصيد ومهبط الوحي الأخير، فلنسقْ أحلامنا

نحو انتفاضات حروفها، حتى بخسائرك أنت أفضل حارس سري لها، فالشمس إن طال فراقها إلا أنها حاضرة بفعل الغد المأمول، يا من أراد الموت عبثًا دون كلام ارجع حيث عليك إعادة ترتيب ميقات أولوياتك. فما الإنسان غير عابر للمساحات وإن أراد ترك أثر، فعليه اختيار قضية في حياته، وفي مثل واقع الأسر قد تصبح القضية الهدف والوسيلة للموت والانتهاء ..ممن يريد البقاء إذن ...!

إن هواجس الأسر عديدة مفارقاتها بحجم تأثيرها في الأسير ذاته؛ فمثلاً، ما أناقشه في هاجس الألبوم والصور هو حالة فريدة لقيمة الصورة في مساحة الإسمنت والحديد وكيف تنتقل إلى مشكاة من الأمل والفرح المؤجلين. لذلك سأقدم قبل الخوض بتفاصيل ما أريد قصة قصيرة تحت عنوان "أصالة "كنت قد كتبتها قبل فترة من الزمن وهي بالمناسبة حدثت فعلاً مع أحد رفاق المعاناة.

في جلوسك الأخير يأتيك المشهد سريعًا لحياة كانت لك يومًا، كأنها عقد من اللؤلؤ ينفرط على عجل ويصعب جمع مكوناته. سيكون المشهد وقتذاك تراجيديًا لدرجة أنك تعود بالفرحة الأولى حدود سكون الوجع الأخير لأمّ ينبت من أحشائها جنين آخر، لتعود صيحات الحياة مبشرة بربيع سيطول بعض الشيء؛ ففي منظر اللا منظر هذا يكون المكان المفضل دائمًا حدود دولة تعودت تهجير من سكنها بفراق الأحبة الخالدين دومًا...

وهنا في خضم جدل الأيام للأيام دون اكتراث

لسرق الوقت من كينونة الانتظار غصنًا، ليستفيقَ مع تفتح أول ساعة تقضيها مع حيطان أول زنزانة تصادفك هنا، ومع كل ساعة تأتي زنزانة جديدة تحمل معها حكايات من عالم اللا حكايات، هذا العالم الذي سننال منه صفاء الوفاء بالعهود فقط، دون أن نسمح للبقاء على شوائب الأيام هنا .جدل يناغم جدلا بعقم واقع بالضرورة ليس لنا.

تهاجمني الأفكار كعاصفة نيسان الأخيرة دون سابق إنذار، قد يكون الجنين وقد يكون الحرمان، وقد يكون ذاك وهذا سبب آخر في لعبة الأيام هذه التي لن تنقضي دون المرور بأربعة وعشرين خريفًا، للعودة الأخيرة حين يأتي الربيع بعد آخر شتاء يمر هناك مبشرًا لا متشائمًا لمرور سنوات العمر هنا؛ فعودة الحنين للحرمان نبوة سأمسح من كعوبها حين أصل هناك، منديل يوضع تحت أحلام الرجوع دائمًا ..وأطير مسرعًا نحو وعد الحياة الخالد ... ابنتي أصالة كلّ ما تبقى لي من عالم الحب والحنين حيث يسير العمر مبشرًا بنضجها، وأنا بعيد لا أستطيع لمس ظفيرتها الذهبية التي يداعبها النسيم صباحًا، وتهدهد لها أمّها مساءً، لقد كبرت أصالة على حين غرّة ولم أكن أتخيل يومًا حنين الأب لابنته سيكون وجعًا ممتدًا لحدود الصمت ..وكان دائمًا الصمت في زمن الكلام، ألوهة.

كما كان شوقي للحياة وبالحياة غزيرًا... وكم كان صمتي عل صراخ الأيام بالفراق عفيفًا... ولك السلام يا أصالة من الحب والصمود لنا "أنا وأمك "أن تصلي

علنًا مع الندى نطوي صفحة الوجع بعيدًا ..وأمسك يديك لأهديك جوهرة بلون الشفق تمقتها مع الوجع هنا، كم حلمت يا صغيرتي، بمسك يديك والذهاب للمدرسة... كم حلمت يا صغيرتي، بمسك يديك والذهاب للمدرسة برحلة السعادة والأبوة المقدسة... وكم كنت أحلم أن أكون معك حين تتسلمين شهادتك ...وكم كنت ولكن... فراغ الأمنيات وجع يقطع واقعًا لا ينفع إلا الحقد معه.

لم أستطع الكف عن التفكير، وإعادة صياغة الماضي المشوّه بداخلي منتظرًا عودة صديقي من زيارة أهله لأسمع منه أخبار عائلتي التي لا أستطيع زيارتها منذ حوالي العام، أعددت كوبًا من الشاي لمحاولة استنزاف الوقت المقيت، فأكثر الدقائق المرهقة في حياة الإنسان هي التي يقضيها على حافة الانتظار ...فما بالكم حين يكون العمر كله انتظار؟؟

– عاد الزوار يا شباب ...

– مبروك الزيارة .....

– مبروك ...مبروك

– الله يبارك فيكم جميعًا..

– شو أخبار الأهل والخارج؟ شو عاملين بالحياة؟؟

– شكلك مبسوط يا أسعد ...هات احكي لنا عن أخر الأخبار.

– إن شاء الله راح أحكي لكم جميعًا، شوي بدي أعطي أبو أصالة صور بعتوها أهله..

– قفزت من مكاني، انتزعت الصور من يده بعد رحلة مشاكسة اعتدتها منه دائمًا، أخذت أقلبها محاولاً التعرف إلى ساكنيها؛ فالصور بالنسبة للأسير بيت تسكنه الأحلام من اللقاء، وأجساد مَنْ ترنو للمسهم، وتحمل الصور الحب بالحزن، الشوق بالمقت، الحياة بالموت؛ جدليات لا يفهمها غير أسير يمسك صورًا قد دخلت له من عند الأهل، من بين مجموعة الصور كان هناك صورة غريبة لم أتعرف إلى صاحبها ..فأعدتها لصديقي أسعد.

– اسمع يا أسعد، هذه الصورة ليست لي..

– كيف يا أبو أصالة، أمي حكت لي كل الصور إلك؟؟

عدت بعد أن أعطيت الصور الغريبة لصديقي، سافرت مع أهازيج الفرح الممتد من هناك حيث الأهل إلى هنا ووجع الواقع وسنوات ضياع لا تحمل غير الوفاء بالعهود، وصبر الحرمان الأزلي في أخر محطة نعاهد الوطن بها؛ هناك أهل وهنا أصدقاء انصهروا بوجع المكان من المكان على المكان، ومضى حب الحنين للعودة يداعب صورًا تهادت شاخصة أمامي لأيام الصفاء هناك ...ولكن.

سرعان ما زاد الفراق فراقًا حين اكتشفت أن السنين هتكت من عمر أهل انتظروني ومازالوا يعاهدون زهر اللوز في آخر ربيع كنت به هناك، وينسجون من البنفسج وشقائق النعمان رداء الانتظار الخاص بهم، ليدثروني حين

العودة المنتظرة. صمت ساد في ساحة الآلام، وحضور الذكريات سخيًا كشنين المطر الممتد حبالاً من سقف السماء حتى سفوح البسيطة الخضراء، تأملت لحظات، عشت الماضي من جديد ليكون مشكاة من نور تشع وسط ظلام المكان هنا.

فأنت .....أنت ستكون دائمًا رغم السجن والسجان، مستيقظًا من تيه الذكريات وأحلام اليقظة هاجمتني... رويدًا ..رويدًا تنتزع الواقع الأليم من أمامي، تحملني حدود استزاف الصور التي هبطت أمامي من كف أسعد هذا الصديق الذي تعرفت إليه هنا وسط المعاناة في أحضان آخر الأوجاع التي مررنا بها، ولكن كما كنا وسنبقى دائمًا نصنع الفرح ساعات نزين بها جدران زنازيننا، لنكتب آخر صيحات البقاء بشيرًا دون مساس بإنسانيتنا ...فهذا حالنا قد يكون ..ولكن.

العواصف لن تثنيني من الصراخ عاليًا، ولن تزحزح الأرض عن استنباط ربيع آخر حافل بالزهور التي ستزين بها عودتنا حتمًا، ولكن سيكون الفرح مؤجلاً بعض الشيء، وفي الانتظار هتك السنين للسنين فينبت الشيب وينقشع الشعر مغادرًا مقدمة الرأس، وكأنها هزيمة أخرى تمنن بها معركة الانتظار هذه، كآخر سنبلة تسقط مبشرة بغابات من السنابل، وهكذا بسنبلة أخرى ستكون فداء وطن سجين... غياهب حقد الظالمين الذي تعودوا امتصاص الحب وزرع الكراهية بحقل البقاء هذا.

– يا صاحبي أبو أصالة وينك يا زلمة ؟
– أفكر بالأهل، وخاصة أن هذه الصور التي جلبتها لي أخذتني إلى هناك ..بعيدًا.
– هوّن عليك يا صاحبي ..شو بدنا نعمل "يلعن السجن وأصحابه. "
– لا عليك، أنت تعلم أن هذه الحالة يمرّ بها كل أسير يحصل على بطاقات الفرح هذه.
– والله صحيح، في هون صورة إنت رجعتها وحكيت إنها مش إلك؟
– صحيح لم أتعرف إلى صاحبها، فهذه طفلة صغيرة .ولا أعلم من تكون ..
– أنا سألت الشباب وما في حد بعرف لمين هاي.
– شو رأيك يا أبو أصالة تتأكد من الصور ..أمّي حكت لي كلّ الصور هاي إلك.

أعطني إياها ..نظرت مطولاً وبدقة أكثر هذه المرة ..علّي أخمن لمن هذه الصورة! رحت أتفرس ملامح هذه الفتاة الصغيرة، ساكنة كوجه الماء الصافي، فيها حب وحنين وبراءة، شعرت لحظتها بأن هناك إحساسًا داخليًا غريبًا، كأن رابطًا يجمعني مع هذه الطفلة.

بريئة كملاك حط من هناك بعيدًا بعيدًا ..ففي السماء لا أظهر من هذه الريحانة، سكون وصفاء عجيبان، عبثًا أحاول تصوير هذا الملاك؛ فقد يفقد قدسيته حين يتجرأ القلم تشبيهًا له، أو حين يحاول شاعر موهوب وصفه،

حتى محمود درويش ملك اللغة والشعر نفسه سيعجز أمام حضور هذه الطفلة ..في داخلي شعرت أنني أخون طفلتي أصالة وأنا أتغزل بهذه الطفلة... وبدأ التناقض بين وفاء الأب ومشاعر غريبة.

صغيرة كأول زهر اللوز، حين يداعب خشب شجرة ممتدة في أصلها أعماق الأرض، لحن يعجز أيّ موسيقار عن تأليفه، قد تكون زهرة بنفسج، زئبق، ريحان ..لا ... بل نحلة تطير من زهرة إلى زهرة، وفي نهاية يومها تتفتح النحلة زهرة فريدة لتجميع كلّ جمال أزهار الكون أمام ناظريك، هل يعقل أن يتفتح النحل زهرًا؟! قد يكون .. ولكن كلمات العجز عن الوصف أصدق وفي حضرتها ينحني كل زهر الكون.

– أخي أسعد ...أعطني ألبوم الصور خاصتي .

– خذ .هل تعرفت على البنوته في الصورة؟

– بصراحة حتى هذه اللحظة لم أتعرف عليها، ولكنني أريد أن أحاول محاولة أخيرة.

– شو راح تعمل يا أبو أصالة؟

– سأقارن الصور خاصتي مع هذه الصورة .. عندي شكوك... حين بدأت أشاهد صور ابنتي، لأقارنها بصورة هذه الصغيرة..

صمت ...صمت ..

وهناك في مقلة العين جاء الخبر الأول ..إنها أصالة.

انتهت.

هذه القضية حدثت فعلاً وإن لم تكن الوحيدة التي تدلّ على حجم معاناة الأسير، وخاصة عندما يحرم من الزيارات لأتفه الأسباب سنوات؛ فالطريقة الوحيدة للتواصل بينه وبين أهله الصور، فمن جهة تسمح إدارة مصلحة السجون بتصوير الأسير مرة كل سنة، وكذلك تسمح للأسير إدخال ثلاث صور عن طريق زيارة الأهل، وتسمح بدخول الصور عن طريق البريد عبر الرسائل، فكيف لا يكون للصور مكانة غير عادية بمكان يفرض التواصل مع الأهل والأحباب فقط عبر الصور؟.

كان يمكن أن تكون الصور قضية هامشية في حياة الأسير، ولكن عندما تحتل مكانة كهذه تنير دروب المقارنة بين قيمتها داخل الأسر وهناك خارجًا؛ فالصورة خارجًا للذكرى تأخذها كاستقطاع سير الزمان، مخلدًا لحظات لن تتكرر عبر الحياة؛ فالذاكرة صور نحتفظ بها في يوم يعج بالفرح والذكريات ...في السجن تكتسب الصورة مكانة مختلفة، فوظيفتها ليست تخليد لحظة سعيدة، بل هي وسيلة تواصل واعتراف بالجميل وإشعار وجود، فالأسير –مثلاً– حين يغدو صورة تزين أحد جدران البيت، ويغيب فعلاً لسنوات قد تطول عمرًا كاملاً، ليعود محملاً على الأكتاف، لن تكون الصورة حتى للأهل بمكانتها العادية. نفسها.

فإن يغب عن أبنائه، يعرفوه صورة معلقة في البيت يصعب عليهم أن يتعاملوا معه كأب من لحم ودم، وهذا

فعلاً حصل كثيرًا خلال عقود نضالنا الطويل مع الاحتلال، فمثلاً أذكر قصة لأب سجن وكانت امرأته حاملاً، أمضى في السجن أكثر من ثمانية أعوام، حيث كان محرومًا من زيارة الأهل، ولم يشاهد ابنته طيلة مدة حبسه سوى صورٍ وهي كذلك، وخلال فترة اعتقاله واظب أخ زوجته المكوث في البيت عندها، فما كان من الطفلة غير مناداة خالها بـ "بابا "، حين تحرر الأب وعاد للبيت رفضته الابنة وقالت:

هذا الغريب ليش بدو ينام مع "ماما" في نفس الغرفة؟.فكيف لي وصف مشاعر أب طعن بأبويته هكذا، وما يمثله فقط لابنته صورة لا تتكلم، فكان إذن لزامًا في حالتنا الفلسطينية أن نطور من إمكاناتنا فنخترع صورة تتماشى مع متطلبات الأمن للاحتلال وتوفير إمكانات التواصل الحقيقية.

وفي حادثة وإن كانت أقل وطأة، هي فقدان أحد الأسرى إمكانية التواصل مع أهله عبر الزيارة لحوالي عامين، وبعد ذلك سمح لهم بالحضور، كان لديه ابنه حين سجن عمرها حوالي ستة أشهر؛ لم تتقبله بعد أن أصبحت تأتي للزيارة مع أهله، فكيف ذلك والأب الذي يعلق صورة لا تتكلم على الحائط؟ يشخص أمامها وكأنها من لحم ودم ويحاول الحديث معها، مع رفضها الحديث معه رفضت –أيضًا– الدخول إلى الغرفة، بعد عدة زيارات اتبع الأسير –والألم يخيم عليه– أسلوب التقرب من طفلته تدريجيًّا حتى استطاع بعد سنتين أخريين إقناعها، وإسقاط

تبعات غيابه عنها، وأعاد ترقيم علاقته بابنته ليأخذ مكانته الصحيحة.

فالصورة للأسير قصيدة أمل يعالج البعد، وحلم يناغم الفراق كلما ضاقت الزنزانة بقاطنيها، شمس تشرق بالفرح كلّ صباح تداعب أهداب الطفولة الساكنة بين ثنايا الوهم، ولقاء مؤجل حبيس أمنية علقت بين السماء والأرض، تجدها ملائكة نحو حتفها بالتحقق وواقع مأساوي يضاعف آهات النفس بضغط كلّ قيمة إنسانية محاولاً تشويهها قدر الإمكان.

والألبوم...بيت أحلام وأمنيات كل أسير؛ فهو ذاكرة وفرح، حلم وألم، يحمل في طياته كل ذاكرة تخبو بفعل النسيان، ويؤجج الأمل كلما قادت الذاكرة في سراديبها أطراف الخيال نافضة عنها الوهم وضيق المكان وصلفه. صندوق عجائب كلّ أسير ألبوم صوره، وأقدس مقتنى لديه ألبومه الذي يحاكيه كلما ضاقت الدنيا عليه، وكأنه يؤكد بتصرفه هذا مكانة الصور والألبوم من بعدها ككتاب مقدس يخطه كل أسير مشاهدًا أساطير حياته وحكايا عائلته وأحبائه الغائبين عنه، لذلك من أهم مظاهر تفاوت علاقات الأسرى يبعضهم حتى داخل الغرفة الواحدة إمكانية مشاهدة ألبوم صور الأسير للآخر..

فحياتك وأحلامك وأمنياتك حكر لك وحدك، تقطفها كروح خصوصيتك الوحيدة، لذلك، لا خصوصية لك في الأسر غير حكايا ترتبها في حديثك، كيف تريد أن يطلع

عليها من تختارهم أصدقاء لله في واقع صداقته غير أي صداقة، فهنا لا منفعة أو مصلحة لأحد على أحد، لذلك تأخذ الصداقة أنبل معانيها وأصدقها، وهي أكثر الصداقات رسوخاً وإن كان لهذا المعنى إسقاطات عدة.. إلا أن أهلك هم المشترك الوحيد بينك وبين ذاتك، لا تسمح لأحد الولوج إليه غير من تقرر إدخاله أنت.

وإلى أن يأتي وقت وتنال الصور والألبوم خاصتي حريتها سيبقى معناها فريدًا، ومكانتها غير أيّ مكانة، إلا أن أحد الأسئلة التي تؤرقني حول بقاء مكانة الصور ذاتها بعد التحرر: هل ستبقى الذاكرة الأسيرة تحمل مكانة الصور أيضاً؟! إلى أن يأتي التحرر سأكون قد حسمت تساؤلي ويكون الكثير من الهواجس خاصتي قد أخذت تتلاشى بفعل الواقع. إلى هناك سأبقى أداعبها بالتوائها المحبب والمرهق.

## هاجس العمالة

تمضي بك الساعات تلاحق بعضها بعضًا، تطوي العديد من أحلام كنت تود لو تستطيع إتيانها من جهة أخرى لتصبح بين يديك حقل ربيع يتفتح معلنًا قدوم فصل الخير والبركات، تدخل مساحات الأرض مع تفتح الربيع فتكتشف أن خلود الأخضر لم يكن دون وجع يحيكه الدرب الطويل لصيرورة الحياة. دائرة وإن اكتملت تحمل معها آلام مخاض زهرة تزين طرف الحقل، وأخرى تحاول قطفها

لتقدمها عربون محبة وأكثر...

كلما أوغلت داخل معاني التفاؤل تتضح أمامك العديد من مفردات تظل الصورة، نازعةً عنها عفتها الأولى ..محاولة طيّ نقائها بجعل مفرداتها حبالاً تزيده الأيام طولاً مع كل إشراقه شمس يوم آخر في مساحات الضيق هنا، هذه البقع البشعة بالضرورة تشكّلها أضداد الألوان وأحداث مساء لم يأت بعد. بعد كل ما ذكرت من هواجس هذا المكان كنت أقترب رويدًا رويدًا من الحديث عن العمالة كهاجس وإن لم يكن هو أحد ميزات واقع الأسر، إلا أنه من أهم نتائج الأضداد بتفاعلها هنا؛ فالعمالة هي داء يصيب كل حركات التحرر والشعوب التي تحت الاحتلال، إلا أن مفهوم العمالة ووقعها أشد ضراوة عن أيّ مفهوم كنت قد عرفته سابقًا ..هذا ليس ترفًا بل ضرورة تحتملها إمكانات المساحة في السجن.

فأول ما تصطدم به منذ دخولك واقع الأسر، مفهوم العمالة بأبشع صورها حيث كنت قد تطرقت إليه سريعًا في هاجس الوحدة عند حديثي عن "وحدة الزنزانة "وهو "العصافير "فما هي "العصافير"؟ وما هي وقع تجربتك معهم على مستوى حياتك بشكل عام؟

إن مفهوم "العصافير أو غرفة العار راسخ في الوعي الجماعي لشعبنا الفلسطيني كظاهرة يعايشها كلّ من أُعتقل ودخل معترك هذه التجربة؛ فالأب أو الأخ وحتى الأخت والأم، وقد يكون عمّ أو خال أو أحد الأقرباء

عاشر تجربة السجن وما تحمله منذ البداية في مرحلة التحقيق، لذلك، دأب مثقفون كثيرون ممن مرّوا في دهاليز التحقيق وأساليبه كتابة العديد من الكتب والنشرات والروايات تخوض في عمل العصافير ودورهم؛ حيث إنني قبل اعتقالي قرأت العديد منها، واعتبرت نفسي محصنًا ضد الوقوع في شركهم الذي ينصبونه لي تمهيدًا للاعتراف.

أذكر قبل الأسر أننا كنا جالسين في حلقة تضم مجموعة من الشبان والشابات في الجامعة، وكان لنا أحد الأصدقاء قد أُعتقل في حينه، ووصلتني أخبار بأنه نُقل إلى غرف العصافير، فأخبرت الجميع فسألتني إحدى الفتيات: ما هي العصافير؟ فقلت لها: لا تعرفين؟! قالت "يعني بدخلوا الأسير على غرفة فيها كثير عصافير و بيصيروا يضايقوه وينتقوا على راسه" انفجرت ضاحكًا ضحكة جلجلة أجواء الجلسة، وما كان للفتاة غير احمرار وجنتيها فقلت لها بعد هدوئي: "عشان هيك الأسير يأخذ معه رغيف خبز وبيصير يطعم العصافير ع شان ما يضايقوه." بعدها شرحت لها معلوماتي حول العصافير وما هو المقصود من ذلك.

وأذكر أن جميع الأصدقاء والصديقات أصبحوا يلوحون بالخبز كلما شاهدوا زميلتنا تلك...

العصافير هم مجموعة من العملاء الذي اختاروا خيانة شعبهم ونضاله، وقبلوا على أنفسهم ممارسة أبشع أشكال جرائم العمالة؛ حيث يساهمون بانتزاع الاعترافات

من الأسير عن طريق إيهامه بوجوده بين الأسرى، فيأخذ الأسير راحته بالكلام حيث يعتقد الأمان، بما أن ثقافتنا حول واقع الأسر بأنه مكان للنضال فقط، وأن المعيار الوحيد والأوحد في تنزيه ذاك أو تحقير أخر هو معيار النضال والتضحية، فسرعان ما يأخذ القادم الجديد المبادرة بكشف كل أسراره النضالية وطبيعة نشاطه ونضاله وكل تفاصيل أعماله، ليحجز مكانة اعتبارية بين عموم الأسرى. فالذين لم يعيشوا الأسر لا يعلمون أن المعيار النضالي لم يكف ولن يكون تمايزًا داخل مجتمع الأسر. ففلان الذي حكم ستة وثمانين مؤبدًا ليست له مكانة أعلى من ذاك المحكوم ستة أشهر لإلقائه الحجارة، وإنما الفارق الأساسي بين الجميع هو السلوك الاجتماعي من جهة، ومن أخرى ثقافة عامة مزروعة في وعينا جميعنا وهي حب المفاخرة وإظهار الذات، فما أن يكشف الأسير أسراره حتى يكتشف أن كلّ ما أدلى به قد نقل إلى ضباط المخابرات، الذين سرعان مايعيدونه للتحقيق، وتحت الصدمة النفسية ينتزعون منه العديد من الاعترافات.

قبل أن أكتب لكم تجربتي الخاصة مع العصافير يجب تأكيد أن هذا الأسلوب يتم تحديثه وتطويره دائمًا، لذلك يصعب استخدام أيّ مادة مكتوبة كمرشد لتجاوز هذا الشرك، فبدايات غرف العار ليست كما هي عليها كما عايشتها أثناء التحقيق، ومؤخرًا سمحت لي الفرصة بالعودة إلى زنازين التحقيق فاكتشفت تطورًا ملموسًا في

أدائهم...

بعد أن تم اعتقالي واقتيادي إلى مركز التحقيق كما وصفت سابقًا، ودخولي سراديب الظلام في تجربة لن أنساها أبدًا، كنت مقتنعًا بإمكانات صمودي وقدرتي على تجاوز فترة التحقيق منتصرًا .إلا أن "العصافير "كانت حاضرة بدورها المدمر. وكنت أحد ضحاياهم كما العديد من الأسرى، فما من أسير تسأله عن كيفية الاعتراف إلا ويؤكد لك دور العصافير، وإن اختلفت الأشكال، ولكن مضمون العمل واحد...

بعد قضاء عدة أيام داخل الزنازين وفي ظروف صعبة، أدخلت المخابرات شخصًا "عصفور "إلى الزنزانة دوره تهبيط العزيمة وبث إحساس الإحباط..

– أي شخص يدخل هنا ينكشف والصمود بالتحقيق ليس له داع..

– في قانون تامير...سمعت فيه، أي أن شاهد واحد يدينك بالقضية.

– لو لم يكن هناك أحد قد اعترف عليك لما وصلت إلى مركز التحقيق ولكانت المخابرات اكتفت بمركز الاعتقال والحصول على إفادة شرطية منك ...

هذا الدور مكشوف جدًا ...لذلك بعد أيام أدخل "عصفور "أخر أثناء الليل، يتوجع ويئن من الألم سألته عن حاله..

– والله التحقيق العسكري.
– شو يعني تحقيق عسكري؟
– هذا التحقيق فيه ضرب وشبح بقرروه للي ما بعترف.
– آها ..
– طبعاً وأنا صار لي تسعين يوم هون؟
– ممكن أكثر...

تحدث عن التحقيق وتفاصيله، كما أنه أخذ يخبرني عن قضيته، وإذا بها تشابه قضيتي كثيرًا وإن لم تتطابقا، بعدها هبّ واقفًا وطرق على باب الزنزانة، وسرعان ما فتح الشرطي باب الزنزانة، وطلب منه ولعة فأعطاه، وتبين أنّ معه العديد من السجائر؛ فمن حديثة وسجائره وتطابق قضيته مع قضيتي وكذلك محاولته السؤال عن قضيتي، عرفت بأنه "عصفور"، دعوته للنوم... وباكرًا تم أخذه من عندي...

توالت أيام التحقيق .... وأثناءها أدخلت المخابرات إلى الزنزانة رجلًا كبيرًا في العمر يناهز الخمسين، لم يسألني عن قضيتي، ولم يقدم أيّ دليل على أنه عصفور، بعد مكوثه يومين حيث كنا نخرج إلى التحقيق ونعود لم نتكلم عن قضايانا، ولم يعطني أيّ مؤشر بسلوكه للشك به، سألته حول تجاربه في السجن، أجابني أن هذه المرة الخامسة له، ومن هذه النافذة أطللت على عالم المجهول الذي ينتظرني ...وأخذ يحدثني .....

– التحقيق مش صعب، بس اليوم العصافير ولاد الحرام بياخدوا الاعتراف بسهولة من الشباب...
– والله أنا سمعت عنهم قبل السجن..
– التجربة مش مثل السمع يا إبني ...
– طيب بدي أسألك عن احتمالات البقاء هون ...
– يعني بعد عدة أيام بالتحقيق بياخذوك عند العصافير عشان يتأكدوا من كل كلامك.
– هيك أنا راح يودوني عند العصافير.
– المهم دير بالك يا إبني... وهم معروفين ما تخاف ..أي حدّ بيسألك عن قضيتك بكون عصفور..
– وأهم مؤشر عدم تبصيمك ..لأنو التبصيم بيجي بعد انتهاء التحقيق نهائيًا...
– يعني طول ما أنا مش مبصم أنا بالتحقيق ...
– أكيد يا إبني ...

بعد يوم أو يومين تم أخذي لزنزانة جديدة، هناك مكثت أسبوعًا مع اشتداد جلسات التحقيق. في آخر يوم أبلغني المحقق انتهاء التحقيق معي وأنهم سينقلونني إلى السجن؛ أخرجوني بالسيارة. وصلنا سجنًا أخبروني أنه سجن الجلمة، كنت مسبقًا أعرف أن سجن الجلمة لا يوجد فيه سجناء أمنيون، ويوجد فيه فقط مركز تحقيق .. أدخلوني إلى غرفة فيها عدد من الأسرى لم يتجاوز عددهم الخمسة... رحبوا بي وطلبوا مني الأكل والتدخين. بعدها وعند حلول المساء دخل رجلان إلى الغرفة وأخبراني أنهما

الموجه الأمني والمسؤول التنظيمي في السجن.
– أهلاً وسهلا بك في السجن.
– أنت هون في غرف الاستقبال لفترة قصيرة وبعدها ستنقل للأقسام العادية.
– طيب ليش..؟
– هيك النظام... أنت هون لازم تقدم تقريرك الاعتقالي وبعدها بنشوف شو بيصير ..
– وإيش مطلوب مني؟
– بدنا إياك تكتب تقريرك الاعتقالي..
– شو أكتب فيه؟
– عن قضيتك ..شو اعترفت شو ما اعترفت .. كل تفاصيل نشاطك..
– أها ...
– إيش شكلو مش عاجبك؟
– لا مش عاجبني أنا ...ما راح أكتب ولا شي ..لأنه ما في عندي شيء تأكدت وقتذاك أنني عند العصافير.
– هيك أنت بتتحدى سلطة التنظيم ...
– شو أعملك ما فيه عندي شي..
– شكلك شاكك فينا ..بتعرف شو عقاب مين بشك بالناس الشرفاء..
– لا والله شو ..؟
– التحقيق ..لأنه إللي بشك بالشرفاء بكون



obeikandl.com

جاسوس ..

– يا سيدي هذا إللى عندي وما في شي ثاني..

احتدم النقاش... انتصب الاثنان واقفين ، وخرجا من الغرفة، كان الخوف وقتذاك يسيطر عليّ؛ فقناعتي، ازدادت رسوخًا أنني عند العصافير ..وتحضرت طوال الليل ولم أستطع النوم... في الصباح أخرجوني وإذا الشرطة تأخذني وتنقلني بالسيارة نحو مركز التحقيق الذي كنت فيه في السابق ..وعدت من جديد إلى التحقيق..

بعد عدة أيام أدخلوني إلى الرجل الكبير بالسن نفسه الذي كنت ألتقيته وأخبرني عن العصافير..

– كيفك ياعم ..

– أنا بخير ...وأنت ...

– أنا تمام ...بصراحة مبسوط كثير..

– ليش إن شاء لله...

– بصراحة أخذوني على العصافير وكشفتهم ...

– ممتاز ...الله يثبت أقدامك ....

– بالك مطول أنا هون بالزنازين ...؟

– لا ..المسألة مسألة وقت بس.

تبادلنا الحديث... وأكد مجددًا فكرة التبصيم وأن عدم فعل ذلك يعني أنني بالتحقيق ..في اليوم التالي أخذوه من عندي ولم أشاهده بعدها قط... بعد عدة أيام أخذوني نحو مكتب في مركز تحقيق وصوروني وقمت بالتبصيم، شعرت بالنصر وانتهاء محنة التحقيق... بعدها

بيومين تم نقلي إلى قسم موجود بنفس مركز التحقيق " المسكوبية .."المعلومات المتوفرة لدي أن هناك أقسامًا للأسرى بالمسكوبية، دخلت وإذا هناك غرفتان كبيرتان في كل منهماعدد يتجاوز العشرة أسرى، مكثت عندهم أكثر من أسبوعين، إلا أنني في البداية لم أشك قط بوجودي عند العصافير، أو حتى بعدم الثقة بالموجودين، فلم يسألني أحد عن قضيتي ولا عن أي تفصيل آخر، لكنني لاحظت عدم خروجنا للفورة بشكل يومي، كما أن الوضع الداخلي غير مريح، فهناك كميات كبيرة من الأكل والسجائر .فبدأ الشك يتسرب إلى دواخلي، ونقطة التحول المركزية كانت بعد حوالي عشرة أيام حين سألني أحدهم وهو المسؤول الأمني: ماذا اعترفت عند المخابرات؟ في هذه المرحلة أعدت حساباتي كلها، فاكتشفت أن ما حصل معي مسرحية كبيرة من الرجل الكبير بالسن الذي دخل عندي الزنزانة إلى هذا الواقع، وتذكرت أخي الموجود داخل السجون؛ فقد أخبرني في حينه أن عددهم كبير داخل القسم الواحد ويخرجون فورات بانتظام، كما أن وضعهم الاقتصادي قد ساء في الفترة الأخيرة؛ فلا يتوفر لهم المال الكافي للشراء من الكانتين، فما سرّ مظاهر البذخ هذه.؟

بعد انقضاء أسبوعين أعادوني للتحقيق، فتحول التحقيق من القضية إلى كيفية كشف العصافير، إلا أنني لم أُجب، واشتد التحقيق معي، فأصبح لساعات طوال وأنا مربوط على كرسي. في هذه الأثناء أدخلوا عليّ أشخاصًا

عدة ليوم أو يومين، إلا أنني كنت قد فقدت ثقتي بالجميع، ولم أعد أثق بأيّ شخص خاصة مع التجربة التي خضتها مع الرجل كبير السن، فثقتي به كانت ستؤدي بي إلى الوقوع عند العصافير...

بعد فترة شهر تقريبًا تم نقلي إلى سجن مجدّو ..وأخبروني بأنني قيد التحقيق. دخلت إلى مجدّو وهناك كان الوضع مختلفًا بعض الشيء؛ حيث الخروج للفورة وكذلك صورة القسم أقرب للتي في مخيلتي، وبالطريقة نفسها لم يسألني أحد عن قضيتي ولا عن أي شيء يتعلق بالخارج، غير أنهم أخذوا يطمئنونني بالحديث عن أشخاص أعرفهم. بعد حوالي الأسبوع أخبروني بأن مسؤولي التنظيم سوف يأتون للحديث معي، وأنهما يأتيان ملثمين لكي لا يتعرف عليهما أحد ..... في اليوم التالي أثناء وجودنا بالفورة طلباني وذهبت معهما، دخلت الغرفة وإذا اثنان ملثمان أحدهما بالكوفية السمراء والأخر بالحمراء، ويجلس معهما المسؤول الأمني.. جلست وألقيت التحية..لم يرد الملثمان و رد عليّ المسؤول الأمني فقط.. في هذه الأثناء تذكرت رواية الكاتب وليد الهودلي "ستائر العتمة "حيث يصف طريقة انتزاع اعتراف من أحد الأسرى ...وصادفته الطريقة.. نفسها فسرعان ما صمتّ ولم أنبس ببنت شفة ..أخذ المسؤول الأمني يسألني وأنا لا أجاوب، بعد عدة أسئلة تبدلت لهجته نحو التهديد والوعيد، وسرعان دخل إلى الغرفة مجموعة من الشرطة، وبلمح البصر كنت قد

قيدت بالأغلال..وكشف الملثمان عن وجهيهما وإذا بهما ضابطا مخابرات ممن يحققان معي ..أخذا يتوعدان إن لم أعترف وأنهي ما عندي ..بعد ذلك أعيد نقلي إلى مركز التحقيق... أخذت جلسات التحقيق تأخذ شكلا أكثر قمعًا حيث تستمر بعض الجولات ثمانيًا أربعين ساعة متواصلة، وعند إغمائي وتعبي يأخذونني للحمام لكي أستحم وأعود من جديد ..بعد أسبوعين كنت قد أجهدت وتعبت جدًا .. في هذه الأثناء تفاقم وجع ساعدي الأيسر حتى أصبحت غير قادر على تحريكها، وآلامها تنخز بكل البدن نتيجة الشبح المستمر على الكرسي..

بعد إنزالي إلى عيادة السجن ..تم نقلي إلى أحد المستشفيات في القدس، أدخلت إلى إحدى الغرف لتلقي العلاج والعناية، فكنت مقيدًا بقدمي وإحدى يدي بالسرير ..في هذه الأثناء كان هناك عامل تنظيف، فكلما كان يدخل إلى الغرفة يطمئن علي ويسألني إن كنت أريد أي شيء..!

ومن وقت إلى أخر يجلب لي كأس شاي أو مشروبًا ساخنًا.. بعد يومين طلبت منه الاتصال بالأهل بعد إعطائه رقم هاتفهم ليطمئنهم عني وأن لا يخبرهم بوجودي بالمشفى، جاء بعد نصف ساعة وأخبرني أنهم يسلمون عليّ وإن كنت أريد إيصال أي شي لهم. شكرته.. أثناء الليل جاء وكنت وقتذاك لا أشك فيه قطعًا .... سألني إن كنت صامدًا في التحقيق وأخبرته أنني كذلك..

– إن شاء الله ما ضحكوا عليك العصافير ..
– لا ...رحت عندهم ثلاث مرات وكشفتهم..
– الله ينصرك عليهم ..والله إنك ذكي ..طيب كيف بتكشفهم؟

دون أدنى شك أخبرته عن الأسباب التي دعتني للشك به بالتفصيل، بعد انقضاء يومين آخرين أُعدت إلى مركز التحقيق واستؤنف التحقيق مجددًا وبعد أسبوع..

أبلغوني بنقلي إلى سجن السبع.. ولم يكن لديّ أدنى فكرة عن وجود عصافير هناك.. هذه المرة تم نقلي مع أسرى آخرين في سيارة نقل جماعية..مكثت ليلة في المعبر، وفي صبيحة اليوم التالي تم إدخالي إلى سجن بئر السبع في قسم موجود هناك... سألوني: عند أي تنظيم تريد العيش؟ فأخبرتهم أنني مستقل، إلا أنني أريد العيش عند تنظيم يساري، وهكذا دخلت وإذا بالغرفة والحياة قريبة بل مطابقة للصورة التي في مخيلتي متجاوزين كل التفاصيل التي دعتني الى الشك بهم مسبقًا ..بعد أسبوع أخبروني أن لي زيارة محامٍ، وكانت في اليوم نفسه الذي ينتهي المنع من زيارة المحامي ..خرجت من القسم برفقة المسؤول هناك وجلسنا مع المحامي ...عرف بنفسه المحامي المكلف بالقضية من قبل إحدى المؤسسات الحقوقية، كنت أسمع اسمه دائمًا أثناء محاكمات التمديد في فترة التحقيق إلا أنني لم أشاهده قط ...

سألني عن التحقيق وأخبار القضية، وهل قدمت

اعترافًا أم لا!.. وبعد انتهائه طمأنني وأخبرني إن كنت أريد أيّ شيء من الأهل... فأخبرته أن يوصل سلامي لهم وكذلك أن يخبرهم إيصال سلامي "لفلان" لكي لا يقلق حيث لا يوجد أي شيء... بعد انتهاء المقابلة عدنا إلى القسم... إلا أن المسؤول الذي خرج معي اختلفت معاملته لي... ففي اليوم التالي سألت أحد الموجودين معي وأخبرني بأنه سوف يسأله ويحاول فهم ما حدث، أثناء العصر جاءني وأخبرني أن المسؤول زعلان ؛إذ إنني أخبرت المحامي باسم شخص في الخارج، وأنا أثق بالمحامي ولا أثق به، وهنا كانت النقطة الفاصلة، فطلبت الحديث معه وبدأنا نتحدث، خلال أسبوع كنت قد أفرغت كل ما في جعبتي له ..أخبروني بعد ذلك أن اسمي جاء للنقل إلى سجن آخر ..وإذا بي أعود إلى مركز التحقيق.. فمع دخولي إلى غرفة التحقيق سألني المحقق..

– ليش رجعت هون؟

–.....

– بجوز في غلط ..شوي بدي أروح أفحص..

– وكانت الصدمة مسيطرة عليّ ..بعد انقضاء خمس دقائق، داخل الغرفة وبرفقته المسؤول الموجود عند العصافير.

– أعرفك ..الميجر ... (...)ضابط شاباك ..ذهلت وأصابني انهيار عصبي...فقد استغلوا حالتي النفسية لينتزعوا مني كل المعلومات.

إن تجربتي هذه تؤكد أمرين مهمين: أولاً: إن أسلوب العصافير متطور ويخضع للتطوير دائمًا، كذلك ليس هناك وصفة سحرية جاهزة تقدم لأحد ليتجنب الوقوع في شركهم غير فكرة واحدة، عدم الثقة بأحد وإبقاء الأسرار طيّ الكتمان حتى لو انتهت مدة الحكم وعدت للحياة؛ فليس مطلوبًا مني تقديم فاتورة انتماء لمعسكر النضال بالكشف عن خبايا وأسرار عملي... ثانيًا: إن هذه التجربة تزرع الشك في نفس كل من يعايشها لدرجة عدم الثقة بعد ذلك بأي شيء، وهذا له تبعات نفسية جسيمة على الأسير ذاته كإنسان.

"العصافير إذن ..أول مفهوم للعمالة يواجه قاطني مساحات الإسمنت والحديد هذه، إلا أنه ليس الوحيد؛ ففي مجتمع كمجتمع الأسرى تواظب إدارة مصلحة السجون على زرع عملاء داخله، فهم من جهة يقدمون معلومات عن تحركات الأسرى وكل تفاصيل حياتهم، ومن جهة أخرى يحاولون زرع الكثير من الفتن والإشكالات لكي يضربوا استقرار واقع الأسر ..إلا أن الأسرى لديهم أساليبهم الخاصة لكشف العملاء والمتساقطين، ومن أهم هذه الأساليب الجهاز الأمني داخل السجون..فكيف – إذن– استطاع الأسرى العمل عليها؟ إما باتجاه إخضاعهم وانتزاع الاعتراف منهم، أو لجهة إصلاحهم ومحاولة عدم تفاقم الحالة بشكل عام.

إلا أنني قبل الدخول في تفاصيل هذه القضايا لا

بدّ لي أن أذكر مسبقًا رؤية هذه المسألة في سياق الأسر كأحد خنادق النضال، لذلك، علينا القناعة بأن ظاهرة العمالة هي ظاهرة ملازمة لأي شعب تحت احتلال يمارس الظلم والقهر والاضطهاد ضد أفراده، ليكون العميل – أيضًا– وفي هذا السياق ضحية للاحتلال قبل أن يصبح جانيًا؛ فمهما كانت الوقاية حاضرة، إلا أن أخطاء محددة وكذلك تفاصيل مجتمعنا المغلق، تجعل من هذه المسألة شائكة، وبحاجة للوعي المسبق؛ فقبل أن نجرّم العميل علينا ممارسة أشكال عدة لعلاج هذه المسألة وفق هذا المنظور، ولنا بتجارب الأسر العديد من العبر المفيدة في هذا المضمار؛ فالممارسة المغلقة تجاه ضحايا الاحتلال ممن يقعون في شرك العمالة الكارثية، ولفهم لا يقل خطورة عن ممارسة الحماقات الجسام ..واعترافنا أن العميل أصلاً هو جزء لا يتجزأ من هذا الشعب حتى لو مارس ممارسات مضرة بنضاله وتضحياته، هو المفتاح السحري القادر على فك طلاسم هذه القضية، فكيف ذلك إذن؟

سأقدم لكم هنا بعض القصص التي حصلت داخل الأسر وحملت معها مؤشرات عدة سنناقشها بعد الانتهاء من سردها...

أول قصة حدثت منذ فترة داخل الأسر حيث استطاع الجهاز الأمني لأحد التنظيمات جمع العديد من التفاصيل المريبة التي اشارت باتجاه ارتباط أحدهم؛ عند مراجعته الأولية خرج لإدارة السجن وطلب منها نقله إلى

سجن آخر، ولكنها رفضت ذلك، بعد عودته تم إخضاعه بالأساليب المعتادة من التهديد والوعيد واستخدام الضغط النفسي، وفي بعض الأحيان استخدام الضرب الذي لا يصرح به إلا بعد التصريح من قبل المخضع بارتباطه، وتأكد اللجنة المسؤولة عن استجوابه بالكذب الذي يمارسه عبر المعلومات الخاطئة، حين انتهت اللجنة من التحقيق معه كانت اعترافاته كالآتي:

بدأ ارتباطه إثر ممارسة اللواط مع أحد عملاء منطقته، وممارسة الجنس مع أخت العميل ذاته التي كانت بدورها عميلة، وأثناء ذلك صورهما العميل وصورتهما – كذلك– أخت العميل، وهما يمارسان اللواط. بعد ذلك تم عرض الارتباط عليه تارة بالترغيب لقاء المال وممارسة اللواط والجنس، وتارة أخرى بالترهيب بفضح أمره عبر نشر صوره... فوافق على الارتباط. بعد ذلك استدعته المخابرات الصهيونية حيث تم ربطه بشكل رسمي وعرفه على مسؤوله بالشبكة. في إثر ذلك تم تكليفه بالاندساس إلى صفوف أحد التنظيمات المقاومة لكشف أعضائها وفعاليتها.

اعترف بممارسته الجنس مع عاهرات ومتساقطات، وكذلك ممارسة اللواط مع متساقطين، كما حاول إسقاط العديد من الفتيات والفتيان الشرفاء بنفس الطريقة التي أسقط بها، أثناء فترة عمله مع المخابرات في الخارج تدرب على استخدام عدة أنواع من الأسلحة ليستخدمها ضد أبناء

شعبنا، وكما طالب من المخابرات منحه تصريحًا دائمًا للعيش في إسرائيل إلا أنّ طلبه.. رُفض

في السجن جدد ارتباطه مقابل وعد بتقليل حكمه إلى الثلث، فمارس الجنس بعد موافقته العمل داخل الأسر مع إحدى المتساقطات في إحدى الزنازين، كما مارس اللواط مع أحد المتساقطين أمثاله في معبار الرملة. طلبت منه استخبارات السجون العمل على إثارة المشاكل والفتن بين الأسرى؛ فاستخدم عدة أساليب للاتصال مع إدارة السجن ، كما سرق العديد من مقتنيات الأسرى.

بعد الانتهاء من إخضاعه للتحقيق وانتزاع الاعترافات منه تم العمل على برنامج إصلاحي لمحاولة معالجة سلوكه وضبطه.

في قصة أخرى اعترف بأسلوب إسقاطه؛ فقد مارس أحد أقاربه معه اللواط عدة مرات، وفي إحدى المرات قامت أخت قريبة بتصويرهما، ثم مارس الجنس معها حيث كانت هي أصلاً عميلة، كما قامت قريبته بإسقاط شقيقته عن طريق وضع منوم لها في العصير وبعدها قامت بنزع ثيابها عنها وتصوير أخيها العميل مع البنت وهي عارية... كما اعترف الشخص نفسه بممارسة اللواط مع آخر وإسقاطه.

في قصة أخرى يأتي الجنس واللواط كمفتاح للارتباط، إلا أن هذه القضية تأخذ شكلاً أكثر تعقيدًا؛ فبعد أن استدعت المخابرات أحد المواطنين ابتزوه بالاعتقال،

وبعدها أخذه ضابط المخابرات إلى إحدى الشقق حيث كان بانتظارهم فتاتان... أثناء وجودهما وضعوا له في المشروب مخدرًا، وصوروه مع إحدى الفتيات وهو عارٍ، وهكذا تم ابتزازه وربطه بشكل أساسي. تحول المعني إلى عميل خطير جدًا فمارس العديد من عمليات الاعتقال كما عمليات الإسقاط لفتيات وشبان، والأهم من ذلك تزوج من إحدى الفتيات الشريفات حيث أجبرها على ممارسة الجنس مع ضابط المخابرات المسؤول عنه، فكانوا يذهبون معًا في رحلات ويتبادلون الفتيات وهكذا أصبحت زوجته عميلة ...اعترف بهذه التفاصيل بعد إخضاعه..

أما في قصة أخرى تكشف تفاصيل عالم الأسرى العملاء الذين يخرجون إلى الأقسام التي يدعوها الأسرى "بأقسام المحميين" أي الذين ينكشفون وبعدها يخرجون هاربين من عند الأسرى...بعد تجميع العديد من الملاحظات التي أشارت كلها باتجاه ارتباطه ..تم إخضاعه وفي ذكره تفاصيل ما حدث معه قال: بعد هروبي من عند الأسرى قابلت ضابط الاستخبارات وأبلغته بأنني أخضعت للتحقيق عند الأسرى، وإنني اعترفت وأخبرته بكل المعلومات التي أدليت بها لهم..طلب الضابط أن أرفع قضية على الأسرى الذين أخضعوني للتحقيق فرفضت ..وطلبت منه نقلي من السجن، بعدها وضعوني في زنازين السجن خمسة وأربعين يومًا ..زارني خلالها محامٍ وطلب مني العودة إلى الأسرى، هم كانوا يطالبون بهذا ، رفضت خوفًا من قتلي برغم أن

أهلي قد هددوني بالبراءة  مني إن لم أعد... بعدها تم نقلي إلى سجن أخر فيه قسم خاص للهاربين من السجون، فقابلت كثيرًا منهم، سكنت مع أحدهم في غرفة حيث طلب مني العمل مع الإدارة، فوافقت أن أعمل وأن أنقل معلومات عن حال القسم ..وطلب- أيضًا- أن أمارس اللواط معه فرفضت، بعدها أخبرت من معي كلّ ما طلب مني، فنقلنا جميعاً إلى قسم أخر... دخلنا أنا وذلك الشخص إلى غرفة، وبعد إرغامي على ممارسة اللواط هربت وطلبت من ضابط القسم أن ينقلني، ثم ذهبت للعيش مع آخر واستمر هذا مدة أسبوع ..أضربنا عن الطعام يومين.. بعدها تم نقلي إلى سجن جديد، وعند وصولي قابلت ضابط الاستخبارات، وعرض علي الاستئناف، والعودة للعمل معه، رفضت ودخلت غرفة تتسع إلى عشرة أسرى كلهم هاربون من السجون... حيث كان الوضع عبارة عن "كرخانة" من حيث ممارسة اللواط وقد عرضوا علي المشاركة معهم وأنا رفضت، كلهم هناك يتعاملون مع الإدارة، بعدها قدم شخص أخر بعد شهر ونصف واشترك مباشرة معهم باللواط، ومن ثم تحرش بي وأغراني لأمارس معه، رفضت ففرضوا عليّ مقاطعة، بعدها طلبت من الإدارة إخراجي من القسم إلى الزنزانة الانفرادية أو نقلي إلى سجن آخر، رفضت الإدارة الاستجابة لطلبي فقمت بتشفير نفسي من يدي اليسرى مرتين، بعدها تم نقلي إلى سجن أخر ..... ودخلت إلى غرفة فعشت مع أحدهم

مدة عشرين يومًا، بعدها دخلت في إضراب عن الطعام فتم نقلي إلى أقسام العزل، وعشت وحدي حوالي شهر.. بعدها عشت مع شخص أخر مدة ثلاثة أشهر... وحصلت مشكلة بيني وبينه تخللها ضرب بالأيدي، ثم نقلت إلى غرفة وحدي، وبقيت مدة تسعة أيام، بعدها نقلت إلى سجن جديد حيث المعتقلون الأمنيون..وقبل نقلي كنت التقيت ضابط الاستخبارات العامل في مصلحة السجون، الذي دار الحديث معه عن إجراءات نقلي إلى أقسام السجن.. وقعت على ورقة كتب عليها أن خروجي عند الأسرى الأمنيين على مسؤوليتي الشخصية..عند وصولي السجن مكثت يوما في الزنازين، بعدها قابلت ضابط استخبارات السجن وسألني عدة أسئلة عن مكنة العيش هنا، والأسئلة كانت عادة تُسأل لأي سجين قادم للسجن، لم يعرض عليّ العمل معه إطلاقًا، بعدها مكثت في الزنزانة ثلاثة أيام إلى أن عدت إلى السجن.

هذا ما كتبه الأسير نفسه بعد عودته من رحلته التنقلية في أقسام المحميين وسرعان ما تم إعادة التحقيق معه، وتم إعداد برنامج إصلاحي له على طريق إعادته مرة أخرى للمكان الذي يجب أن يكون فيه.

إن مجمل هذه القصص التي سردتها باقتضاب ودون ذكر الكثير من التفاصيل والأسماء تعطي العديد من المؤشرات والأسماء والقراءات حول مسألة العمالة.. أولها أن الاحتلال عبر سلوكه البغيض وغير الأخلاقي

يعرف من أين تؤكل الكتف، فيأتي من تلك الزاوية المعتمة في وعي المجتمع وهي الجنس، فإذا راجعنا كل القصص التي ذكرت والتي لم أذكر سنكتشف أن الجنس هو البوابة الرئيسة للدخول الى مستنقع العمالة؛ فما دام المجتمع مغلقًا وكذلك قلة الوعي لدى أفراده كثقافة عامة سيكون من السهل اختراقه عبر هذه المسلكية، لذلك، لزم علينا أن نثير هذه المسألة، وأن نتجاوز حدود خطوطها الحمراء، لنثقف أفراد شعبنا حولها، ولنبين كيف أن الاحتلال يستخدمها بهذه القذارة. ثانيها أن مجتمع الأسر –وباعتباره ضيقًا يسهل به كشف تصرفات العملاء والمتساقطين– دأب ا على تشكيل لجان أمنية تتابع هذا الجانب بدون إرباك، إلا أنه عبر تاريخ الحركة الأسيرة وقعت العديد من الأخطاء، فعاشت فترة من الهوس الأمني، حين كان الكل مشكوكًا فيه، وعمليات التحقيق تأخذ شكلاً وحشيا كما تشمل أعدادًا كبيرة، وقد ساهمت المخابرات الصهيونية بذلك عبر توجيه بعض العملاء للاعتراف على أسماء شرفاء وكأنهم مرتبطون، إلا أن هذه الفترة رسخت المفهوم الأمني بشكل أكثر وضوحًا. و ثالثًا نفهم الوعي المميز للحركة الأسيرة فيما يتعلق بالعمالة الظاهرة؛ فهي تنحو نحو إصلاح العميل ومحاولة إعادته إلى الحظيرة الوطنية كانتصار فعلي يسجل على المخابرات الصهيونية، وهو– أيضًا– فهم مطابق لوعي العمالة كظاهرة –كما شرحت سابقًا– تقع في فهمها المنطقي لا التجرعي العبثي..

رابعاً: و وهو الأهم رفض الأسرى استخدام أسلوب غير أخلاقي وغير مبرر حتى لو كان مع العملاء، وخاصة أثناء التحقيق معهم... وسأذكر حادثة استخدام العنف بطريقة مقززة أثناء التحقيق مع أحد العملاء، حيث قام المسؤولون عن ذلك بإجلاسه على بلاطه الطبخ لكيّ جسده بالنار باستخدام المسخن الكهربائي، وهذا ما لاقى استهجانًا واسعًا في صفوف الأسرى؛ ما أدى الى ردة فعل غير عادية حول هذه القضية ..واتخذت إجراءات عقابية بحق المسؤولين عن ذلك.

في الأسر مفهوم العمالة يأخذ حيزًا من تفكير الأسير؛ فكما أن هناك وعيًا عاليًا لدى العقل الجماعي حول هذه القضية، إلا أن هناك العديد من الأخطاء التي وقع بها الأسرى؛ من ذلك التشكيك بالعديد من الأسرى، وكذلك التحقيق معهم، واتضح فيما بعد نزاهتهم، فأدى ذلك لنتائج كارثية طالت حياة وسمعة الأسرى المذكورين، كما أن الخوف الدائم من إلصاق التهمة بالأسير تؤدي به لأن يهجس إلى حد الارتباك والهوس. أذكر قصة حدثت منذ زمن حين أمسكت الإدارة "كبسولات" تنظيمية عند أحدهم، ونتيجة لذلك قام الأسير بشنق نفسه داخل الحمام، حيث بدأ التفاعل حول كيفية مسك"الكبسولات" وكذلك تحمل المسؤولية حول ذلك.

إن العمالة هاجس فتاك وسلاح حاد يمزق حياة الأسير في مجتمع مغلق كمجتمع الأسرى؛ فقد استخدم

بعض الأشخاص أسلوب الاتهام بالعمالة كأقصر طريقة للحفاظ على سيطرتهم على الأسرى؛ ما أدى إلى العديد من الكوارث..... وحتى نفهم جيدًا طبيعة الأسر ومكنوناته، ستبقى تفاصيله كالشمس تحجبها سحب النهار؛ فمع غيابها تبقى مفاعليها واضحة ولا ترتد إلا بالمغيب، وآنَ يغيب واقع الأسر خلف حلول الحرية ستبقى مفاعليه حاضرة وآثاره كذلك...

obeikandl.com

# كأنها خاتمة

تتساقط الحروف من على حافة الأبجدية، حاملةً معها معاني واضحة لاستمرارية الكلام كإبداع لا ينتهي. تأتي كحافز اضطراري للحياة؛ فما معنى الحياة دون حروف؟ وكيف لي أن استمر في عبث السؤال الحائر بين المنطق المفروض عليّ وذاك القابع في قرارة النفس؟ ...هو كذا الترتيب للأمور حين تقرر المضي بما تعتقد عمدًا، فليس لك الحق بالصمت ما دمت قد أشرعت بتلات زهرك الخرافي فوق سفينة الأمل المهجوس بالحقيقة، ليأتيَ سؤالك دائمًا وأبدًا ...نعم، كيف حصل ذلك؟

للوهلة الأولى تؤمن بما يعتقده حق التحليق خلف حروف لغتك لتدعها تداعب حلمك وأكثر. هنا حرف وهناك آخر إلى أن تصل حدّ التشكيك بجدوى ما قمت به من رحلة البحث عن جواب سؤالك، لتقع في أوج تناقضك الحتمي لسؤال هو –أصلاً – حق مشروع وإن كان بحاجة لضبط أكثر في المشاعر وكذلك القيم، اعذروني فما زال لدي متسع من العبث الإضافي لأستمر في متاهة اللغة، وأمامكم بعض السطور المليئة بالجنون الفطري لأسير قرّر أن يتكلم، فهل هذا صائب؟

تعبت جداً عند انتهائي من مطالعة هواجسي كاملة بعد تجميعها في مسيرة حوالي عشرة أشهر من النزف المستمر على طريق قيء السجن، وإخراجه بعيدًا عن "أنايا"، حين شاهدته ورقًا تمثل لي كما لم أعهده من قبل في وجعه ومنطقه؛ انتصب أمامي كإحدى أساطير الماضي الملحة في حضورها ذاكرة ومغزى، تعبي ذالك تجسد في تناقض أنتجته بعض الوقفات التي آثرت عليها في ثنايا ما كتبت، كتلك التي أظهرت بعض الحقائق والأحداث داخل الأسر. فأمام سؤال الوجع الكامن في تناقضه، هل يحق لي تعرية واقع الأسر كما فعلت؟ وهل أنا مخول لنزع القدسية عن عالم الاسمنت والحديد هذا لمجرد حصولي على شهادة انتماء له بثمانية أعوام؟ والأهم من هذا وذاك ما جدوى ذلك؟ وهل كنت صائبًا حين ادعيت ضرورة كشف الحقيقة كما هي لترسم في عيون الناس؟ وإن أصبت فكم شخصًا سيكون مستعدًا لتفهم دوافعي، وكذلك رؤيتي التي طرحت؟ وهل هناك من سيجرؤ على الذود عني إن تعرضت لحملة من التشويه والتشهير بسبب ما كتبت؟

عاصفة الأسئلة هذه تقدمت نحوي آنَ انتهيت من قراءة آخر كلمة في آخر هاجس كتبته؛ فقد وضعتني في مواجهة العديد من التناقضات، وإن كانت قناعتي بمنطقي لم تتغير، إلا أنّ جاهزية المجازفة وقراءتها كاملة جعلني

عرضة للكم الهائل من الحقائق التي تعتبر مناطق ممنوع الاقتراب منها، كحقل ألغام زرعته مسلكيات أدت لكارثية النتائج، إلا أنني حين ولجتها انفجر بي أول لغم، فكم سأتأذى حيال ذلك؟ وهل هناك متسع أمام هواجسي هذه لترى النور في ظل غياب القدرة على إعطاء الرأي الآخر حقه في صفحات كتاب؟

إنْ قُدر لكم أن تقرؤوا هذه السطور سيكون هناك الكثير من المتسع لخلق حالة من النقاش الجاد والفعلي حيال ما أقدمت عليه، وكذلك ستستطيعون مشاهدة تفاصيل واقع غيب عنكم ما لم تعيشوه، مع كل هذا، أريد التأكيد مجددًا بوجود العديد من الهواجس التي لم أنجح في تسجيلها بين هواجسي، ولها مكانتها، وكذلك مكانها في حياة الأسير. هذا لم يكن ترفًا، وإنما عدم قدرة لإفراد مساحة من الكلمات لتفرض نفسها مساحة مستقلة، وكذلك اعتراف بعجزي عن التعبير والتصوير في كثير من الأماكن، متى أقرر قائمة من العناوين أذهب باتجاه تغييرها بشطب واحد وذكر آخر داخل آخر إلى أن استقر على ما طالعتموه لتوكم.

عذراً لكل أسير يعدّ ما أقدمت عليه إساءة له، عذرًا لآلاف الأسرى الذين مرّوا من هنا وآثروا الصمت، فلا أدينهم كما لا أريد الاعتراف بصوابية ما أقدموا عليه، فإقدامي على انتهاج غيره ليس صك بطولة أو محاولة

لإظهار تجربتي وكأنها فريدة. عذرًا لأهالي الأسرى الذين سيرفضون حقائق واقع أبنائهم على طريق الذود عنهم، إلا أنني مقتنع بضرورة الحفاظ على مسافة كبيرة بين الحقائق الواردة لواقع اجتماعي إنساني للسجن، وأيضًا باعتبار قاطنيه مناضلين يقدمون فاتورة انتمائهم للوطن سنوات يسكبونها في ثنايا الاسمنت والحديد.

اعذروني جميعًا ...أرجو أن أكون قد اخترت أفضل الطرق لعلاج آثار السجن كحالة عامة، وليس خاصة وحسب.

كفاح طافش
حزيران2011
سجن رامون

obeikandl.com

obeikandl.com